رِوَايَة

أليف شافاك

ترجمة
د. محمد درويش

شرف



دار الآداب

أليف شافاك

شـــــرف

ترجمة: د. محمَّد درويش

رواية

دار الآداب ـ بيروت

شـــرف

شـرف

أليف شافاك / كاتبة تركيّة

الطبعة الأولى 2013

ISBN 978-9953-89-271-9

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123 ـ 11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana.adab@hotmail.com

rana.adab@gmail.com

info@daraladab.com

/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

الإهـداء

عندما كنتُ في السابعة من عمري، كنّا نقطن في بيت أخضر.

وكان أحد جيراننا، وهو خيّاط ماهر، اعتاد ضرب زوجته. وكنّا نستمع في الأماسي إلى الصياح والبكاء والسباب. وفي الصباحات، كنّا نواصل حياتنا كالمعتاد. وكان الحيّ بأكمله يتظاهر بأنّه لم يسمع شيئًا ولم ير شيئًا..

إنّ هذه الرواية مهداة إلى أولئك الذين يسمعون والذين يرون.

(المؤلفة)

على قدْر ما كان يتذكّر، كان الإحساس يراوده بأنّه أمير البيت، وأنّ أمّه هي المتعهّدة به، الغامضة، والحامية المشغولة البال.

جَيْ. إم. كوتزي: العالم الآخر:

مشاهد من حياة رعويّة

مقدّمة المترجم

أليف شافاك... عين على الأقلّيّات

يزداد اهتمام الروائيِّين في عالمنا المعاصر بأحداث العالم، أموغلةً في القدم كانت أم قريبة من عصرنا الحديث، على نحوٍ لم يعرفه الأدب الروائي من قبل. ولعلّ هذا الاهتمام، الذي ينصبّ أساسًا في أحوال الأقلّيّات القوميّة والعرقيّة والدينيّة، يجد له أصدقَ تعبير. في روايات الأديبة التركيّة أليف شافاك، التي تبدو وقد وطّدت العزم على السير في طريق الكشف عن أوضاع الأقلّيّات في غير مكان، وإن كانت تركيا هي البلد المفضّل لديها، لما تنطوي عليه من تاريخ حافل بالأسرار والأعاجيب، من أيّام الإمبراطوريّة العثمانيّة وحتى ظهور الدولة التركيّة الحديثة في بواكير القرن العشرين.

قدّمَتْ أليف شافاك قراءات ناضجة في الكثير من خصوصيّات الأقلّيّات. فهي ترجع إلى الماضي القديم المؤطَّر بأطره الثقافيّة والبيئيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعيّة، لتقدِّمه في قوالب

روائيّة تثير إعجاب القارئ، لما تتمتّع به كتاباتها من رؤى ثقافيّة واسعة الآفاق ومن زاد معرفي متنوّع الأبعاد، محيلةً القارئ على مصادر تاريخيّة وسياسيّة واجتماعيّة وثقافيّة (أدبيّة: شعريّة وروائيّة ونثريّة؛ فكريّة: فلسفيّة ونفسيّة؛ ودينيّة: صوفيّة وقرآنيّة)، تنقّب فيها مثلما ينقّب عالم الآثار في أرض قاحلة بحثًا عن كنوز آثاريّة لا تقدَّر بثمن ولا يعرف قيمتها إلّا الذين أفنوا أعمارهم في دراستها وجلاء عظمتها.

وإذا كانت أليف شافاك تهوى دائمًا العودة إلى الماضي لتنهل منه شخوصَ رواياتها (وهو ما فعلته في روايتها «أربعون قاعدة للحبّ» الصادرة بترجمتنا عن دار الآداب، والتي قدَّمت فيها رؤيتها المعاصرة إلى العلاقة السرمديّة التي ربطت جلال الدين الرومي بشمس التبريزي)، فإنّها عادت إلى التاريخ السياسي والاجتماعي والثقافي مرّة أخرى (في روايتها «لقيطة إسطنبول» الصادرة أيضًا بترجمتنا عن دار الآداب) لتقدّم لنا رؤيتها ـ على لسان شخوصها ـ إلى الصراع الدامي بين السلطنة العثمانيّة والأقلّيّة الأرمنيّة في وقت كان العالم كلّه منهمكًا بأحداث الحرب العالميّة الأولى وما أفرزته من نتائج مدمِّرة على صعيد وضع الأقلّيّات في الدول المتحاربة في أقلّ تقدير وخيبات أمل مريرة عاشتها تلك الأقلّيّات ولا تزال تعيشها حتى يومنا هذا، حتى باتت بؤرَ صراعٍ لا سبيل إلى إطفاء جذوته المستعرَة على مرّ الأيّام والسنين.

وها هي أليف شافاك تقدّم في رواية «شرف» صفحة أخرى من

صفحات البؤس الاجتماعي والإثني والقومي، على المستوى الثقافي والنفسي والاقتصادي الذي يمتدّ في أجزاء من تركيا المعاصرة تعيش فيها أقلّيّة كرديّة بكلّ ما تحتفظ به من قيم وعادات متأصّلة، في الزواج وغسل العار والعلاقات الاجتماعيّة، وهي أجزاء تبدو للقارئ متخلّفة تخلّفًا شاملاً، زمانيًّا ومكانيًّا، وإنْ كانت الأحداث تدور في الماضي القريب، وتتنقّل بين أكثر من بلد.

لقد تمكّنت الروائيّة أليف شافاك، التركيّة المولودة في ستراسبورغ والمتنقّلة في عديد من البلدان الأوروبيّة والمستقرّة زمنًا في الولايات المتّحدة قبل انتقالها مؤخّرًا للعيش في إنكلترا، من توظيف ثقافتها السياسيّة والفكريّة (بحكم دراستها الجامعيّة العليا: الماجستير والدكتوراه) وانفتاح أُفُقها الفكري على الثقافات العالميّة وتاريخ الشعوب، من تقديم أدب روائي فريد في أسلوبه، مذهل في معالجته الأحداث، وهي تتناول هذه الأحداث بتقنيّة تتّضح فيها مؤثِّراتُ كبار أدباء العالم، وبخاصّة جيمس جويس ووليم فوكنر وغيرهما من الروائيّين الذين باتت أساليبهم الروائيّة وتقنيّاتهم الحداثويّة بصمةً لا تُمحى في مسيرة الأدب الروائي العالمي، والذين تجد فيهم أليف شافاك مرجعًا في السرد الروائي المعاصر والحديث فَتَحَ الأبواب واسعة أمام تطوّرات جديدة ومبتكَرة لتبقى للرواية مكانتُها المتميِّزة والسامية في عالم يزداد فيه الاهتمام بالأدب الروائي على مرّ الأيّام.

تجدر الإشارة إلى أنّ أليف شافاك تكتب أعمالها بالتركيّة أو

الإنكليزيّة، وقد كتبت رواياتها الثلاث الآنفة الذكر: «أربعون قاعدة للحبّ» و«لقيطة إسطنبول» و«شرف»، باللغة الإنكليزيّة مباشرة، فكان أسلوبها باهرًا وتقنيّتها الروائيّة لا تضاهى، الأمر الذي يدل على عمق دراستها اللغة الإنكليزيّة وتمكّنها من مفرداتها الفصحى والعامّيّة على حدٍّ سواء.

الدكتور محمد درويش

بغداد/٢٠١٢

أسماء

لندن ١٢ أيلول ١٩٩٢

توفّيت والدتي مرّتين، فآليت على نفسي ألّا أجعل حكايتها في طيّ النسيان، ولكنّني لم أستطع قطّ أن أجد الوقت أو الإرادة أو الشجاعة على كتابتها، حتى وقت قريب في الأقلّ. لا أظنّني سأصبح أديبة حقيقيّة، وهو أمر لا بأس به في الوقت الراهن. لقد بلغت من العمر ما يجعلني راضيةً عن نقاط ضعفي وعن إخفاقاتي، ولكن يتعيّن عليّ أن أَحكي الحكاية وإنْ لشخص واحد، وعليّ أن أرسلها إلى ركن من أركان الكون حيث يمكنها أن تطفو بعيدًا عنّا في حرّيّة. أنا مَدينة لأمّي بهذه الحرّيّة، ويتعيّن عليّ إنهاؤها في هذا العام قبل أن يطلق سراحه من السجن.

بعد بضع ساعات سوف أرفع حلاوة السمسم من فوق الحاجب الحديدي وأتركها كي تبرد بالقرب من حوض غسيل الأواني، وأقبّل زوجي متظاهرة بأنّني لم أشاهد نظرة القلق البادية في عينيه، ثم أغادر المنزل من بعد ذلك رفقةَ ابنتيَّ التوأمين

ـ البالغتين من العمر سبع سنوات، واللتين تفصل بينهما أربعُ دقائق ـ لنذهب إلى حفلة عيد ميلاد. سوف تتشاجران في الطريق ولكنّني لن أنهرهما، وسوف تتساءلان إنْ كان ثمّة مهرّج في الحفلة أو ساحر، وهذا أفضل.

سوف أقول لهما:

ـ مثل هاري هوديني.

ـ هاري من؟

ـ قالت هوديني أيّتها الغبيّة!

ـ من هو يا أمّي؟

شيء مؤذٍ. ألمٌ يشبه لسعةَ نحلة. ليس ألمًا ظاهريًّا بل أشبه بحرقة داخليّة متزايدة في شدّتها. وسوف أدرك، كما أدركت مرّات ومرّات في كثير من المناسبات السابقة، أنّهما لا تعرفان شيئًا عن تاريخ أسرتهما، لأنّني لم أخبرهما إلّا قليلاً جدًّا. يومًا ما، عندما تكونان مستعدّتين، عندما أكون أنا مستعدّة.

بعد أن أوصل الفتاتين، سوف أتجاذب أطرافَ الحديث برهةً وجيزةً مع بقيّة الأمّهات الحاضرات. وسوف أذكّر مضيفَ الحفل بأنّ إحدى ابنتيَّ لديها حساسيّة تجاه المكسّرات، ولكنْ نظرًا لصعوبة التمييز بين التوأمين، فإنّه يستحسن وضعهما تحت المراقبة والتأكّد من عدم تناول أيٍّ واحدة منهما طعامًا يحتوي على المكسّرات، ومن ضمن ذلك قالب حلوى عيد الميلاد. أعرف أنّ هذا غير منصف لابنتي الأخرى، لكنْ يحدث أحيانًا هذا الشيء بين الأبناء، أعني الظلم.

وبعد ذلك سوف أعود أدراجي إلى سيّارتي، وهي سيّارة حمراء اللون من طراز أوستن مونتيغو أسوقها أنا وزوجي بالتناوب. المسافة من مدينة لندن إلى شروزبيري تستغرق ثلاث ساعات ونصف الساعة. ربّما أضطرّ إلى التوقّف للتزوّد بالوقود قبل أن أصل مدينة برمنغهام. وسوف أبقي صوت المذياع عاليًا، فذلك يسهم في طرد الأشباح بعيدًا، أعني الموسيقى.

فكّرت مرّات ومرات في أن أقتله، فوضعت خططًا معقّدة تضمّنت استخدام المسدّسات، أو السمّ، أو حتى السكّين ـ عدالة شعريّة إلى حدٍّ ما. وفكّرت أيضًا في العفو عنه، عفوًا حقيقيًّا وخالصًا، ولكنّني لم أحقّق أيّ شيء من هذا كلّه في نهاية الأمر.

* * *

عندما أصل شروزبيري، سوف أترك السيّارة أمام محطّة القطار وأسير مسافة خمس دقائق حتى أصل مبنى السجن المكسوَّ بالسخام. وسوف أخطو من فوق الشارع أو أتّكئ على الجدار في الجهة المقابلة للبوّابة الرئيسة منتظرةً خروجه. لا أدري كم سيستغرق منّي هذا كلّه. ولا أدري أيضًا كيف سيكون ردّ فعله عندما يراني؛ فأنا لم أزره منذ أكثر من عام بعد أن كنت أتردّد عليه في انتظام ولكنّني توقّفت عن زيارته بعد أن اقترب موعد إطلاق سراحه.

في لحظة من اللحظات سوف تُفتح البوّابة الضخمة من الداخل، وسوف يخرج، وسوف يرفع بصره وينظر إلى السماء المُعْتِمة وهو الذي لم يألف رؤية مثل هذا الفضاء الشاسع الممتدّ من فوق رأسه بعد أربع عشرة سنة أنفقها في السجن. أتخيّله وقد

رمشَتْ عيناه لضوء النهار مثل مخلوق من مخلوقات الظلام. وسوف أحافظ على هدوئي في تلك الأثناء، وسوف أعدّ حتى العشرة أو المائة أو الثلاثة آلاف. لن يعانق أحدنا الآخر، ولن نصافح يدينا، وسنكتفي بإيماءة مشتركة وتحيّة هي الأشدّ اقتضابًا، وبصوتين هامسين مختنقين. وعندما نصل المحطّة، سوف يثب داخلَ السيّارة، وسوف تستبدّ بي الدهشة لرؤيته نشيطًا قويًّا. على أيّة حال، لا يزال شابًّا.

إن شاء أن يدخّن سيكارة فإنّني لن أمانع، وإن كنت أكره الرائحة ولا أسمح لزوجي بأن يدخّن داخل السيّارة أو في المنزل. سوف نمضي بالسيّارة على امتداد الريف الإنكليزي، ونجتاز مروجًا هادئة وحقولاً واسعة. وسوف يستفسر عن أحوال ابنتيَّ وسأخبره أنّهما على ما يرام وأنّهما تكبران في سرعة. وسوف يبتسم وإن كان لا يملك أدنى فكرة عن الأبوّة. ولن أسأله عن أيّ شيء مقابل أسئلته.

سوف أصطحب شريط كاسيت للاستماع إليه، شريطًا يضمّ أفضل أغنيات فريق آبا ـ كلّ الأغنيات التي كانت تدندنها أمّي أثناء الطبخ أو التنظيف أو الخياطة: «تيك تشانص أون مي» و«ماما ميا» و«دانسنغ كوين» و«ذا نيم أوف ذا غيم». إنّني واثقة في أنّها تراقبنا. الأمّهات لا يذهبن إلى الجنّة بعد وفاتهنّ، بل يحصلن على إذن خاصّ من الله للبقاء في الجوار مدّة أطول للعناية بأطفالهنّ، بغضّ النظر عمّا مرَّ بهنّ أثناء حياتهنّ القصيرة الفانية.

ولدى وصولنا ساحة برانزبري في لندن، سوف أفتّش عن فسحة لإيقاف السيّارة وأنا أتذمّر في داخلي. سوف تمطر السماء

قطرات صغيرة بِلَّوْرِيّة. وأخيرًا سنعثر على فسحة أحشر فيها السيّارة بعد مناورات طويلة. يمكنني أن أضلّل نفسي بأنّني سائقة ماهرة حتى يصل الأمر إلى إيقاف السيّارة في موقف السيّارات. أفكّر إن كان سيسخر منّي لأنّني سائقة سيّارة كغيري من النساء، وقد سخر منّي يومًا ما.

سوف نسير معًا في متّجه المنزل، الشارع هادئ وساطع من أمامنا ومن ورائنا. وسوف نقارن في لحظة عابرة محلّتنا ببيتنا العتيق في حيّ هاكني، البيت الكائن في شارع لافيندر غروف، ونتعجّب كيف باتت الأمور مختلفة اليوم، وكيف تَقدَّمَ الزمان إلى أمام حتى في وقت لم نتمكّن فيه نحن من التقدّم.

عندما ندخل الدار سنخلع أحذيتنا وننتعل الخُفّ ـ خفًّا أسود كلاسيًّا له، كمثل ما يستعمله زوجي، وخفًّا خمريّ اللون ومزيّنًا بكرات أماميّة لي، وسوف تتلوّى عضلات وجهه لرؤيته، ولكي أريح بال، سوف أخبره أنّه هديّة من ابنتيَّ، وعندئذٍ سوف يسترخي مدركًا أنّه ليس خفّها، أمّا التشابه فمصادفة محضة.

سيراقبني من عتبة الباب وأنا أعدّ الشاي الذي سأقدّمه مع الحليب وكمّيّات كبيرة من السكّر، هذا إنْ لم يكن السجن قد غيّر من عاداته. ثم سوف أقدّم حلاوة السمسم، وسوف نجلس معًا على مقربة من النافذة وفي يدينا كوبان وطبقان من الخزف الصيني، كأنّنا غريبان مهذّبان، نرقب المطر من على نبات البنفسج في حديقتي الخلفيّة. سوف يُثني على إعداد الحلاوة وسيقول إنّه اشتاق كثيرًا لحلاوة السمسم، وإنْ كان سيمتنع في أدب جمّ عن تناول شيء آخر. وسأقول له إنّني أتبع الوصفات التي تعدّها والدتي

بحذافيرها ولكنّ النتائج لا تأتي بالجودة التي تعدّها هي نفسها. وعندئذٍ سيلتزم الصمت. سنتبادل النظرات الطويلة، ويستقرّ صمت ثقيل الوطأة في الجوّ. ثم يطلب الإذن قائلاً إنّه يشعر بالتعب وإنّه يفضّل أن يستريح إن كان ذلك ممكنًا. سوف أقوده إلى غرفته وأغلق الباب في بطء.

سأتركه في ذلك المكان. في غرفة من غرف منزلي ليست بعيدة وليست أقرب ممّا ينبغي. سوف أحتجزه بين هذه الجدران الأربعة، بين الحبّ والكراهية، عاجزًا عن الحيلولة بيني وبين الإحساس بكليهما، ساكنًا إلى ما لا نهاية في علبة داخل فؤادي.

إنّه أخي.

إنّه قاتل.

* * *

أسماء مثل مكعّبات سكّر

قرية على مقربة من نهر الفرات ١٩٤٥

عندما وُلدتْ بمبي، بلغ الحزن بنازي حدًّا جعلها تنسى كلّ آلامها طوال الاثنتي عشرة ساعة الماضية. كان الدم ينضح من بين ساقيها وحاولت النهوض والخروج. هذا ما قاله الحاضرون في غرفة الولادة في ذلك اليوم المفعم بالنشاط.

ولكنْ على قدْر ما كانت ترغب في الخروج، فإنّها لم تستطع الذهاب إلى أيّ مكان. فقد اضطرّت وسط دهشة النساء في الغرفة ودهشة زوجها بيرزو، الذي كان منتظرًا في باحة الدار، إلى العودة إلى السرير بعد أن استبدّت بها موجة جديدة من التقلصات. وبعد ثلاث دقائق برز رأسُ طفل ثانٍ، كثيف الشعر، محمرّ البشرة، مبلَّلٌ ومتغّضن. بنت ثانية، ولكنّها أصغر حجمًا.

لم تحاول نازي الهروبَ في هذه المرّة، بل اكتفت بإطلاق تنهيدة ودفنتْ رأسها في الوسادة والتفتت نحو النافذة المفتوحة كأنّها تجاهد من أجل أن تسمع همسة القدَر في الريح، همسة رقيقة

رقّةَ الحليب. وفكّرت: لو أنّها أصغت في اهتمام شديد فلربّما سمعت جوابًا صادرًا عن السماوات. على أيّة حال لا بدّ من سبب، من مبرِّر لا تعرفه ولكنّه بالتأكيد واضح لله: لماذا رزقهما بابنتين أخريين فضلاً على البنات الستّ السابقات ولم يرزقهما حتى الآن بولد واحد.

زمَّت نازي شفتيها مثل حافّة قماش مطويّة، ووطّنت نفسها على عدم التفوّه بأيّة كلمة إلى أن يوضح لها الله توضيحًا كاملاً ومقنعًا، الدافعَ من وراء أفعاله. وكان فمها مطبقًا حتى في نومها. وفي غضون الأيّام والليالي الأربعين التي أعقبت ذلك، لم تتفوّه بكلمة واحدة، حتى عندما كانت تطهو الحمّص مستخدمةً إلية خروف، أو عندما كانت تحمّم بناتها الستّ الأخريات في دلو كبيرةٍ ودائريّةٍ ومصنوعة من الصفيح، أو عندما كانت تعدّ الجبنة وتضع فيها الثوم والأعشاب، أو عندما سألها زوجها عن الاسم الذي تحبّ أن تسمّي به المولودتين الجديدتين... ظلّت صامتة صمْتَ المقبرة القريبة من التلال حيث دُفن كلّ أسلافها وحيث ستُوارى الثرى بدورها يومًا ما.

كانت قرية كرديّة نائية كالحة، تخلو من الطرقات والكهرباء، ولا أثر فيها لمدرسة أو لطبيب. وقلّما كانت أخبار العالم الخارجي تتغلغل في عزلتها: عواقب الحرب العالميّة الثانية أو القنبلة الذرِّيّة... من الأمور التي لم يسمع بها القرويّون، ولكنّهم على الرّغم من ذلك كانوا مقتنعين أنّ ثمّة أشياء غريبة حدثت في الكون، بمعنى خارج حدود شواطئ نهر الفرات. ولمّا كان العالم كما هو عليه، فإنّ الرغبة كانت معدومة في محاولة اكتشافه. فكلّ ما هناك

وكلّ ما سيكون، موجود في هذا الزمان والمكان. فأبناء الجنس البشري قُدِّر عليهم أن يكونوا مستقرِّين استقرارَ الشجر والجلاميد، إلّا إذا كنت واحدًا من هؤلاء الثلاثة: صوفيًّا جوّالاً ضيَّع ماضيه، أو أحمق فقد عقله، أو مجنونًا فقد حبيبته.

وإذا ما تركنا الدراويش وغريبي الأطوار والعشّاق جانبًا، فإنّ بقيّة الناس لا يرون ما يثير الدهشة، بل يعتقدون أنّ كلّ شيء يجري كما هو مقدّر عليه. فما من شيء يحدث في ركن ما حتى يتناهى إلى مسامع الآخرين في سرعة. الأسرار نوع من البذخ الذي لا يقدر عليه سوى الأغنياء، وفي هذه القرية التي تُسمّى «مالا جار بايان» (منزل الرياح الأربع)، لا يوجد أثر لأيّ غنيّ.

كان شيوخ القرية، وأكبرهم سنًّا ثلاثة رجال قصار القامة كئيبو المظهر، أنفقوا معظم أوقاتهم في المقهى الوحيد مستغرقين في التفكير في الحكمة الإلٰهيّة وفي غباء الساسة. وكانوا يرشفون شايهم في أقداح رقيقةٍ رقّةَ قشور البيض، هشّةٍ هشاشة الحياة نفسها. ولمّا سمعوا عن العهد الذي قطعَتْه نازي على نفسها بعدم الكلام والتزام الصمت، قرّروا أن يقوموا بزيارتها.

قال الرجل الأوّل الذي بلغ من الكِبَر مبلغًا كبيرًا، ويمكن لأقلّ نسمة هواء أن تطرحه أرضًا:

ـ جئنا لنحذّركِ بأنّك توشكين أن تقترفي إثمًا لا يقرّه الدين.

وقال الرجل الثاني الذي لم يكن في فمه سوى عدد قليل من الأسنان:

ـ كيف يمكنك أن تتوقّعي من الله عزّ وجلّ أن يكشف لك عن خططه في حين أنّنا نعرف أنّه لم يكلّم إلّا الأنبياء؟ المؤكّد أنّ

أولئك الأنبياء لم تكن من بينهم أيّة امرأة.

أمّا الرجل الثالث، فلوّح بيديه الجامدتين الكثيرتي العقد كأنّهما جذور إحدى الأشجار وقال:

ـ يريد الله أن يسمعك وأنت تتكلّمين. ولو شاء غير ذلك لجعل منك سمكة.

أصغت نازي وهي تمسح عينيها بحافّتي منديل رأسِها بين الفينة والفينة، وتخيّلت لحظةً من الزمان أنّها انقلبت سمكةً ـ سمكة كبيرة بنّيّة اللون تسبح في النهر، تلمع زعانفُها تحت أشعّة الشمس، رُقَطُها السود محاطة بهالات شاحبة اللون. ولم تعرف إلّا القدر اليسير عن أنّ أطفالها وأحفادها سوف يشعرون في مراحل مختلفة من حياتهم أنّهم مرتبطون بمختلف أنواع الأسماك، وأنّ صلة ما بالمملكة الكائنة تحت الماء سوف تظلّ قائمة في الأسرة على مدى الأجيال القادمة.

وقال الرجل الأوّل:

ـ تكلّمي! إنّ بقاء مَن هي مِن جنسك ساكتة منافٍ للطبيعة. وما ينافي الطبيعة يناقض إرادة الله.

ولكن نازي لبثت صامتة لا تتفوّه بأيّ شيء.

ولمّا انصرف الضيوف الشيوخ، اقتربت نازي من المهد الذي كانت تنام فيه الطفلتان، وكان الوميض المنبعث من الموقد قد أضفى على الغرفة لونًا ذهبيًّا انعكس بدوره على بشرتي الطفلتين فبدتا مثل ملاكين. رقّ قلبها، واستدارت إلى بناتها الستّ اللواتي كنّ مصطفّات إلى جانبها بدءًا بأطولهنّ قامةً وانتهاءً بأقصرهنّ، وقالت في صوت أجشّ وعميق:

ـ أعرف ماذا سأسمّيهما.

فهتفت البنات مسرورات عندما سمعن والدتهنّ تتكلّم من جديد:

ـ أخبرينا يا أمّاه!

تنحنحت نازي وقالت في نبرة تشوبها الهزيمة:

ـ هذه بخت والثانية بس.

فردّدت الفتيات في صوت واحد:

ـ بخت وبسّ.

ـ نعم يا أطفالي.

قالت نازي ذلك وتلمّظت، كأنّ الاسمين تركا طعمًا واضحًا مميَّزًا على لسانها، لاذعًا وحامضًا. بخت وبس باللغة الكرديّة قدر وياطر باللغة التركيّة، وبخت وكفاية بأيّة لغة أخرى محتملة. وسيكون هذا هو أسلوبها في الإعلان أمام الله أنّها وإن كانت مؤمنة بقدَرها مثل أيّ امرأة مسلمة صالحة، إلّا أنّها حصلت على نصيبها من البنات، وأنّها في حَمْلها القادم، الذي سيكون الأخير لأنّها ستبلغ الحادية والأربعين وتتجاوز مرحلة شبابها، ترجو من الله أن يرزقها بولد ولا شيء غير الولد.

في ذلك المساء، وعندما رجع الأب إلى المنزل، هرعت البنات نحوه لتبلغه الخبر السعيد:

ـ بابا، بابا! لقد تكلّمت ماما!

وعلى قدر ما انتاب السرور بيرزو عندما علم أنّ زوجته تكلّمت من جديد، إلّا أنّ غشاوة علت وجهه لمّا عرف الاسمين اللذين أطلقتهما زوجته على المولودتين الجديدتين. فما كان منه إلّا

أن هزَّ رأسه ولبث صامتًا ثواني معدودة شابها الارتباك.

وأخيرًا تمتم كأنّه يكلّم نفسه:

ـ بخت وبس، لكنّكِ لم تسمّي الطفلتين حقًّا، بل أرسلت طلبًا إلى السماوات.

حدّقت نازي إلى قدميها وأنعمت النظر في إصبع قدمها البارزة من تحت ثقب في جورب صوفي.

ومضى بيرزو يقول:

ـ إنّ الأسماء المنطوية على أحاسيس تنمّ عن الامتعاض قد تكون مهينة للخالق. ما الذي يدفعك إلى جعله يصبّ جامّ غضبه علينا؟ يُستحسن بك الالتزام بالأسماء الاعتياديّة والبقاء في الجانب الآمن.

بعد أن تفوّه بيرزو بهذا الكلام أعلن أنّ لديه خيارات أخرى يفكّر فيها: بمبي وجميلة ـ اسمان يشبهان مكعّبات السكّر التي تذوب في شايك، حلوة وطيّعة، بلا أيّ حافّات حادّة.

على الرّغم من أنّ قرار بيرزو كان حاسمًا ونهائيًّا، إلّا أنّ خيارات نازي لم يهمل شأنُها، إذْ ستبقى عالقة في ذاكرة الجميع، مرتبطة بشجرة العائلة مثل طيّارتين من ورق عالقتين بين الأغصان. وهكذا أصبحت التوأمان معروفتين بمجموعة من الأسماء: بمبي قدر وجميلة ياطر ـ قدر بمبي وكفاية جمال. مَن كان في وسعه أن يقول إنّ هذه الأسماء سوف تطبع على صفحات الجرائد يومًا ما في جميع أنحاء العالم؟

* * *

ألـــوان

قرية على مقربة من نهر الفرات، ١٩٥٣

هامت بمبي حبًّا بالكلاب منذ نعومه أظفارها، وأحبّت طريقتها في فهم أرواح البشر حتى وهي نائمة مغمضة العينين. وكان معظم الراشدين يعتقدون أنّ الكلاب لا تفهم كثيرًا، ولكنّها اعتقدت أنّ ذلك ليس صحيحًا؛ فهي تفهم كلّ شيء ولكنّها مسامِحة فحسب.

ثمّة نوع واحد من الكلاب استهواها على وجه الخصوص، له أذنان طويلتان وخطم طويل وباللونين الأبيض والأسود. كان ذلك الكلب مخلوقًا طيّب السريرة يروقه أن يطارد الفراشات ويمارس اللعب ويأكل كلّ شيء تقريبًا. وكانوا يسمّونه «قطمير»، وأحيانًا «كوتو» أو «دودو». كان اسمه متغيّرًا على الدوام.

وفي يوم من الأيّام، بدأ الكلب يتصرّف تصرّفًا غريبًا على حين بغتة، كأنّ جنّيّة مشاكسة تلبّسته. ولمّا حاولت بمبي أن تُربِّتَ على صدره وثب عليها نابحًا وعضَّ يدها. لم يكن الجرح البالغ الذي تسبّب فيه مبعثَ قلق، وإنّما سلوكُه. وفي وقت لاحق، انتشر مرض

داء الكَلَب في المنطقة، فألحّ عليها شيوخ القرية الثلاثة أن تذهب إلى أحد الأطبّاء، وإن كان أقرب طبيب يبعد مسافة ستّين ميلاً.

وهكذا، استقلّت البنت بمبي ووالدها بيرزو أوّل حافلة صغيرة، ثم حافلة كبيرة، وتوجّها إلى مدينة أورفه الكبيرة.

ولمّا فكّرت بمبي أنّها سوف تكون بعيدة عن أختها التوأم جميلة يومًا كاملاً، فقد سرت في أوصالها قشعريرة باردة. ولكنّها من جهة أخرى فرحت، لأنّ والدها سيكون في رفقتها وحدها. كان بيرزو رجلاً متين البنيان، قوي العضلات، صارم الملامح، وله شارب كثّ ويدا فلّاح وشعر أشيب عند صدغيه. وكانت عيناه البندقيّتان الغائرتان توحيان بالعطف والحنان. وإذا ما استثنينا الأوقات التي يحتدّ فيها مزاجه، فإنّه رابط الجأش، هادئ عادةً - وإنْ كان يشعر بحزن عميق لأنّه لم يُرْزَق بولد يحمل اسمه إلى أقصى أقاصي الأرض. وعلى الرّغم من أنّه كان رجلاً قليل الكلام، نادر الابتسام، إلّا أنّه كان يعامل أطفاله بأفضل ممّا تعاملهم زوجته. وكانت بناته الثماني يتنافسن من أجل الحصول على حبّه وعطفه، مثل دجاج يلقط حفنة من الحبوب.

كان السفر إلى المدينة مسلّيًا ومشوّقًا، أمّا الانتظار في المستشفى فلم يكن كذلك على الإطلاق؛ فأمام باب غرفة الطبيب كان ثلاثة وعشرون مريضًا في الانتظار. وقد عرفت بمبي العدد معرفة دقيقة لأنّها، بخلاف بقيّة فتيات القرية اللواتي كنّ في الثامنة من أعمارهنّ، كانت وجميلة قد التحقتا بالمدرسة، التي كانت مبنًى متداعيًا من طبقة واحدة، وفي قرية أخرى يستغرق الذهاب إليها سيرًا على الأقدام أربعين دقيقة، وكانت تستطيع القيام بعمليّة العدّ.

كان ثمّة موقد في وسط حجرة الدرس ينفث دخانًا أكثر ممّا يرسل دفئًا وحرارة. وكان الأطفال الأصغر سنًّا يجلسون إلى جانب منه، في حين يجلس الأطفال الأكبر سنًّا في الجانب الآخر. ولمّا كانت النوافذ لا تُفتح إلّا نادرًا، فقد كان الهواء في داخل الحجرة نتنًا، ثقيلاً مثل نشارة الخشب.

قبل أن تبدأ بمبي بالذهاب إلى المدرسة، كانت تظنّ ظنًّا قويًّا أنّ كلّ الناس على وجه البسيطة يتكلّمون اللغة الكرديّة، ولكنّها أدركت الآن أنّ الأمر ليس كذلك، بل إنّ عددًا غير قليل من الناس لم يكن يفقه شيئًا من اللغة الكرديّة، مثل معلّم المدرسة على سبيل المثال، الذي كان رجلاً قصير الشعر يميل إلى الصلع وتنبعث من عينيه نظرة ملؤها الحزن والهمّ، وكأنّه مشتاق للحياة التي خلّفها من ورائه في إسطنبول وممتعض من إرساله إلى هذه البقعة المنسيّة. وكان يستاء كثيرًا وينزعج عندما يكتشف أنّ التلاميذ لا يفهمون ما يقول، أو عندما يطلقون نكتة باللغة الكرديّة فلا يفهمها. ولهذا السبب طرح مؤخّرًا مجموعة من القواعد والتعليمات: كلّ من يتفوّه بكلمة كرديّة واحدة سوف يعاقب بالوقوف على قدم واحدة بجانب السبّورة وظهرُه إلى بقيّة التلاميذ. وهكذا، وقف معظم التلاميذ تلك الوقفة بضع دقائق ليعفى عنهم من بعد ذلك، شريطةَ عدم تكرار الغلطة. ولكن بين حين وآخر، كان أحد التلاميذ ينسى نفسه أثناء النهار، فيُحكم عليه بالوقوف ساعات على قدم واحدة. غير أنّ هذه التعليمات ولّدت ردّ فعل مختلفًا في نفس التلميذتين التوأمين، ففي حين صمتت جميلة صمتًا تامًّا ورفضت الكلام بأيّ لغة مهما كانت، فإنّ بمبي بذلت قصارى جهدها للتفوّق في اللغة التركيّة،

مُوَطِّنَةً نفسَها على تعلّم لغة المعلّم والتأثير فيه من خلال ذلك.

في هذه الأثناء كانت الأمّ نازي لا تفهم شيئًا من تعلّم هذا العدد الكبير من الكلمات والأعداد التي لا فائدة ترجى منها ما دام أنّ البنات سوف يتزوّجن قبل أن يمضي وقت طويل. بيد أنّ زوجها أصرَّ على تعليم بناته.

وكانت نازي تقول متذمّرة:

ـ في كلّ يوم تسير الفتاتان هذه المسافة الطويلة ذهابًا وإيابًا، وقد بَلِيَتْ أحذيتهنّ. لماذا؟

وكان بيرزو يجيب:

ـ كي يتمكّنّ من قراءة الدستور.

فتسأله مرتابة:

ـ وما الدستور؟

ـ إنّه القانون أيّتها الجاهلة! الكتاب الضخم! ثمّة أشياء مسموح بها وأشياء أخرى ممنوعة، وإذا لم تعرفي الفرق بين الاثنين فسوف تتورّطين في مشكلة.

وهكذا، أغلقت نازي فمها وإن لم تكن قد اقتنعت بعد، وقالت:

ـ وكيف سيساعد ذلك في زواج بناتي؟

ـ تعرفين؟ إذا ما عاملهنّ أزواجهنّ يومًا ما معاملة سيّئة فإنّهنّ لن يكنّ مضطرّات إلى تحمّل ذلك، بل يمكنهنّ أن يأخذن أطفالهنّ معهنّ ويتركن بيوتهنّ.

ـ آه! وإلى أين سيذهبن؟

لم يسبق لبيرزو أن فكّر في ذلك، فقال:

ـ في إمكانهنّ اللجوء إلى بيت أبيهنّ بالتأكيد.

ـ هه! أهذا هو السبب الذي يدفعهنّ إلى المشي مشيًا ثقيلاً كلّ تلك المسافة الطويلة يوميًّا ويملأن أدمغتهنّ بكلّ ذلك الهراء؟ كي يعدن إلى البيت الذي ولدن فيه؟

قال بيرزو في حدّة:

ـ اذهبي واصنعي لي شايًا. أنت امرأة ثرثارة.

فتمتمت نازي وهي في طريقها إلى المطبخ:

ـ معاذ الله! ما من ابنة من بناتي تهجر زوجها، وإذا ما فعلت ذلك فسوف أبرحها ضربًا حتى وإن كنت ميتة في ذلك الوقت، إذْ سأعود إليها في صورة شبح!

كان هذا التهديد نبوءة، على الرّغم من أنّه كان تهديدًا أجوف ومتهوّرًا، إذْ إنّ نازي ستعود بعد وفاتها بوقت طويل لتلازم بناتها كظلّهنّ، وإنْ بدرجات متباينة. على أيّة حال، كانت امرأةً عنيدة، صعبة المراس، لا تقْدر على النسيان، ولم تسامح أحدًا ـ على العكس من الكلاب.

أثناء الانتظار في المستشفى، حدّقت بمبي بعينيها الطفوليّتين إلى الرجال والنساء المصطفِّين في الممرّ، وكان بعضهم يدخّن السكائر والبعض الآخر يأكل أقراص الخبز التي أحضرها معه من البيت، بينما ينشغل قسم ثالث بتضميد الجروح أو البكاء والعويل في ألم. وكانت تخيّم على الجميع رائحة نتنة ثقيلة ـ رائحة عرق ومعقِّمات وشراب السعال.

شعرت البنت وهي تراقب حالة كلّ مريض، بإعجاب شديد بالطبيب الذي سوف تقابله، وفكّرت أنّ رجلاً يمكنه أن يوفّر العلاج لهذا العدد الكبير من الأمراض لا بدّ أن يكون رجلاً خارقًا، عرّافًا، ساحرًا، مشعوذًا دائمَ الشباب بأصابع مدهشة... وفي الوقت الذي حان دورهما، كانت مفعمة بحبّ الاستطلاع وهي تسير من خلف أبيها داخل عيادة الطبيب.

كان كلّ شيء داخل العيادة أبيض اللون، وكان البياض يختلف عن رغوة الصابون التي تتشكّل على سطح النافورة عندما كنّ يغسلن ثيابهنّ، ويختلف أيضًا عن الثلج المتراكم خارج البيت في ليلة شتاء، أو مصل اللبن الذي يخلطونه بالثوم لصنع الجبنة. كان بياضًا لم يسبق لها أن شهدت مثله من قبل ـ قاسيًا وغريبًا، بياضًا دفعَتْها برودتُه إلى الارتعاش. الكراسي والجدران وبلاط الأرضيّة وسرير الفحص الطبّي، وحتى الأكواب والمباضع، كانت مطليّة بهذا اللون. لم يخطر ببال بمبي أنّ الأبيض يمكن أن يكون مربِكًا ومحيِّرًا وبعيدًا ومظلمًا إلى هذه الدرجة.

وممّا زاد في دهشتها أكثر، أنّ الطبيب كان امرأة، ولكنّها امرأة مختلفة عن أمّها وخالاتها وجاراتها، ومثلما كانت الغرفة غارقة في غياب اللون، فإنّ الطبيبة الواقفة أمام عينيها لم تكن تتّصف بأيّ من الصفات التي كانت مألوفة عند بمبي، فمن تحت الصدريّة البيضاء الطويلة كانت الطبيبة ترتدي تنّورة رماديّة اللون لا تتجاوز في الطول ركبتيها، وجوربين من أجمل أنواع الصوف وأرقّها، وتحتذي حذاء جلديًّا طويل الرقبة، وكانت تضع نظّارة مربّعة الشكل فتبدو أشبه ببومة رديئة الطبع. لم تكن الطفلة قد رأت من قبل بومة رديئة الطبع،

ولكن المؤكّد أنّ مثل هذه البومة تبدو بهذا الشكل. كم هي مختلفة عن النساء اللواتي يعملن في الحقول من الفجر وحتى الغروب وتعلو وجوههنّ الغضون بسبب الشمس وإنجاب الأطفال حتى يكتفين بما رُزقن من أبناء. ها هي أمام أنثى اعتادت أن ينتظر منها الناس، وبضمنهم الرجال، كلَّ كلمة تتفوّه بها، كما أنّ بيرزو نفسه خلع قبّعته وخفض من كتفيه في حضرتها.

لم تنظر الطبيبة إلى الأب والابنة إلّا نظرة واحدة عابرة، خاطفة، كأنّ وجودهما أثقلها ـ بل وأثار حزنها. الواضح أنّهما كانا آخرَ من تريد أن تعالج من الناس في نهاية يوم شاقّ وجهيد. لم تتكلّم كثيرًا معهما، بل تركت الممرّضة توجّه الأسئلة الضروريّة: ما شكل الكلب؟ هل كان يرغو ويُزْبِد؟ هل كان يسلك سلوكًا غريبًا لدى رؤيته الماء؟ هل عضّ شخصًا آخر من سكّان القرية؟ هل جرت معاينته بعد ذلك؟

كانت الممرّضة تتكلّم في سرعة كبيرة، كأنّ ثمّة ساعة مثبّتة في مكان ما والوقت ينفد. وشعرت بمبي بالفرح والسرور لعدم مجيء والدتها معهما، لأنّها لا طاقة لها بمتابعة الحديث، ولتفوّهت بأشياء غير صحيحة ملؤها الخوف والتوجّس.

وفي حين انشغلت الطبيبة في كتابة الوصفة الدوائيّة، حقنت الممرّضة الطفلة بحقنة في بطنها، ما دفعها إلى البكاء بأعلى صوتها، وظلّت تواصل البكاء بكاء مرًّا عندما خرجت رفقةَ والدها من العيادة إلى الممرّ، فضاعف من همومها اهتمام الغرباء بها. وفي تلك اللحظة، اعتدل الأب واستقام وعاد إلى هيئته المعروف بها، وهمس في أذنها بأنّه سيصحبها إلى دار السينما إذا ما هدأت

وتصرّفت تصرُّفَ البنات العاقلات.

وسرعان ما لزمت بمبي الصمت وومضت عيناها بالأمل، لأنّ كلمة «سينما» بدت لها أشبه بحلوى مغلّفة لا تعرف ما في داخلها، ولكنّها كانت متأكّدة من أنّها تحتوي على شيء لذيذ.

* * *

في المدينة مسرحان، أكبرهما يرتاده السياسيّون الذين يزورون المدينة أكثر ممّا يرتاده موسيقيّوها وممثّلوها، فيه كانت الجماهير تحتشد قبل الانتخابات وبعدها، وتُلقى الخطب الحماسيّة وتنطلق الوعود والدعايات في الجوّ مثل نحل طنّان.

أمّا المكان الثاني فكان أكثر تواضعًا ولكنّه كان يحظى بشعبيّة لا تقلّ عن المكان الأوّل، وكانت تُعرض فيه أشرطة سينمائيّة من مختلف الأشكال بفضل ما يتمتّع به صاحب المسرح من أذواق، والذي كان يفضّل المغامرات على الشتائم السياسيّة، وكان يدفع للمهرّبين عمولات كبيرة ليأتوا له بالأشرطة السينمائيّة الحديثة، فضلاً على التبغ والشاي وغيرهما من البضائع المهرّبة والممنوعات. وهكذا، شاهد أهالي مدينة أورفه عددًا من الأشرطة السينمائيّة من تمثيل جون وين، مثل: (رجل من الآمو) و(يوليوس قيصر) إضافة إلى (حمّى الذهب) وغيرها من الأشرطة التي يشارك فيها رجل مضحك ذو شارب أسود.

في هذا اليوم، كان الشريطُ السينمائي قيدَ العرض هو أحد الأشرطة التركيّة المصنوعة بالأسود والأبيض، وقد شاهدته بمبي من البداية وحتى النهاية فاغرة فاها إلى حدّ ما، فقد كانت البطلة فتاة فقيرة، حسناء المظهر، مغرمة بفتى ثري جدًّا ومدلَّل جدًّا

أيضًا، ولكنّه تغيّر في ما بعد. هكذا كان سحر الحبّ، ففي حين استخفّ الآخرون ـ وأوّلهم والدا الفتى ـ بالعاشقَيْن الشابّين وتآمروا للتفريق بينهما، فإنّ العاشقين كانا يلتقيان سرًّا على ضفاف النهر حيث يمسك أحدهما بيد الثاني ويغنّيان أغاني حزينة جدًّا.

كانت بمبي تحبّ كلّ ما يخصّ السينما ـ الردهة المزخرفة والستائر السميكة الفضفاضة والظلمة الحالكة المستحبّة. ولم تستطع الانتظار كي تخبر جميلة عن هذه الأعجوبة الجديدة. وفي طريق العودة غنّت بمبي في الحافلة أغنية الشريط السينمائي المتكرّرة مرّات ومرّات.

اسمك محفور في قدَري
وحبّك يجري في أوردتي
وإذا ما ابتسمْتَ لأحد غيري
فسوف أنتحر أو يقتلني حزني.

وبينما كانت بمبي تهزّ شفتيها وتصفّق بيديها، صفّق بقيّة المسافرين وفرحوا. ولمّا التزمت الصمت أخيرًا، بسبب التعب لا غير، ضحك بيرزو وتغضّنت المساحات المحيطة بعينيه.

وقال وقد شابت صوتَه مسحةٌ من الفخر:

ـ يا لابنتي الموهوبة.

دفنت بمبي وجهها في صدر والدها العريض وتنشّقت رائحة زيت الخزامى الذي كان يعطّر به شاربه. سوف تكون تلك اللحظة واحدة من أسعد لحظات حياتها وإن كانت لا تدري.

* * *

عندما عادا أدراجَهما إلى المنزل، وجدا جميلة في حالة بالغة السوء ـ متورّمة العينين، منتفخة الأوداج. كانت قد أنفقت النهار كلّه منتظرة بجانب الشبّاك تعبث بشعرها وتقضم شفتها السفلى، وعلى حين بغتة، ومن دون مسوّغ واضح، أطلقت صرخة رهيبة ولم تتوقّف عن العويل والبكاء على الرّغم من محاولات أمّها وأخواتها لتهدئة خاطرها.

وسألت بمبي:

ـ متى بدأت جميلة بالبكاء؟ في أيّة ساعة؟

فكّرت نازي برهة وجيزة وقالت:

ـ عصرًا على ما أظنّ. لماذا تسألين؟

لم تجب بمبي، فقد تعلّمت ما تريد معرفته: لقد بكت الأختان التوأم في الوقت نفسه، وإن كانت أميال طويلة تفصل بينهما، في اللحظة التي حُقنت فيها بالحقنة عند الطبيبة. الناس يردّدون أنّ التوأمين ليستا سوى جسدين بروح واحدة، ولكنّهما كانتا أكثر من ذلك. كانتا جسدًا واحدًا وروحًا واحدة: بخت وبس، فإذا ما أغمضت إحداهما عينيها فإنّ الأخرى تصاب بالعمى، وإذا ما تعرّضت إحداهما للأذى، فإنّ الأخرى تنزف دمًا، وإذا ما راودت إحداهما كوابيس، فإنّ قلب الثانية يخفق خفقانًا قويًّا داخل صدرها.

في تلك الأمسية، أوضحت بمبي لجميلة كيف كانت الرقصات في الشريط السينمائي. وبدأت الفتاتان تقلّدان البطلة، فتدوران وتتبادلان القبلات والعناق كأنّهما عاشقان، وتقهقهان.

ويتناهى إلى سمعهما صوت نازي قويًّا تشوبه مسحة من

الاحتقار والازدراء وهي تذرِّي الرزّ في صينيّة مسطّحة:

ـ ما كلّ هذه الضجّة؟

فتتّسع عينا بمبي استياءً وتقول:

ـ أنا وأختي نرقص لا غير.

فتمضي نازي في الكلام:

ـ وما سبب الرقص؟ ربّما قرّرتما أن تتحوّلا إلى غانيتين.

لم تكن بمبي تعرف معنى كلمة «غانية» ولم تتجرّأ على السؤال عن معناها، وانتابها إحساس بالنفور والامتعاض، وتساءلت عن السبب الذي يجعل والدتها لا تستمتع بالغناء والأغاني على النحو الذي كان يستمتع به ركّاب الحافلة. ما السبب الذي يجعل الناس الغرباء تمامًا أكثر تسامحًا من أقرب الناس؟ كانت لا تزال تفكّر في السؤال عندما انساب إلى سمعها صوت جميلة وهي تخطو إلى أمام كأنّما تعترف بذنب وتهمس:

ـ معذرة يا أمّاه. لن نكرّر ذلك ثانية.

حدجت بمبي أختها وشعرت أنّها غدرت بها.

ـ إنّني أقول ذلك لمصلحتك. فإذا ما ضحكْتِ اليوم كثيرًا فسوف تبكين غدًا كثيرًا. يُستحسن الشعور بالحزن اليوم بدلاً من الغد.

فقالت بمبي:

ـ لا أفهم السبب الذي يمنعنا من الضحك اليوم وغدًا وبعد غد.

حان الآن دور جميلة كي تعبس ويتجهّم وجهها، لأنّ وقاحة أختها لم تكن مفاجأة لها فحسب، وإنّما وضعتها أيضًا في موقف حرج، فحبست أنفاسها وخشيت عواقب الأمور: الشوبك، فعندما

كانت إحداهما تتجاوز حدودها، كانت الأمّ تضرب كلتيهما بالشوبك الخشبي في مطبخها، ولكنّها لم تكن تضربهما على وجهيهما ـ لأنّ جمالَ البنت وحُسْنها مَهْرُها ـ، بل على ظهريهما ومؤخّرتيهما. وقد استغربت الفتاتان كثيرًا، لأنّ هذه الأداة التي طالما كانت مبعث نفورهما واشمئزازهما، كانت تصنع في الوقت نفسه الفطائر المنتفخة التي تعجبهما كثيرًا.

بيد أنّ نازي لن تعاقبهما في ذلك المساء وإنّما هزّت رأسها وأشاحت بنظرها جانبًا ـ كأنّها تتوق إلى أن تكون في مكان آخر. ولمّا تحدّثت من جديد، كان صوتها هادئًا وقالت:

ـ حياء البنت سترة وحشمتها زينة. تذكّرا هذا الكلام، فإذا ما ضاع الحياء فلن تساوي إحداكما أكثر من قرش مثلوم. العالم قاسٍ ولن يرحم أحدًا.

تخيّلت بمبي أنّها ترمي بقطعة نقد معدنيّة إلى الهواء ثم تراقبها وهي تحطّ في راحة كفّها. ثمّة وجهان دائمًا، وجهان لا غير: الربح أو الخسارة، الكرامة أو الخزي، وليس من عزاء إلّا القليل لمن يخسر.

واستأنفت نازي كلامها قائلة:

ـ ويرجع سبب ذلك إلى أنّ النساء خُلقن من مادّة بالغة الرقّة، في حين خلق الرجال من مادّة سميكة، يَصْعُب سبْرُ غورها. هكذا خلق الله الجنسين: جنس يتفوّق على الآخر. أمّا السبب الذي جعل الله يفعل ذلك فهذا ما لا ينبغي للبشر أن يجادلوا في شأنه. المهمّ هو أنّ اللون الأسود لا يُظهِر البقع، على العكس من اللون الأبيض الذي يكشف عن أصغر ذرّة من الوساخة. وعلى الأساس نفسه،

فإنّ النساء اللواتي تشوب سمعتهنّ أيّة شائبة سرعان ما ينكشف أمرهنّ ويصبحن منبوذات ومنفصلات عن الأخريات، تمامًا مثلما تُفصل القشور عن الحبوب. ومن هنا، فإنّ العذراء تفقد كلّ شيء إذا ما سلّمت نفسها لرجل، وإنْ كان يحبّها. أمّا الرجل فلا يفقد أيّ شيء.

هكذا كانت الأحوال في البلدة عندما وُلدت البخت بمبي والبس جميلة، وكان «الشرف» يمثّل أكثر من كلمة، بل كان اسمًا من الأسماء. في إمكانك أن تسمّي ابنك «شرف» ما دام أنّه ولد، لأنّ الرجال شرف: كبار السنّ والشيوخ وحتى تلاميذ المدرسة الصغار الذين لا تزال تفوح منهم رائحة حليب أمّهاتهم. أمّا النساء، فلم يكن لهنّ شرف بل لديهنّ عوضًا عن ذلك العار. وكما يعرف كلّ فرد، فإنّ كلمة عار تشكّل اسمًا بائسًا لا يمكن لواحدة أن تُسمّى به.

تذكّرت بمبي وهي تصغي لأمّها، البياضَ الناصع لعيادة الطبيبة، وسرعان ما عاودها ذلك الإحساس بفقدان الراحة، لكن ذلك الإحساس كان أشدّ وأقوى الآن، وفكّرت في بقيّة الألوان، كالأزرق الحلزوني والأخضر الفستقي والبنّي البندقي وغيرها من الموادّ والأنسجة، كالمخمل والغبردين. ثمّة تنوّع شديد في العالم أكثر ممّا هو فوق صينيّة عليها رزّ بلا قشور.

وسوف تكون واحدةً من عديد المفارقات في حياة بمبي عندما تردِّد أمام ابنتها قسمة الكلمات نفسها التي كانت تكره سماعها من أمّها نازي، تردّدها كلمة كلمة بعد سنوات طويلة... في إنكلترا.

* * *

إسكندر... إسكندر

قرية على مقربة من نهر الفرات ١٩٦٢ ـ ١٩٦٧

كانت بمبي امرأة ذات أفكار لا سند لها، ومخاوف لا أساس لها. ولم يكن هذا الجانب من شخصيّتها شيئًا تطوَّر بمرور السنين وإنّما كانت قد انقلبت على حين بغتة إلى مؤمنة بالخرافات، بين يوم وليلة: الليلة التي وُلد فيها إسكندر.

كانت بمبي في السابعة عشرة من عمرها عندما أصبحت أمًّا ـ شابّة حسناء، وَجِلَة. كانت في حجرة تسبح في ضوء قاتم، تحدّق إلى المهد كأنّها غير مصدّقة أنّ هذا الرضيع ذا الأصابع الورديّة الهشّة والبشرة الشفّافة والبقعة الأرجوانيّة على أنفه الدقيق، قد تحدّى كلّ العوائق وبقي في قيد الحياة، وسوف يكون من الآن فصاعدًا طفلَها، مِلْكَها وحدها. ها هو الابن الذي تاقت له نفس والدتها ودعت طوال حياتها أن تُرزق به.

مرّت نازي بحالة حمل واحدة أخرى بعد أن كانت قد حملت ببمبي وجميلة. لا بدّ أن يكون حملها بولد في هذه المرّة، إذ ما من

احتمال آخر، فالله مَدين لها بهذا. قالت إنّه مَدين لها به وإنْ كانت تعلم علم اليقين أنّها كانت تجدِّف ـ إنّه اتّفاق سرّي بينها وبين الخالق، فبعد عديد البنات اللواتي رزقت بهنّ، سوف يعوّض لها عن ذلك. كان اعتقادها من القوّة ما جعلها تنفق الأشهر في حياكة البطّانيّات الصغيرة والجوارب والقمصان بلون أزرق أشدّ حلكة من الليالي العاصفة، وكلّها مصمَّمة من أجل الولد الصغير. لن تصغي لأحد، ولا حتى للقابلة، التي فحصتها بعد انقطاع الطمث وأخبرتها في صوت هادئ هدوء النسمة أنّ وضع الجنين ليس صحيحًا، وأنّ المستحسن أن تتوجّه إلى المدينة. لا يزال الوقت مبكرًا، وإذا ما سافرت الآن فإنّ في إمكانها أن تصل المستشفى قبل أن تبدأ التقلّصات.

لكن نازي قالت وهي تحدّق إلى عيني القابلة بنظراتها الملتهبة:

ـ هراء! كلّ شيء على ما يرام. كلّ شيء في يديه.

كانت في التاسعة والأربعين، وسيكون طفلها الطفل المعجزة، وسوف تلده هنا في بيتها، وعلى سريرها، تمامًا مثلما ولدت كلّ طفل من قبل، ولكنّ الطفل سيكون ولدًا في هذه المرّة.

كانت الولادة معكوسة، فقد كان رأس الطفل كبيرًا جدًّا ومتّجهًا إلى الجهة المعاكسة. ومرّت الساعات ولم يَعُدْها أحد، لأنّ ذلك نذير لشؤم. يضاف إلى ذلك أنّ الله وحده مالك الزمن، وهو صانع الساعة الإلٰهيّة، وما يبدو طويلاً يتحمّله بنو البشر الفانون لا يمثّل سوى رمشة عين عند الله، وهكذا غُطِّيَت الساعة المثبّتة على الجدار بقماش من المخمل الأسود، مثلما غطّيت كلّ مرايا

البيت، التي كانت كلّ واحدة منها بوّابة إلى المجهول.

قالت إحدى النساء الحاضرات:

ـ إنّها لا تستطيع أن تدفع أكثر.

فقالت القابلة في لهجة تنمّ عن تصميم وإصرار لكن عينيها كشفتا عن المخاوف التي كانت تعتريها:

ـ إذًا لا بدّ لنا من مساعدتها في ذلك.

مدَّت القابلة يدها داخل رحم نازي حتى لامست الجنين ينزلق تحت أصابعها. ثمّة ضربات قلب واهنة تشبه ضربات شمعة توشك أن تنطفئ. وحاولت في لطف ولين أن تقلب الجنين داخل الرحم: مرّة... مرّتان... ولكنّها باتت أشدّ عزمًا وتصميمًا في المرّة الثالثة، يدفعها إلى ذلك إحساس بحاجة ملحّة وعاجلة. فتحرّك الطفل من اليسار إلى اليمين ولكن حركته لم تكن كافية، فقد ضغط برأسه على الحبل السرّي، ما هدّد بقطع كمّيّة الأوكسيجين التي تمرّ في داخله.

نزفت نازي دمًا كثيرًا حتى بهت لونها وامتقعت وجنتاها، ولا بدّ من اتّخاذ قرار. كانت القابلة تدرك إدراكًا جيّدًا أنّها إمّا أن تنقذ الأمّ أو الولد، وليس ثمّة أمل في إنقاذ الاثنين. كانت ساكنة سكونَ ليلة تفتقر إلى البدر، ومتجهّمة، وسرعان ما اتّخذت قرارها: سوف تنقذ المرأة.

في تلك اللحظة رفعت نازي رأسها وصرخت وهي مستلقية، مغمضة العينين بين الحياة والموت وتنزف دمًا:

ـ لا أيّتها العاهرة!

كانت صرخة مدوّية، هادرة، لا تشبه صرخة بشر. لقد انقلبت المرأة المستلقية على السرير إلى حيوان مفترس، ضارٍ، يكاد يموت جوعًا وعلى استعداد لمهاجمة كلّ من يقف في طريقه. كانت تركض في غابة كثيفة حيث تلقي الشمس بأشعّتها الذهبيّة المنعكسة على الأغصان، حرّة على نحو لم تألفه من قبل. وظنّ الواقفون على مقربة منها أنّها فقدت عقلها، فالمجنون وحده هو الذي يصرخ مثل هذا الصراخ.

وقالت نازي آمرة:

ـ هيًّا مزّقيني أيّتها العاهرة!

ثم ضحكت، كأنّها اجتازت عتبةً كلُّ ما وراءها ليس سوى مزحة. وأضافت:

ـ إنّه ولد، ألا ترين ذلك؟ إنّ ابني قادم! أيّتها العاهرة الخبيثة الحسود. امسكي بمقصّ! الآن! افتحي بطني وأخرجي ولدي!

أحدثت ذبابات صغيرة طنينًا في الحجرة كأنّها نسور تحلّق من فوق طريدة. ثمّة قِدْر كبير من الدماء في كلّ مكان وقَدْر كبير من الغضب والهيجان والامتعاض يلطّخ السجّاد والملاءات والجدران. وبات الهواء في الحجرة ثقيلاً يبعث على الكسل والتواني. أمّا الذباب... فيا ليته يتوارى عن الأنظار.

لم تبق نازي في قيد الحياة، كما لم يبق الطفل مدّة طويلة في قيد الحياة ـ الطفل الذي أخطأت طوال الوقت في معرفة جنسه. فالطفل التاسع الذي تسبّب في وفاتها ثم لحق بها بعد وقت قصير وهو في المهد، لم يكن إلّا بنتًا.

بقيت بمبي مضطجعة فوق سرير الولادة حتى الساعات المبكرة

من صباح ذلك اليوم من أيّام شهر تشرين الثاني سنة ١٩٦٢، وأحزنتها فكرة حكم الله على هذا النحو: ها هي مستلقية هنا لا تتجاوز السابعة عشرة من عمرها ولكنّها ترضع طفلاً. ولم تستطع أن تدفع عن نفسها التفكير في أنّ أمّها كانت تراقبها بعين الحسد والغيرة في مكان ما من السماء ومن تحت أنوار باهتة: ثماني ولادات وخمس حالات إسقاط وطفل واحد ميت ولا مِن ولد واحد... وها أنت يا إلٰهي ترزق ابنتي الطائشة، الخفيفة العقل بابن معافى. لماذا يا الله؟ لماذا؟

تردّد صدى صوت نازي في أذنَيْ بمبي حتى أضحى كرة من الغضب العنيف تدحرجت من فوق صدرها وتوقّفت على بطنها. وعلى قدر ما بذلت من قصارى جهدها لتطرد عنها وساوسها وقلقها، انتهى بها المطاف إلى وساوس جديدة وقلق جديد، رسمت كلّها دوائر في عقلها تدور وتدور مثل دولاب الهواء، وعلى حين غرّة لا يعود ثمّة مكان للاختباء بعيدًا عن عين الشرّ المتمثّلة في عين أمّها، وتتنبّه إلى أنّ تلك النظرة تطاردها في كلّ مكان: في الحبوب، في المكسّرات التي تطحنها في الجاروشة الحجريّة لتحوّلها إلى عجينة تلتهمها لزيادة حليبها، في انسياب المطر من على زجاج النوافذ، في زيت اللوز الذي تدهن به شعرها كلّما استحمّت وفي شراب اللبن الكثيف الذي يسخَّن فوق المدفأة.

وتضرّعت بمبي إلى الله قائلة:

ـ يا الله يا رحيم، اجعل أمّي تغمض عينيها في قبرها واجعل ابني صبيًّا قويًّا مفعمًا بالصحّة والعافية.

ثم هزّت نفسها إلى أمام وإلى الخلف كأنّها هي التي كانت في

حاجة إلى أن تخلد إلى النوم وليس رضيعها.

* * *

في الليلة التي ولد فيها إسكندر رأت بمبي كابوسًا، كدأبها منذ أيّام حملها. لكنّ هذا الكابوس بدا حقيقيًّا على نحوٍ لم يتخلّص منه جزء من بدنها ولم يعد أبدًا من أرض الأحلام البرّاقة.

رأت بمبي نفسها مستلقية على ظهرها فوق سجّادة مزركشة، مفتوحةَ العينين، متورّمة البطن، ومن فوقها تنزلق بعض السحب على امتداد السماء. كان الطقس حارًّا، حارًّا جدًّا. ثم أدركت أنّ السجّادة مفروشة على الماء حيث يجري نهر مشاكس ينوء من تحتها. وفكّرت في نفسها: ما سبب عدم غرقي؟ ولكن بدلاً من أن تتلقّى جوابًا على سؤالها، انشقّت السماء وتدلّت منها يدان ثنتان، ولم تعرف إن كانت اليدان هما يدا الله أو يدا أمّها الراحلة. وشقّت اليدان بطنها، ولم تشعر بأيّ ألم وإنّما شعرت بالرعب عندما أدركت ما يحدث لبطنها. ثم أخرجت اليدان الطفل، وكان طفلاً مكتنز الجسم تشبه عيناه حصاتين سوداوين. وقبل أن تتمكّن بمبي من لمسه، ناهيك عن معانقته، أسقطت اليدان الطفل في الماء، فطفا على قطعة خشب مثلما طاف موسى في سلّته.

لم تقصّ بمبي الكابوس إلّا لشخص واحد وهي متألّقة العينين ومتحمّسة أثناء الكلام وكأنّها مصابة بحمّى. استمعت إليها جميلة، التي قالت لها موضحة، إمّا لأنّها صدّقتها أو لأنّها أرادت أن تحرّر أختها من رعب شبحٍ نازي:

ـ لا بدّ أنّ النحس حلّ بك، ولعلّ جنّيًّا هو الذي فعل ذلك.

فقالت بمبي مردّدة:

ـ جنيًّا؟

ـ نعم يا حبيبتي، إنّ الجانّ يحلو لهم أن يغفوا على الكراسي والأرائك. ألا تعرفين ذلك؟ ففي وسع الجنّيّ البالغ أن يهرب لدى رؤيته واحدًا من البشر قادمًا. ولكنّ الأطفال الرضّع ليسوا بهذه السرعة. كما أنّ النساء الحوامل ثقيلات الوزن، مرتبكات. لا بدّ أنّك جلست على جنّي صغير وسحقته.

ـ آه يا الله.

لوت جميلة أنفها كأنّها تنبّهت لرائحة قويّة وقالت:

ـ أعتقد أنّ الأمّ عادت لتنتقم منك ولتسحرك.

ـ لكن ماذا ينبغي لي أن أفعل؟

قالت جميلة جازمة:

ـ لا تقلقي! ثمّة طرق لاسترضاء الجانّ على الدوام مهما كانت ثورتهم شديدة.

وهكذا، ففي حين كانت بمبي ترضع رضيعها المولود حديثًا طلبت منها جميلة أن ترمي فتات الخبز اليابس على كلاب سائبة وأن تهرب من دون أن تنظر إلى الوراء وأن ترمي كمّيّة صغيرة من الملح من فوق كتفها اليسرى وكمّيّة صغيرة من السكّر من فوق كتفها اليمنى، وأن تسير وسط حقول محروثة مؤخّرًا ومن تحت نسيج عنكبوت، وأن تسكب ماء الورد في كلّ شقّ من شقوق جدران البيت، وأن تضع تميمة في رقبتها أربعين يومًا... وهكذا، اعتقدت أنّها سوف تشفي بمبي من خوفها من أمّهما الراحلة. ولكنّها بدلاً من ذلك فتحت أمامها باب الخرافات ـ وهو باب

كانت بمبي تعلم دائمًا أنّه موجود ولكنّها لم تمتلك الجرأة يومًا ما على الولوج منه.

في تلك الأيّام كان إسكندر ينمو ويكبر، بشرته بلون التراب الحارّ وشعره أسود متموّج ولامع كأنّه نجم من النجوم، عيناه تومضان بوميض الشغب، ووحمة الولادة تلاشت منذ زمن بعيد، يفيض ابتسامًا ويأسر القلوب. وكلّما ازداد الابن بهاء ازدادت مخاوف بمبي من حدوث أشياء لا قِبَلَ لها بها ـ كالزلازل والانهيارات الأرضيّة والفيضانات والحرائق الهائلة والأمراض المُعْدِية وغضب شبح نازي وانتقام جنّي الأمّ. لقد كان العالم لها دومًا مكانًا مفتقرًا إلى الأمن والأمان ولكنّ الخطر بات على حين بغتة أشدّ وضوحًا وأكثر قربًا.

هكذا كان قلق بمبي، ممّا جعلها ترفض أن تسمّي ابنها بأيّ اسم. كان ذلك هو أسلوبها في حماية ابنها من عزرائيل ملك الموت، فإذا كان الطفل بلا هويّة فإنّ عزرائيل لن يتمكّن من العثور عليه ـ حسب ظنّها ـ حتى إن شاء ذلك. وهكذا، أنفق الابن عامه الأوّل على وجه الأرض من دون اسم، شأنه شأن مظروف يخلو من عنوان! كما أمضى عامه الثاني والثالث والرابع على النحو نفسه. وإذا ما أرادوا أن يدعوه، كانوا يقولون له: أيّها الابن أو أيّها الولد.

لماذا لم يعترض زوجها آدم على هذه الخزعبلات؟ لماذا لم يأخذ بنفسه زمام الأمور ويسمّي وريثه كأيّ رجل آخر؟ ثمّة مانع يحول دون ذلك، مانع أقوى بكثير من حدّة طبعه وكبريائه الرجولي، سرّ كامن بينهما، يقوّي من عزم بمبي ويوهن من قوى

آدم فيبعده عن المنزل ويأخذه إلى العالم السفلي في إسطنبول، حيث يمكنه أن يقامر وأن يكون ملكًا وإن لليلة واحدة.

ولكن آدم تولّى زمام الأمور عندما بلغ الولد خمسة أعوام، وأعلن أنّ الوضع لا يمكن أن يستمرّ أكثر من ذلك وإلى ما لا نهاية. فالابن يوشك أن يلتحق بالمدرسة، وإذا لم يحمل اسمًا فإنّ الأطفال سيعتقدون أنّ اسمه واحد من أكثر الأسماء إثارة للضحك والسخرية التي يمكن للمرء أن يتخيّلها. رضخت بمبي على مضض ولكنّها وضعت شرطًا واحدًا، وهو أن تأخذ الابن إلى القرية التي ولدت فيها وأن تحظى ببركات أختها التوأم وأسرتها، وعندما تحلّ في القرية، فإنّها سوف تطلب مشورة شيوخ القرية الثلاثة الذين أصبحوا الآن كبارًا في السنّ مثل جبل أرارات وإن كان لا يزال في وسعهم تقديم النصح والمشورة.

* * *

قال شيخ القرية الأوّل الذي أضحى في منتهى الضعف والوهن، ما يدفعه إلى الارتعاش من تردُّد صوتِ أيّ باب يغلق في قوّة وعنف على مقربة منه:

ـ مجيئكِ إلينا هو عين الحكمة والعقل.

وقال الشيخ الثاني الذي لم يبق في فمه سوى سنّ واحدة كأنّها لؤلؤة صغيرة، تشعّ من الداخل مثل أوّل سنّ من أسنان طفل صغير:

ـ كما أنّكِ أحسنت في عدم تسمية ابنك بنفسك كما تفعل بعض الأمّهات في هذه الأيّام.

تكلّم الشيخ الثالث ولكن صوته كان خفيفًا، وكلماته متداخلة بعضها في بعض وغير واضحة، فلم يفهم أحد شيئًا ممّا قال.

وبعد نقاش قصير توصّل الشيوخ إلى قرار، وهو أن يسمّي أحد الغرباء الولد ـ شخص ما لا يعرف شيئًا عن الأسرة، وبالتالي لا يعرف شيئًا عن شبح نازي.

وافقت بمبي على الخطّة في ثقة لا تملك منها شيئًا.

على بعد بضعة أميال كان ثمّة نهير ينخفض ماؤه شتاء ويرتفع ربيعًا ارتفاعًا جنونيًا، وكان الفلّاحون يعبرون مياهه في قارب موقّت مرتبط بسلك يمتدّ بين الضفّتين. الرحلة غير مأمونة العواقب، ففي كلّ عام يسقط بعض المزارعين في النهر، ولهذا تقرّر أن تبقى بمبي منتظرة حيث يرسو القارب وأن تطلب من أوّل من يعبر من الرجال أن يسمّي ابنها. في هذه الأثناء، كان الشيوخ الثلاثة يتوارون عن الأنظار من وراء الأدغال ولا يتدخّلون إلّا إذا اقتضت الضرورة.

وهكذا، انتظرت بمبي وولدها. كانت ترتدي ثوبًا قرمزيًّا يصل إلى ما تحت كعبيها وعلى رأسها وشاح أسود مخرّم. أمّا ابنها فكان يرتدي بذلته الوحيدة ويبدو مثل رجل مصغّر. زحف الوقت بطيئًا حتى تململ الطفل واستبدّ به السأم والضجر. فما كان من بمبي إلّا أن بدأت تحكي له الحكايات لتروّح عن نفسه. وكان أن علِقت إحدى تلك الحكايات في ذاكرته إلى ما لا نهاية:

«كان نصر الدين خجّه قرّة عين أمّه عندما كان صبيًّا».

لكنّ الطفل سأل بمبي:

ـ وهل كانت في عينها قرّة؟

ـ إنّه تعبير أيّها السلطان، ويعني أنّها كانت تحبّه حبًّا جمًّا.

«وعاش الاثنان في منزل جميل في أطراف البلدة».

ـ وأين والده؟

ـ سافر ليخوض الحرب. والآن اصغِ إليَّ:

«وفي يوم من الأيّام اضطرّت الأمّ للذهاب إلى السوق، فقالت له: ينبغي لك أن تبقى في البيت وأن تراقب الباب، وإذا ما شاهدت لصًّا يحاول اقتحام الدار، فابدأ بالصراخ بأعلى صوتك لأنّ صراخك سوف يبثّ فيه الرعب فيهرب. وسأرجع قبل حلول الظهيرة. وهكذا، امتثل نصر الدين لما أمرته به أمّه ولم يغفل عن مراقبة الباب لحظة واحدة».

ـ ألم يضطرّ إلى الذهاب للتبوّل؟

ـ كانت لديه نونيّة قريبة منه.

ـ ألم يشعر بالجوع؟

ـ كانت أمّه قد تركت له طعامًا.

ـ معجّنات؟

فقالت بمبي وهي تعرف ابنها جيّدًا:

ـ وحلاوة بالسمسم.

«وبعد مرور ساعة من الوقت، تناهى إلى السمع صوتُ طرْقٍ على الباب، وكان القادم هو خال نصر الدين، الذي جاء يستفسر عن أحوالهما، وسأل الطفلَ عن مكان أمّه قائلاً: حسنًا، اذهب وقل لوالدتك أن تعود أدراجها إلى المنزل مبكرة وأن تعدّ لنا طعام الغداء، فأسرتي آتية للزيارة».

ـ ولكنّ الولد يراقب الباب!

ـ تمامًا.

«احتار نصر الدين في أمره، فقد نصحته والدته أن يفعل شيئًا ولكن خاله يطلب منه أن يفعل شيئًا مخالفًا، ولم يكن راغبًا في عصيان أيٍّ منهما، فما كان منه إلّا أن خلع الباب ووضعه على ظهره وخرج يبحث عن أمّه».

ضحك الابن ضحكة قصيرة ولكنّه سرعان ما عاد إلى وقاره وقال:

ـ لو كنتُ في مكانه لما فعلت ذلك، فأنا أفضّل دومًا أمّي على خالي.

وما أن تفوّه بهذا الكلام حتى سمعا صوتًا، فقد عبر أحد ما النهير، وها هو يسير متّجهًا إليهما. ولدهشة بمبي وشيوخ القرية، تبيّن أنّ القادم امرأة عجوز ذات أنف أعقف، تكسو التجاعيد والغضون وجنتيها الغائرتين، وتبدو للعيان أسنانُها المعوجّة. كانت عيناها الصغيرتان الدائريّتان في حركة متواصلة، ترفضان الاستقرار على أيّ شيء.

فأخبرتها بمبي أنّ ولدها في حاجة ماسّة إلى اسم وطلبت منها أن تمدّ لها يد العون، متجنّبة الخوض في تفاصيل شبح نازي أو شيوخ القرية المنتظرين من وراء الدغل. لم يبدُ على المرأة ما يشير إلى دهشتها وتعجّبها، فاتّكأت على عصاها وفكّرت مليًّا، هادئة، مذعنة، كأنّ مثل هذا الطلب أمر اعتيادي جدًّا في هذا العالم.

فسأل الطفل:

ـ من هذه المرأة يا أمّاه؟

ـ اسكت يا أسدي. سوف تمنحك هذه السيّدة اللطيفة اسمًا.

ـ ولكنّها قبيحة الشكل.

تظاهرت المرأة أنّها لم تسمع شيئًا ممّا قاله الطفل، وتقدّمت خطوة واحدة إلى أمام مقتربة أكثر، وألقت نظرة فاحصة إلى الطفل وقالت:

ـ إذًا أنت لم تجد لك اسمًا بعدُ كما أظنّ.

رفع الطفل من حاجبيه الرقيقين رافضًا الإجابة.

ـ لا بأس. حسنًا. إنّني ظمآنة. هلّا ذهبتَ وأحضرت لي كوبًا من الماء؟

ـ لا أملك كوبًا.

فأصرّت المرأة العجوز قائلة:

ـ استخدم راحتَيْ كفّيك إذًا.

رمق الطفل المرأة بنظرة عابرة وتجهَّمَ وجهُه، قبل أن يرنو إلى أمّه. ثم حوّل بصره إلى المرأة الغريبة من جديد وقال وقد اكتسب صوته حدّة جديدة:

ـ كلّا، لِمَ لا تذهبين أنت وتحصلين على ما تريدين من الماء؟ فأنا لست خادمك.

مالت المرأة برأسها إلى الجانب كأنّ كلمات الولد ضربة اضطرّت إلى تفاديها وقالت:

ـ إنّه لا يريد أن يسدي خدمة. صحيح؟ بل يريد أن يكون مخدومًا على الدوام.

اقتنعت بمبي الآن أنّها اختارت شخصًا غير مناسب، ولكنّها أرادت استرضاء المرأة وتخفيف حدّة التوتّر فقالت في لهجة لطيفة:

ـ سأذهب وأحضر لك الماء.

لكنّ المرأة لم تشرب الماء الذي أحضرته لها بمبي في راحتي كفيها، بل قرأته:

ـ سوف يظلّ هذا الطفل طفلاً زمنًا طويلاً يا ابنتي، ولن ينضج إلّا عندما يبلغ خريف عمره. سينضج في وقت متأخّر جدًّا من حياته.

شهقت بمبي، وتولّد لديها الانطباع أنّ المرأة توشك أن تفشي سرًّا لا ينبغي لها الكشف عنه.

ـ بعض الأطفال يشبهون نهر الفرات. متوقّدو الذهن، محبّون للخصام والمشاكسة. ولا يمكن لأهليهم التواصل وإيّاهم. أعتقد أنّ ابنك سوف يمزّق قلبك إربًا إربًا.

وقع هذا الكلام بين الأمّ وابنها كأنّه حجارة رميت عليهما من مكان مجهول.

وقالت بمبي في شيء من الحدّة والتوتّر:

ـ لكنّني لم أطلب منك هذا الشيء. هل فكّرت في اسم له؟

ـ نعم، فكّرت. ثمّة اسمان قد ينطبقان عليه تمامًا، ويتوقّفان على ما تنتظرين. الأوّل سليم، ففي يوم من الأيّام كان ثمّة سلطان، وكان شاعرًا وعازفًا موسيقيًّا رائعًا، وأتمنّى أن يتعلّم ابنك كيفيّة تذوّق الجمال والإحساس به إذا ما منح هذا الاسم.

ـ والاسم الآخر؟

وهنا حبست بمبي أنفاسها بعد أن وجّهت السؤال، واحتاطت للجواب، كما أنّ الصبي نفسه بدا عليه التحمّس في الحديث.

ـ الاسم الثاني هو اسم القائد العظيم الذي كان يتقدّم مسيرة جنده، ويقاتل كالنمر، وانتصر في كلّ معركة خاضها، ودمّر أعداءه، وفتح البلاد بلدًا بلدًا، ووحّد الشرق والغرب، شروق الشمس وغروبها، ومع هذا فقد ظلّ متعطّشًا لما هو أكثر من ذلك. أتمنّى أن يكون ولدكِ قويَّ الإرادة، لا يُقْهَر، وأن يحكم كلّ الرجال إذا ما سمّي باسمه.

فقالت بمبي وقد أشرق وجهها:

ـ حسنًا إذًا. لقد انتهت مهمّتي.

وهنا أمسكت المرأة العجوز عصاها وبدأت تبتعد سالكة الطريق الممتدّ في حيويّة ونشاط يبعثان على الدهشة. فكّرت بمبي بضْعَ ثوانٍ استجمعت فيها أفكارها قبل أن تهرع خلف المرأة.

ـ لكن ما الاسم؟

استدارت المرأة وأمعنت النظر فيها كأنّها نسيت من تكون، وسألت:

ـ أيُّ اسم؟

ـ الاسم! أنت لم تخبريني عن الاسم.

ـ آه. إنّه إسكندر.

ردّدت بمبي في سرور.

ـ إسكندر . . . إسكندر . . .

وبعد العودة إلى إسطنبول، سُجِّل الولد في دائرة المسجّل

المحلّي. وعلى الرّغم من التأخّر في تسجيله بضع سنوات، والتوسّلات ودفْعِ الرشا الكبيرة، فقد أصبح وجوده قانونيًّا، وكان الاسم الذي دُوِّنَ على بطاقته عندما التحق بالمدرسة هو إسكندر طبرق.

وقالت بمبي:

ـ اسم يليق بقائد عالمي.

وكانت في ذلك الوقت قد عرفت من هو إسكندر الأكبر.

وهكذا أصبح ولدُها البكر وقرّةُ عينها إسكندر بالكرديّة وإسكندر بالتركيّة. وعندما هاجرت الأسرة إلى لندن أصبح اسمه بين التلاميذ والمعلّمين أليكس ـ وبات هو الاسم الذي سوف يعرف به في سجن شروزبيري، سواء بين المدانين أو الحرس.

* * *

أمير على الشجرة

إسطنبول ١٩٦٩

في فصل الربيع الذي لم يبلغ فيه إسكندر سنّ السابعة، هرب من رجل لم يسبق له أن رآه ولكنّه كان قد سمع عنه الشيء الكثير. وعلى الرّغم من أنّ الرجل كان على غير ما تصوّره إسكندر، إلّا أنّ ذلك لم يخفّف شدّة خوفه منه، فقد كان يضع نظّارة سميكة الإطار على عينيه، وتتدلّى سيكارة غير مشتعلة بين شفتيه، ويحمل حقيبة جلديّة كبيرة أُشيع أنّها تحتوي على أدوات جارحة وقطعة صغيرة من لحم كلّ «ضحيّة» من ضحاياه.

ولمّا رآه إسكندر، سرت قشعريرة في أوصاله، فسكب الكرانبري (التوت البرّي) الذي كان يحمله وسقطت قطرات منه على قميصه الأبيض وكأنّه قطرات دم تساقطت على الثلج. حاول أن يمسح البقع، فاستخدم أوّلَ الأمر يديه ثم حاول إزالتها بحافّة قبّعته، من دون جدوى. لقد أفسد زيّه الجميل.

ولكنْ سواء كانت عليه بقع أم لا، فإنّه ما زال أميرًا، بقبّعته

الفضّيّة الطويلة التي كانت مرصّعة بخرزات برّاقة، وكان يحمل صولجانًا لامعًا لمعانًا شديدًا فبدا كأنّه صولجان شفّاف. كان طوال ما بعد الظهيرة يجلس على كرسي عال، كأنّه نبيل في جولة تفتيشيّة داخل أراضيه ـ وإن كانت الكراسي كلّها عاليةً قياسًا إلى قصر قامته وصغر سنّه. كان إلى شماله أربعة صبيان أكبر سنًّا وأطول قامة ولكنّهم يرتدون زيًّا مشابهًا لزيّه. حملق إسكندر فيهم كأنّه يتهيّأ لمنازلتهم وتفحَّصَهم من قمّة رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم وقرّر أنّ ثيابهم أقلّ شأنًا من ثيابه.

وفي حين التهم الأمراء الآخرون الحلويات وأطلقوا النكات، ظلّ إسكندر ينتظر مهزهزًا ساقيه. وفكّر: كيف يمكنهم أن يكونوا بهذه الدرجة من السذاجة وهم يعلمون ما الذي سيحدث؟ جال ببصره قلقًا. ثمّة عدد كبير من الناس في الغرفة، ولكنّه كان واثقًا أنّ أحدًا لن يأتي لإنقاذه، ولا حتى والدته بمبي على وجه الخصوص. لقد لبثت تبكي طوال الصباح وهي تخبره أنّها فخورة بابنها الصغير الذي بات رجلاً... هكذا يصبح المرء بعد الختان: رجلاً.

لم يتمكّن إسكندر من أن يفهم طوال حياته كيف أنّه سيصبح رجلاً بجرح واحد تُحدثه سكّين. إنّها أحجية يصعب حلّها. ولم يفهم أيضًا لماذا قيل له ألّا يبكي على الرّغم أنّه كان واضحًا تمامًا أنّه سوف يتألّم، في حين كانت أمّه تبكي ما شاء لها البكاء وإنْ لم يصبها شيء.

نظر إلى الرجل ذي الحقيبة الجلديّة من طرف عينه، وشاهد

ندبة تنحدر من وجنته اليسرى إلى فكّه. ربّما جرحه ولد من الأولاد أجرى له عمليّة الختان. استحسن الفكرة التي راودته أوّل وهلة، وتخيّل أنّه حرّر نفسه من بين يدي الرجل قبل أن يبدأ الختان، والتقط الشفرة وجرح معذّبه في خدّه الأيمن، ثم ساعد بقيّة الأولاد كي ينهضوا على أقدامهم، ليندفعوا بعد ذلك في متّجه الباب يرفلون بالنصر. لكنّ أفكاره الخياليّة سرعان ما تبخّرت، وحفلت الغرفة بالحيويّة والنشاط من جديد ـ إذْ كان قارئ ضرير يرتّل القرآن الكريم، وتقدِّم إحدى النساء الشاي وفطيرة اللوز، في حين تجاذب الضيوف أطراف الحديث بأصوات خفيضة، واقتربت على نحو خطير أشدّ اللحظات إثارة للهلع والذعر.

غاص إسكندر رويدًا رويدًا في كرسيّه حتى لامست قدماه أرضيّة الغرفة وضغط على السجّادة. تقدّم خطوة واحدة ولكنّه لم يجد أحدًا يرشده. سار على أطراف أصابع قدميه ومرّ بالسرير المزدوج الذي وُضع في ركن من أركان الغرفة ـ سرير بلوح رأسي من الحديد المطاوع ووسائد مزركشة وتمائم لطرد الحسد والعين الشرّيرة وغطاء سرير من الساتان بلون الكوبالت الأزرق. كان اللون الأزرق هو المفضّل لدى إسكندر، وهو لون الصبيان، ممّا يعني أنّ السماء ولد، وكذلك الأنهار والبحيرات والمحيطات، وإن كان يتعيّن عليه أن يرى محيطًا أوّلاً، لأنّه لم يسبق له أن رآه.

تسلّل إسكندر من الباب الخلفي وهو يشعر بخفّة أكبر وبشجاعة أكثر في كلّ خطوة يخطوها إلى أمام. ولمّا أصبح خارج الغرفة انطلق مسرعًا واجتاز الحديقة وسار من خلف البئر وشقّ طريقه على امتداد الطريق المرصوف بالحصباء ومن أمام بيوت

الجيران صعودًا إلى التلّ. كانت ثيابه قد اتّسخت، ولكن لا بأس... لقد انتهى كلّ شيء.

فكّر إسكندر في يدي والدته وهي تمشّط شعرها الكستنائي المتموّج وتضع اللبن في أكواب من فخّار وتمسّد وجنتيه وتصنع أشكالاً من عجين الفطائر... فكّر في كلّ هذه الصور ولم يفكّر في أيّ شيء آخر حتى وصل شجرة البلّوط. كانت شجرة قديمة تظهر جذورها في أربعة اتّجاهات على سطح الأرض وتمتدّ أغصانها متساوقةً في اتّجاه السحب المندفعة اندفاع الموج.

تحوّلت أنفاسه إلى لهاث وهو يرتقي التلّ ارتقاءً سريعًا مركّزًا اهتمامَه فيه. وانزلقت يداه مرّتين وكاد أن يهوي ويتدحرج، ولكنّه تمكّن في الحالتين من استعادة توازنه. لم يسبق له أن وصل إلى مثل هذا الارتفاع، وساوره الإحساس بخيبة الأمل لأنّه لم يشاهد أحدًا يطّلع على منجزه. وبدت له السماء من موقعه قريبةً جدًّا حتى خُيّل إليه أنّ في إمكانه أن يلمسها. وجلس من تحت غطاء السحب ملؤه الإحساس بالرضا والفخر حتى أدرك أنّه لا يعرف كيف يهبط التلّ.

وبعد ساعة من الزمان، حطّ شحرور على بعد بضعة أقدام منه. كان مخلوقًا غاية في الدقّة تحيط عينيه هالات صفر فيها مسحة من لون قرمزي، وبريق كالياقوت على جناحيه. غرّد مرّة على استحياء وفي رقّة ولكنّه كان مفعمًا بالحياة. وفكّر إسكندر: لو أنّ الطائر اقترب أكثر لتمكّن من الإمساك به براحتَيْ كفّيه ولأصغى إلى ضربات قلبه الصغير في صدره. كان في وسعه أن يحمي الطائر وأن يحبّه ويوفّر له الملاذ ولكنْ في إمكانه أن يكسر رقبته في حركة سريعة واحدة.

ما إن مرَّ في ذهنه مثل هذا الخاطر حتى شعر بتأنيب الضمير: فثمّة قدور هائلة في جهنّم تفور، وفي داخلها كلّ من تنتابه مثل هذه الأفكار الآثمة. وهنا دمعت عيناه، إذْ سوف تلاحظ أمّه اختفاءه وسوف ترسل فريقًا يبحث عنه، ولكن على الرّغم من ذلك لم يأت أحد إليه. سوف يموت في هذه البقعة، يصرعه البرد والجوع. ما الذي سيقوله الأهالي عندما يدركون أنّه لم يمت بسبب المرض أو في حادث مؤسف مثل بقيّة الناس، وإنّما مات بسبب جبنه وخوفه؟

لعلّهم فتّشوا عنه في كلّ الأماكن غير الموفّقة واعتقدوا أنّه قد هرب. لعلّهم فكّروا في أنّ الذئاب هاجمته وإن لم تكن ثمّة ذئابٌ في المنطقة. وتخيّلَ مِيتَةً فظيعة بأسنان الضواري من الحيوانات ومخالبها. هل ستتحطّم والدته، أم تُراها ستفرح بعد أن نقص عدد الأفواه واحدًا؟

أدرك إسكندر كم هو جائع لمّا فكّر في الطعام الذي تطهوه والدته. يضاف إلى ذلك، كان في حاجة ماسّة إلى أن يتبوّل. ولمّا وجد نفسه غير قادر على التحمّل أكثر ممّا تحمّل، نزع بنطاله وأمسك عضوه الذي كان سبب كلّ شقائه. ولم يكد يقضي حاجته حتى تناهى إلى سمعه صوت أحدهم وهو يصيح:

ـ هه! ها هو فوق التلّ! لقد عثرت عليه!

وما هي إلّا ثوانٍ معدودة حتى برز أمامه رجل، أعقبه رجل آخر، ثم عشرة رجال آخرين، وقفوا بجانب الشجرة يراقبونه. ظلّ إسكندر يتبوّل تحت أنظارهم كأنّ مثانته ازداد حجمها إلى الضعف، وأخيرًا جذب بنطاله وفكّر في طلب النجدة كي يهبط إلى أسفل التلّ عندما رأى وسط الحشد الرجل ذا الحقيبة الجلديّة.

وهنا حدث أغرب شيء. فقد تجمّد إسكندر في مكانه وارتخت أطرافه وأُصيب لسانه بخدر، وبدلاً من معدته شعر أنّ حجارة حلّت محلّها. كان في إمكانه أن يسمع الأهالي يطلبون منه أن يهبط إلى أسفل، ولكنّه لم يستطع الردّ عليهم. فجلس ساكنًا من دون حراك وكأنّه أمسى جزءًا من الشجرة ـ وَلَدَ شجرة البلّوط.

ظنّ المتفرّجون في بادئ الأمر أنّه كان يتظاهر بالموت، وأنه يرغب في أن يحظى باهتمام أكبر. ولكنّهم بدأوا يفكّرون في وسيلة يتمكّنون بها من إنزاله من على التلّ عندما أدركوا أنّه لم يكن يتظاهر بالموت بل أصيب بنوع من الشلل. وهنا بدأ أحد الرجال يرتقي التلّ، ولكنّه لم يتمكّن من الوصول إلى الغصن الجانبي الذي كان يتربّع عليه إسكندر. وبذل رجل آخر مجهوده ولكنّه لم يوفّق في مسعاه. في هذه الأثناء، كان الآخرون منشغلين في حمل البطّانيّات كي يرمي الصبي بنفسه فوقها، أو يهيّئون الحبال لإمساكه بها وإن لم يعرف أحد منهم كيفيّة استعمالها، لكن من دون جدوى، وكانت السلالم قصيرة أيضًا والحبال رفيعة والصبي لا يبدو متعاونًا.

وعلى حين بغتة شقّ صوتٌ الفضاءَ:

ـ ما الذي يفعله في ذلك المكان؟

كانت تلك صيحة بمبي وهي تصعد إلى أعلى التلّ.

فأوضح لها أحد الأهالي.

ـ إنّه عاجز عن الهبوط.

فقطّبت بمبي جبينها وهي تنظر إلى ساقَيْ ولدها النحيفتين كالعصي، المتدلّيتين من فوق الغصن. وقالت:

ـ انزل في سرعة!

وهنا شعر إسكندر بجسده يذوب وكأنّه قطعة من الثلج تحت الشمس.

ـ انزل أيّها الصبي الطائش! لقد ألحقت الخزي والعار بأبيك. لقد خُتِنَ كلّ الأولاد، وأنت الوحيد الذي تصرّفت تصرّف الأطفال.

بذل إسكندر جهده ولكنّه لم يستطع تحريك بدنه، بل نظر إلى أسفل وابتسم. الأفضل لو خفّف من وطأة الموقف، لكنّها كانت غلطة، إذْ ما أن شاهدته أمّه يبتسم حتى تفجّر الغضب العارم الذي كان يختلج في صدرها وتحوّل إلى تيّار عنيف. وقالت:

ـ أيّها الطفل المزعج المدلّل! انزل من فورك وإلّا فسوف أكسر عظامك! ألا تريد أن تصبح رجلاً؟

فكّر إسكندر قليلاً، وأخيرًا قال:

ـ كلّا.

ـ لو بقيتَ طفلاً لما حصلت على سيّارتك.

فهزّ كتفيه، إذْ سيقطع الطرق سيرًا على قدميه أو يستقلّ الحافلة.

ـ ولا على بيتك.

حاول إسكندر أن يهزّ كتفيه مرّة أخرى، فهو يستطيع أن يعيش في خيمة مثل الغجر الذين شاهدهم.

ـ ولا على زوجة جميلة.

وهنا كست وجه إسكندر تعابير الحيرة. فهو يريد زوجة، زوجة

تشبه أمّه ولكن من دون أن تنهره أو توبّخه. عضّ شفته مفكّرًا، وبعد مدّة من الانتظار بدت له بلا نهاية، لَمَّ أطراف شجاعته ونظر إلى أسفل، إلى عينيها الخضراوين كأنّهما لبلاب يجذبه في قوّة إليها.

وقالت بمبي متنهّدة:

ـ لا بأس. أنت ربحتَ وخسرتُ أنا. لن تُختن. ولن أسمح لأحد أن يلمسك.

ـ وعد؟

ـ وعد أيّها السلطان!

كان صوتها دافئًا مطمئنًا. ووجد إسكندر رعبه يتلاشى وهو يستمع إليها. فحرّك أصابع يديه ثم أصابع قدميه وتمكّن من النزول من فوق بعض الأغصان إلى حيث كان أحد الرجال في انتظاره على الدرجة العليا من سلّم مستند إلى الشجرة. ولمّا بات في مأمن على الأرض، هرع إلى أمّه يجهش بالبكاء في صوتٍ عالٍ.

قالت بمبي كأنّها تريد أن تتأكّد:

ـ يا ولدي!

ثم احتضنته في قوّة جعلته يشعر بقلبها يدقّ من تحت ضلوعها، وأضافت:

ـ بيتي أيّها السلطان.

كان إسكندر مسرورًا وهو يشعر بالأرض من تحت قدميه، وازدادت سعادته لمّا شعر أنّ أمّه اشتاقت إليه كلّ هذا الشوق، ولكن على الرّغم من ذلك ثمّة ما هو خانق في عناقها، عذب جدًّا.

شعر مع شفتيها من على جانب رقبته، وأنفاسها، وإمساكها به كأنّه في تابوت.

أمسكت بمبي بالصبي من كتفيه كأنّها قرأت أفكاره، ودفعته إلى الوراء كي تتمكّن من التحديق إلى عينيه، ثم صفعته صفعة قويّة وقالت:

ـ لا تُلحق بي العار مرّة أخرى أبدًا!

ثم التفتت قليلاً إلى الرجل ذي الحقيبة الجلديّة وأضافت:

ـ خذه!

امتقع وجه إسكندر، واستبدّت به الدهشة أكثر ممّا تلبّسه الارتباك. لقد خدعته أمّه أمام الحاضرين، وصفعته. لم يسبق لها أن ضربته ولم يخطر بباله قطّ احتمال أن تضربه، فبذَلَ قصارى جهده كي يتكلّم، لكنّ الكلمات تحوّلت إلى ما يشبه قطع الرخام تسدّ حنجرته.

في المساء، أثنى الحاضرون على شجاعة إسكندر أثناء الختان، وقالوا إنّه لم يذرف دمعة واحدة، ولكنّه كان يعرف أنّ أداءه لا صلة له بالشجاعة، لأنّه كان لا يزال يفكّر بما فعلته أمّه والسبب الذي دفعها إلى فعله. عمليّة الختان نفسها لم تزعجه قطّ، لكنّه لم يظنّ يومًا أنّ في إمكان المرء أن يخدع من يحبّه ويعزّه. ولم يعرف حتى ذلك اليوم أنّ في وسع الإنسان أن يحبّ شخصًا من صميم فؤاده ولكنّه على استعداد في الوقت نفسه لكي يؤذيه. فكان ذلك هو درسه الأوّل في تعقيدات الحبّ.

* * *

نافورة الأمنيات

منطقة على مقربة من نهر الفرات، ١٩٧٧

رحلت بمبي الآن. صورتها في المرآة، وانعكاسها على صفحة ماء راكد، وباتت تنام من تحت سماء مختلفة وإن كانت ترسل على الدوام إلى جميلة رسائل وبطاقات بريديّة فيها صور لحافلات ذات طبقتين وأبراج ساعات ضخمة. عندما كانت تعود إلى البيت في زيارة قصيرة، كانت تفوح من ملابسها رائحة مختلفة، ناعمة الملمس، وهذا هو الجانب الذي أثار دهشة جميلة أكثر من أيّ شيء آخر: تراقب أختها وهي تفتح حقيبتها وتُخرج منها العطور والحاجات الصغيرة والأقمشة التي أتت بها من بلاد أجنبيّة.

كانت بمبي قد رحلت عن القرية على افتراض لم تفصح عنه بأنّ كلّ شيء سيظلّ على حاله عند عودتها، ولكنْ لم يبق أيّ شيء على حاله السابق، فضلاً على أنّها لم ترجع رجعة نهائيّة.

لبثت بمبي سنوات طويلة ترسل الرسائل إلى جميلة مخبرةً إيّاها عن الحياة في إنكلترا، وكَتَبَ الأطفال بضعة أسطر بين حين

وحين، وكان يونس أكثر مَن كتب مِن الأولاد. واحتفظت جميلة بهذه الخطابات في علبة شاي من الصفيح وخبّأتها تحت سريرها وكأنّها كنز ثمين، وردّت على الخطابات والرسائل بانتظام وإن لم يكن لديها الشيء الكثير ممّا ينبغي لها أن تكتب عنه، أو هذا ما ظنّته. وقد سألت يونس مؤخّرًا إن كان شاهَدَ الملكة، وإذا كان قد شاهدها حقًّا، فكيف هي؟ فما كان منه إلّا أن كتب موضحًا:

تعيش الملكة في قصر منيف تضيع فيه، ولكنّهم كانوا يعثرون عليها فيجلسونها فوق العرش من جديد. كانت ترتدي ثوبًا مختلفًا في كلّ يوم، وقبّعة مضحكة ينبغي أن تكون بلون الثوب دائمًا. يداها ناعمتان لأنّها تضعهما داخل قفّاز وتستعمل كمّيّات كبيرة من الكريم، كما أنّها لا تغسل الأواني والصحون. وقد رأيت صورها في المدرسة. تبدو لطيفة.

لم تفهم جميلة كيف أنّ الأسرة أنفقت وقتًا طويلاً جدًّا على تلك الجزيرة من دون أن تقع أنظارها على الملكة باستثناء مشاهدتها على صفحات المجلّات والجرائد. أحيانًا راودتها الشكوك إن كانت بمبي قد خرجت من الحيّ الذي تقطن فيه. وإذا ما كانت محشورة دومًا بين الجدران، فما فائدة السفر إلى بلد بعيد؟ لِمَ لا يمكن للبشر أن يعيشوا ويموتوا في المكان الذي ولدوا فيه؟ كانت جميلة ترى المدن الكبيرة خانقة، وكانت تزعجها فكرة الأماكن المجهولة، وكانت المباني والشوارع الفسيحة وحشود الناس تضغط على صدرها وتتركها وهي تشهق من أجل نسمة هواء.

كانت بمبي تكتب في نهاية الرسائل فقرة أخيرة مفادها: «أأنت

غاضبة منّي يا أختاه؟ أيمكنك أن تغفري لي من أعمق قلبك؟»، على رغم أنّها كانت تعرف الردّ على تساؤلاتها، فجميلة ليست غاضبة من أختها التوأم ولا من أيّ شخص آخر، ولكنّها كانت في الوقت نفسه تدرك أنّ عليها أن تطرح السؤال مرّات ومرّات، مثل جرح في حاجة إلى تجديد ضماده في انتظام.

كانوا يسمّون جميلة القابلةَ العذراء، ويردّدون أنّها أفضل قابلة شهدتها هذه المنطقة الكرديّة الفقيرة منذ مائة سنة، وكانت النساء الحوامل يشعرن بالراحة عندما تتولّى مسؤوليّة الولادة؛ كأنّ حضورها سيضمن مخاضًا سهلاً مبعدًا عزرائيل عن المكان. وكان الأزواج يدفعون رؤوسهم إلى الداخل عمدًا ليقولوا: القابلة العذراء تتولّى زمام الأمور، وسيكون كلّ شيء على ما يرام، شكرًا لله أوّلاً ولها ثانية.

لم تكن تلك الكلمات لترقى إلى أيّ شيء، بل على العكس، كانت تعمّق من مخاوف جميلة، خشية ألّا تكون في مستوى توقّعات الناس، وكانت تعرف أنّها جيّدة ـ ماهرة مهارة جيّدة ـ قبل أن يبدأ المرء بالتدهور مع التقدّم في السنّ وضعف البصر أو حتى الحظّ السيّئ، وكما هو شأن كلّ قابلة، كانت تدرك مخاطر التفوّه باسمها في الوقت نفسه الذي يُلفظ اسم الله. ولمّا كان ينساب إلى سمعها صوت الفلّاحين وهم يكفرون، كانت تتمتم في نفسها: التوبة، التوبة! لم يكونوا مضطرّين إلى سماعها، يكفي أنّ الله هو الذي يسمعها، وعليها أن توضح له أنّها لا تطمح إلى جبروته ولا حتى منافسته، فهو الواحد الأحد الذي يهب الحياة.

كانت جميلة تدرك هشاشة الثلج الذي تسير من فوقه، فالمرء

يظنّ أنّه خبير وعالم إلى أن تواجهه حالة ولادة تملأه رعبًا وتجعله أشبه بتلميذ متمرّن، فبين حين وحين ثمّة خطأ يتكرّر، خطأ فظيع، على الرّغم من بذل قصارى الجهود، وفي أحيان كانت تخطئ في حساب يوم الولادة، وعند وصولها تجد المرأة الحامل وقد ولدت من تلقاء نفسها، وفي أحيان أخرى تجدها وقد قطعت الحبل السرّي بشفرة حادّة وربطته بخصلة من شعر رأسها... كانت جميلة تنظر إلى هذه الحوادث على أنّها دلائل من الله يذكّرها بمدى عجزها وقصورها.

كان الأهالي يأتون إليها من قرًى نائية ونواحٍ منسيّة ليصحبوها وإيّاهم. كانت ثمّة قابلات قريبات من أولئك الأهالي ولكنّهم كانوا يفضّلونها على غيرها، فهي ذات شهرة واسعة في تلك المنطقة من العالم، وعشرات الفتيات سُمِّينَ باسمها ـ بسّ جميلة.

كان دعا آباء البنات اللواتي ساعدت في ولادتهنّ:

ـ أرجو أن تحمل اسمك وأن تكون في نصف طهارتك وعفّتك.

وكانت جميلة تومئ برأسها من دون أن تنبس بكلمة بعد أن تكون قد فهمت ما يقولون. إنّهم يريدون أن تكون بناتهم متواضعات وفاضلات وفي الوقت نفسه أن يتزوّجن ويُرزقن بالأطفال في الوقت المناسب. قد تكون أسماء بناتهم وتصرّفاتهنّ مشابهةً للقابلة ولكن يستحسن أن يكون حظهنّ أفضل حالاً.

اقتربت جميلة من النافذة وعلى كتفها لفاع من حياكتها ومصباح زيتي في يدها وسدّدت أنظارها إلى الظلمة. كان الوادي يغفو من تحت عباءة الظلام، مكشوفًا ومجرّدًا إلّا من الأعشاب

والتربة القاحلة. كثيرًا ما تخيّلت نعومةً ورقّةً من تحت تلك الطبيعة القاسية، التي تشبه إنسانًا قاسيًا يخفي في صدره فؤادًا رقيقًا، ومع هذا فهي غير مضطرة إلى العيش بمفردها في مثل هذا المكان النائي، وكان في وسعها أن ترحل بدورها إلى مكان ما، إلى أيّ مكان. ولا يعني هذا أنّها كانت تملك السبل والوسائل والأقرباء الراغبين في مساعدتها للبدء من جديد في مكان آخر، فقد بلغت سنّ الثانية والثلاثين وتجاوزت ريعان الشباب وسنّ الزواج المناسب. لقد فات أوان بدئها بتكوين أسرة، فالرحم الجافّة أشبه بالبطّيخة الفاسدة: جميلة المظهر ولكنّها جافّة ويابسة من الداخل ولا فائدة ترجى منها. هكذا كان الفلّاحون يتقوّلون على أشباهها من النسوة.

ومع هذا، فيمكنها أن تتزوّج برجل عجوز أو مُقعد، مثلما يمكنها أن توافق على أن تكون زوجة ثانية، أو حتى ثالثة أو رابعة، وإن كان ذلك نادرًا، فالزوجة التي تزوّجت أوّل مرّة هي الزوجة الشرعيّة وفي إمكانها أن تلجأ إلى المحكمة أو المستشفى أو دائرة الضريبة وتزعم أنّها امرأة متزوّجة ولها أطفال شرعيّون. ولكن ما من أحد في هذه البقعة من البلاد لجأ إلى مثل هذه الأماكن ما لم يكن في مشكلة أو يُحتضر بسبب التهاب أو أصيب بالجنون، وفي هذه الحالات ما الفرق إن كانت المرأة زوجة أولى أو رابعة؟

كان بيتها - إن كانت كلمة بيت هي المناسبة لهذا الكوخ - يقع في تجويف على مقربة من وادٍ ضيّق عميق على تخوم قرية «منزل الرياح الأربع»، ويمكن للمرء أن يشاهد إلى أسفل من مسافة بعيدة، مجموعةً من الصخور تشبه عمالقة متحجّرين، تتألّق مثل

ياقوت إذا ما سقطت أشعّة الشمس عليها. تدور أساطير كثيرة عن هذه الصخور، ومن وراء كلّ أسطورة قصّة حبّ ممنوعة. فقد كان يعيش في هذه المنطقة وعلى مدى قرون طويلة النصارى والمسلمون والزرادشتيّون واليزيديّون جنبًا لجنب، وأحبّوا بعضهم بعضًا وماتوا جنبًا إلى جنب. لكنّ معظم أحفادهم هاجروا من تلك البقعة وذهبوا إلى أماكن أخرى، باستثناء مجموعة صغيرة من المزارعين الذين آثروا البقاء في المنطقة، ومنهم جميلة.

هذه المناطق المهجورة، التي كانت مفعمة يومًا ما بالحياة، تشوبها مسحة من الحزن وكآبة الأشباح تتغلغل في كلّ نسمة وفي كلّ شقّ أو صدع. ولعلّ ذلكم هو السبب في أنّ سكّان المناطق المهجورة يصبحون بعد مدّة من الزمان شبيهين بالأماكن التي يقطنون فيها، فنجدهم صامتين ومسالمين ومكتئبين. لكنّ هذا ما يبدو على السطح، الذي نادرًا ما يكون كذلك في أعماقه، شأنه شأن الناس والأرض، فتحت طبقات الثياب التي كانت ترتديها لتدفئة جسدها، كانت جميلة إنسانًا آخر: فتاة شابّة، حسناء ومرحة، ذات ضحكة ترنّ رنين القدح إذا ما لامس قدحًا آخر.

في تلك الأيّام، نادرًا ما كانت تخرج من البيت، فكانت تتوارى خلف المرأة العمليّة، التي تقطع الأخشاب وتحصد الزرع في الحقول وتسحب الماء من البئر وتصنع الدواء السحري. أحيانًا، كانت تخشى على تقواها وورعها. لعلّ هذه الوحدة التي عاشتها طويلاً تمكّنت منها، بعد أن فتّت في عقلها شيئًا فشيئًا.

عندما هبّت الريح من الجبال النائية، كانت تحمل معها عبق الزهور البرّيّة والأعشاب الطريّة والنباتات المزهرة. ولكنّها كانت

تحمل في بعض الأحيان رائحة متخمة للحم مشوي يفوق كلّ الروائح ويغور في أعماقها. ثمّة مهرّبون وقطّاع طرق في المنطقة يجولون بين الكهوف والمهاوي من دون أن يستقرّوا في منطقة واحدة أكثر من يوم واحد. كان في إمكانها مشاهدة نيران مخيّمهم متوهّجة في الظلام في الليالي التي يُفتقد فيها البدر وكأنّها نجوم حائرة. كانت الروائح في الجوّ مختلفة اختلاف الطعام الذي يأكلون، فضلاً على مدى قربهم.

ثمّة ذئاب أيضًا، إذْ كان في وسع جميلة أن تسمعها أثناء النهار وفي أواخر المساء وفي الليل الدامس تعوي غاضبة، وأحيانًا تزمجر في صوت عالٍ بالتناوب، وفي كثير من الأحيان كانت تظهر أمام عتبة بيتها، تسترق النظر وتشمّ وحدتها، ثم تعود أدراجها مقطّبة خائبة الأمل لأنّ جميلة لم تقدّم لها وليمة كافية. لم تكن جميلة لتخشى الذئاب قطّ لأنّها ليست أعداءها. أمّا قطّاع الطرق، فكان اهتمامهم ينصبّ على الغنائم الكبيرة أكثر ممّا ينصبّ عليها. يضاف إلى ذلك أنّ جميلة كانت تستمدّ شجاعتها من إيمانها بأنّ الخطر يأتي من الأشياء التي قلّما يتوقّعها أحد.

توهّجت النيران في الموقد عندما اشتعل غصن آخر، فتألّق وجه جميلة وإنْ كانت بقيّةُ أرجاء البيت غارقة في الظلمة. فكّرت أنّ المزارعين لا يحبّونها، وإنْ كانوا يحترمونها حقًّا. ولمّا كانت قادرة على السفر ممتطية حصانًا أو بغلاً أو حمارًا، فقد تمكّنت من وضع قدميها في مناطق وبقاع لا تستطيع أيّ امرأة أخرى أن تدخلها. وغالبًا ما كان يرافقها أُناس تعرفهم جيّدًا وغرباء أيضًا.

أحيانًا يطرق باب دارها في وقت متأخّر من الليل رجل لم

تعرفه من قبل متوسّلاً إليها: «تعالي بسرعة، أتوسّل إليك! إنّ زوجتي توشك أن تلد في القرية. لا بدّ أن نسرع، فهي ليست على ما يرام».

قد يكون الرجل كاذبًا، فثمّة على الدوام احتمال، وإنْ كان ضئيلاً، في شرّ مستتر. وأثناء سيرها من وراء الرجل في الليل البهيم، كانت تدرك جيّدًا أنّه قد يخطفها ويغتصبها ويقتلها، ولكن عليها أن تثق ليس به، بل بالله. ومع هذا، فثمّة أيضًا قواعد غير مكتوبة لا يمكن لأحد أن يخالفها، فالقابلة ـ وهي المرأة التي تأتي بالأطفال إلى هذا العالم ـ شبه مقدّسة، كما أنّها معلّقة في مكان وسط بين العالم المرئي والعالم اللامرئي، معلّقة بخيط رفيع يشبه خيط العنكبوت في رقّته.

غذّت جميلة الموقد بكمّيّات أخرى من الخشب ووضعت القهوة على النار: ماء وقهوة وسكّر، ثلاث موادّ بدأت تشحّ عندها، لكنّ الأسر كانت تأتي لها بالهدايا طوال الوقت، مثل الحنّة والشاي والبسكويت والزعفران والفستق والفول والتبغ المهرّب من الطرف الآخر من الحدود. كانت جميلة تعلم أنّها لو تلقّت مبلغًا من المال لكان الأهالي قد لجأوا إليها مرّة واحدة لا أكثر، ولكن إن كانوا يقدّمون لها أشياء صغيرة، فإنّ هذه الأشياء سوف تستمرّ على مدى الحياة.

خلطت القهوة في رقّة وعناية. يُقال إنّ القهوة مثل الحُبّ، كلّما صبرْتَ عليها أكثر ازداد طعمها حلاوة، ولكن جميلة لم تكن تعرف الشيء الكثير عن ذلك، فقد أغرمت مرّة واحدة، وكان طعم غرامها مُرًّا لاذعًا، لم تتكلّم عنه بعد أن ذاقت مرارته.

وفي الوقت الذي ظلّت تراقب رغوة القهوة وهي تتصاعد إلى أعلى، أصاخت السمع لأصوات قريبة وبعيدة. كان الوادي مسكونًا بالأرواح، وفيه مخلوقات لا يزيد حجمها عن حجم حبّة رزّ، لا تراها العين المجرّدة ولكنّها قويّة وخطرة. كانت الطيور تنقر النوافذ، والحشرات تنطّ من فوق الماء في الدلاء كأنّها تقطع بحيرة ماء. لكلّ شيء لغته الخاصّة به، كما كانت تعتقد: العواصف الرعديّة وقطرات الندى الصباحيّة والنمل الزاحف في إناء السكّر... أحيانًا كان يخيَّل إليها أنّها تفهم ما تقول.

لم تحبَّ شيئًا في حياتها قدْرَ ما أحبّت مهنتها، فهي رسالتها وقدَرُها. وكان هذا واضحًا سواء في الضباب أو تحت الشمس أو في الثلج الذي يبلغ ارتفاعه ثلاثين بوصة، وفي أيّ وقت، ليلاً أو نهارًا، فهي كانت على استعداد كي تلبّي النداء، منتظرة قادمًا يطرق بابها. لم يكن أحد يعرف هذا الشيء ولكنّها كانت في أعماقها متزوّجة، متزوّجة قَدَرَها ونصيبها.

* * *

كانت الريح خارج البيت تضرب زجاج النوافذ عندما تناولت جميلة القهوة من فوق اللهب وصبّت لنفسها مقدارًا قليلاً منها في فنجان صغير مكسور اليد، وشربته في رشفات قليلة بطيئة. كانت النار مثلَ حياتها، متأجّجةً في أعماقها، لا تدع احدًا يقترب منها كثيرًا، لحظات ثمينة تشتعل وتتحوّل إلى جمرات، مثل أحلام محتضرة.

وتناهى إلى سمعها صوت طائر من بعيد: بومة، يصفها سكّان المنطقة بأنّها أمّ الخراب، وانساب إلى مسامعها الصوت من جديد

ولكنّه كان أقوى من المرّة السابقة. كانت جميلة قد اتّخذت مجلسها في المنزل مغمضةَ العينين، مشتّتةَ الأفكار، فعلى الرّغم من الصعوبات والمشاقّ، تذكّرت طفولتها السعيدة:

كانت إحدى التوأمين تتظاهر أنّها الأمّ وتتظاهر الثانية أنّها الطفل. وعلى الرّغم من أنّ بمبي كانت أكبر سنًّا من شقيقتها بثلاث دقائق إلّا أنّها كانت تؤدّي على الدوام دور الطفلة في حين كانت جميلة تؤدّي دور الأمّ محاولة أن تهدّئ من روعها وتطمئنها، وكانت تهدهدها وتغنّي لها وتحكي لها الحكايات. وألمّت الدهشة بجميلة وهي تتذكّر كم كانت تلك الألعاب جادّة يومئذٍ.

وتذكّرت كيف أنّ والدها بيرزو اصطحبهما يومًا إلى البلدة، واكتشفتا نافورة أمنيات كانت النساء الراغبات في الحصول على أطفال والحموات اللواتي كنّ يردن ممارسة السحر على كنّاتهنّ والعذراوات اللواتي يرغبن في الزواج بأزواج موسرين... يأتين إلى هذا المكان ويرمين بقطع النقود المعدنيّة في الماء، وبعد أن يكون الناس قد رحلوا عن المكان، ترفع بمبي حافّات ثوبها وتتسلّق النافورة وتجمع النقود، ثم تركض الأختان بأسرع ما يمكنهما وهما تصيحان في فرح وسرور وتتّجهان إلى أقرب الدكاكين فتشتريان الحلويات على شكل عصا.

وعلى قدر ما استمتعت جميلة بالمغامرات إلّا أنّها كانت تشعر بالذنب من بعد ذلك لأنّها أدركت أنّهما سارقتان، بل أسوأ، فسرقة أماني الناس أكثر خسّة ودناءة من سرقة نقودهنّ.

وكانت بمبي تقول عندما تكشف لها جميلة عن قلقها:

ـ لا تكوني مفرطة في عواطفك، فقد تركن نقودهنّ فأخذناها بدورنا. هذا كلّ ما هنالك.

ـ صحيح، ولكن ثمّة أدعية مرتبطة بها، فلو سرق أحدهم رغبتك السرِّيّة فسوف تنزعجين. أليس كذلك؟ أعني، أنا شخصيًّا سوف أنزعج.

فابتسمت بمبي:

ـ إذًا ما رغبتك السرِّيّة؟

تتعثّر جميلة في الكلام ويساورها القلق، فصحيح أنّها ترغب في الزواج يومًا ما، وسيكون ثوب الزفاف وقالب حلوى كريما الزبد كالذي يصنع في المدينة مَثارَ الدهشة، وإن لم يكن ذلك الشيءَ المهمّ، وأنّها تحبّ كذلك أن يكون لديها أطفال، ولكن هل يرجع سبب ذلك حقًّا إلى أنّها كانت تشتاق إليهم أم لأنّ النساء كنّ يقلن لها إنّ عليها أن تمتلك الأطفال؟ جميل جدًّا أن تملك بيتًا ريفيًّا وأن تزرع الأرض، ولكنّ هذا حلم وليس هوًى. كانت جميلة عندما تستغرق في تفكير جادّ، تشعر بالسعادة لأنّها لصّ وليست زائرة من زوّار نافورة الأمنيات، ولو أُعطيت قطعة نقد كي تتمنّى أمنية ما، فإنّها قد تعجز عن التفكير بأيّة أمنية.

ونهرتها بمبي متّقدةَ العينين على ما كانت تبديه من تردّد:

ـ سألتحق بالبحّارة وأطوف العالم، وسأستيقظ صباح كلّ يوم في مرفأ جديد.

لم تشعر جميلة بوحدة أكبر ممّا شعرت يومئذٍ. فعلى قدر ما كانت تفهم أنّهما متماثلتان من كلّ الأوجه، فإنّ ثمّة اختلافًا جوهريًّا بينهما: الطموح، فقد كانت بمبي ترغب في مشاهدة العالم

الكائن وراء نهر الفرات، وكانت تملك من الشجاعة ما يمكِّنها من الاستجابة لقلبها وعواطفها ولا تعير أيّة أهمِّيّة لما يظنّه الآخرون بها. وفي لحظة عابرة، خطر ببال جميلة أنّ قدرها وقدر أختها هو أن تعيشا حياتيهما بعيدتين إحداهما عن الأخرى.

كان والدهما يردّد أنّ التوأمين المتماثلتين تشتركان في السرّاء والضرّاء، ففي السرّاء ثمّة من تعتمدان عليه دومًا، أمّا في الضرّاء، فإذا ما عانت إحداهما اليأس والقنوط فإنّ قدرهما هو أن تشترك الاثنتان في تلك المعاناة. وإذا كانت الأمور كذلك، فإنّ جميلة فكّرت في الشيء الذي يمكن أن يسبّب لهما عذابًا جديدًا ـ هوى شقيقتها أم افتقارها هي إلى ذلك الهوى؟

* * *

ذكريات

لندن، كانون الأوّل، ١٩٧٧

بينما كان آدم طبرق يأخذ حفنة من بسكويت الشوفان من على الحزام الناقل ليرصفها في العلبة المعدنيّة المخصّصة لها، إذا بفكرة تخطر بباله، وهي أنّه لم يعد يتذكّر وجه أمّه، فتوقّف لحظة وسرت في أوصاله قشعريرة، وكلّفه توقّفه فواتَ المجموعة التالية من البسكويت. ولاحظ بلال، الواقف على بعد أقدام عند خطّ التجميع، الخطأَ ولكنّه أسرع بتلافيه. ولو أدرك آدم ما حدث لأومأ لصديقه إيماءة شكر وتقدير، ولكنّه كان في تلك اللحظة لا يزال يحاول أن يتذكّر كيف كان شكل أمّه.

ثمّة صورة امرأة في ذهنه، بعيدة وغير واضحة المعالم، وكأنّها واقفة وسط ضباب خفيف، فارعة القدّ ورشيقة، رخاميّة الوجه، هادئة العينين، منشغلة البال، يسقط شعاع من الشمس من خلال النافذة على مؤخّر رأسها، تاركًا نصف وجهها في الظلال، شعرها بنّي كالنحاس، يشبه لون أوراق الخريف، ولكن بازدياد عتمة

الضوء تحوّل لونه إلى أسود غامق سوادَ الحبر، شفتاها مكتنزتان ومستديرتان. ربّما ليست هي، فآدم لا يستطيع أن يكون متأكّدًا. ربّما كانت شفتاها رقيقتين وزاويتاهما مطويّتين إلى أسفل. بدت المرأة متغيّرة الشكل في كلّ ثانية، وجهها منحوت من شمع مذاب. أو لعلّه كان يخلط بين ذكرى المرأة التي ولدته وصورة زوجته، فالشعر الكستنائي الطويل المتموّج الذي يراه الآن هو شعر بمبي وليس شعر أمّه عائشة. هل أضحت زوجته جزءًا لا يتجزّأ من وجوده على نحو أزالت معه كلّ ذكرياته، حتى تلك التي ترجع إلى زمن سابق على لقائهما؟

حوَّل آدم ثِقَلَ جسمه من قدم إلى أخرى وأغمض عينيه، وتذكّر شيئًا آخر: هو وأمّه في حقل أخضر يطلّ على سدّ. لا بدّ أنّه كان في سنّ الثامنة، وكانت أمّه قد تركت شعرها ينسدل فوق كتفيها، فظلّت ريح إسطنبول الشماليّة الشرقيّة تعبث به فيغطّي وجهها. أمامهما كانت الشمس زرقاء تمامًا، في حين انتشر فوق التلال البعيدة نثار من اللون الذهبي والفضّي والقصديري. ولم تكن بوّابات السدّ مفتوحةً، إلّا بعضها، وكان مستوى ماء البحيرة منخفضًا. وشعر الفتى بالدوار وهو يرنو إلى المياه تمور من تحت. كان من شأن أمّه أن تحذّره في أيّ يوم آخر ألّا يقترب أكثر من الحافّة، لكنّ الغريب أنّها لم تحذّره في ذلك اليوم.

«الشيطان ينتظر قرب الحافّة النائية ليجذب كلَّ من تسوِّل له نفسه الاقتراب».

وهذا هو السبب في سقوطهم دائمًا: صغار الأطفال الذين ينحنون من فوق حواجز الشرفة، ربّات البيوت اللواتي يخطون من

فوق حافّات النوافذ لتنظيفها أو منظّفو المداخن الذي يمشون بتثاقل وجلبة قرب الأفاريز. وكان الشيطان يستخدم مخالبه ليتشبّث بكواحلهم ويدفعهم بعنف إلى الهاوية. ولم تنج إلّا القطط، لأنّها أم تسع أرواح ويمكنها أن تموت ثماني مرّات.

هبطا التلّ يدًا بيد حتى وصلا الجدران العظيمة التي كانت تنحدر إلى أحد جانبي السدّ. تنهّدت عائشة في أعلى الأخدود، وتمتمت شفتاها، ويبدو أنّها نسيت أنّ الشرّير الأوّل يحوم على مسافة قريبة، أو ربّما لم يكن الأمر كذلك، لأنّه عندما تمعّن في الكلمات التي تتفوّه بها أدرك أنّها كانت تدعو الله كي يدرأ عنهما البليّة وسوء الحظّ بكلّ تأكيد، فارتاح، وإن كان ارتياحه قصير الأمد، إذْ فكّر في أن يكون الشيطان متواريًا في مكان ما وراء الأدغال، على أهبّة الاستعداد لدفعهما نحو الهاوية. ولسبب طارئ، جذب يده من يد أمّه ونظر نظرة خاطفة من حوله، إلى أن بات متأكّدًا من عدم وجود أحد غيرهما في ذلك المكان، ولكنْ... عندما التفت، لم يجدها بجانبه.

راقبها تهوي رويدًا رويدًا، ثانية بثانية.

* * *

فتح آدم عينيه ليجد بلالاً يحملق فيه وقد بدا الهلع على وجهه، سائلاً إيّاه في خضمّ جلبة المكائن وضوضائها:

ـ ما خطبك أيّها الرجل؟ لقد فاتتك أكثر من دزّينة من العلب.

وضع آدم يده اليمنى على قلبه وربت:

ـ إنّني في خير.

كانت ابتسامة بلال صغيرة ولكنّها حقيقيّة. أومأ برأسه وانصرف إلى عمله، شأنه شأن آدم، الذي تمكّن أثناء ما بعد الظهيرة من معالجة كلّ قطعة بسكويت، لكنّ الذين كانوا يعرفونه معرفة جيّدة أدركوا أنّ ثمّة منغِّصًا ينغّص عليه وقته وحياته، خارج سيطرته وأقوى منه. إنّه قلَقٌ مزعج يزحف إلى أعماق روحه، بشع بشاعة سحابة عاصفة. كان يخاف ذلك الشيء خوفَ حيوان محاصر.

وشعر أنّه مطارد، وأنّه مطروح أرضًا وكأنّه حُقن بسُمٍّ لا يقتل ولكنّه يبطئ من حركته، وأينما ولّى وجهه شاهد ظلال المطارِدين.

وما من مفرّ يلجأ إليه إلّا إذا رحل عن إنكلترا من غير رجعة. ولكنّه لا يستطيع أن يفرّ سرًّا ثم يستخفي في حين يعتمد عليه أطفاله وزوجته، وإذا شاء أن يصطحب وإيّاه أسرته، فإنّ عليه أن يدبّر المال الضروري. المال الكثير. ووجد نفسه في حيرة، الصينيّون يدركون هذا الموقف، ولهذا السبب يزعجون أنفسهم بالتأكد من وجوده يوميًّا. كانوا يعلمون أنّ في مستطاعهم العثور عليه متى ما أرادوا ـ متى ما تخلّف عن الدفع. لكنّ ثمّة سببًا آخر يحول بين آدم والذهاب إلى أيّ مكان آخر: روكسانا.

* * *

استيقظ آدم قبل ستّة أسابيع وقد غمره إحساس بالسعادة جعله يبدو وكأنّه يحلّق في حلم. القرائن حاضرة. الدلائل لم يسبق لها أن ضلّلته. راحتا كفّيه تحكّانه. قلبه يدقّ دقّات أسرع من المألوف. عينه اليسرى ترفّ رفيفًا طفيفًا. لا شيء يثير الإزعاج، لا شيء سوى التواء قسمات وجهه بين حين وآخر التواءً خفيفًا وكأنّ ذلك

رسالةً مشفّرة قادمة من السماء. أمّا من النواحي الأخرى، فهو يوم اعتيادي كبقيّة الأيّام. ولكنّ الشعور لازمه، وعامله الكلُّ معاملةً مؤدّبة طوال ما بعد الظهيرة، كما كان مؤدّبًا بدوره تجاه الآخرين. يوم رائق ومشمس، وكانت الشمس منعكسةً على نهر التايمز انعكاسًا خلّابًا ملؤه البِشْرُ.

وذهب إلى وكر المقامرة بعد أن آذنت الشمس بالمغيب، ففي يوم ما، يوم ليس بالبعيد عن هذا اليوم، سوف يتوقّف عن المقامرة، وسوف يتخلّى عن هذه العادة ويبعدها عن نفسه مثلما يبعَد غصن مريض عن شجرة طيّبة. وكما سيستحيل على الشجرة أن تعمل على نموّ الغصن من جديد، فإنّ الدافع لن يدفعه من جديد إلى المقامرة. ولكن ليس الآن، فهو ليس مستعدًّا الآن للتخلّي عنها. وطمأن نفسه قائلاً: لا بأس اليوم، فالحظّ إلى جانبي.

كان وكر المقامرة في الطبقة تحت الأرضيّة من منزل مزدوج الواجهة في حيّ بيثنال غرين، يتألّق ويزهو بتاريخه العريق. أمّا في داخله، فكان عالَمًا مختلفًا تمامًا، فهو يحتوي على خمس غرف، في كلّ غرفة رجال يلعبون لعبة السنوكر أو يحتشدون من حول لعبة الروليت أو طاولات البوكر أو البلاك جاك. المكان مفعم بدخان كثيف. الذين يملكون مالاً وفيرًا ولا يخافون شيئًا تجدهم في غرفة في مؤخّرة البيت. ويمكن أن يتناهى إلى سمع المرء من وراء الباب المحكم الغَلْق التمتمات والشهقات والشكاوى بين حين وآخر، فضلاً على صوت عجلة الروليت.

مكان مخصّص للرجال. أمّا النساء القليلات الحاضرات في الوكر، فهنّ محجوزات، ولهذا يتعذّر الاقتراب منهنّ. في هذا

المكان ثمّة قواعد وقوانين غير مكتوبة يطيعها كلّ فرد: الهنود والباكستانيّون والأندونيسيّون والبنغلاديشيّون والكاريبيّون والإيرانيّون والأتراك واليونانيّون والإيطاليّون. . . كلُّ فرد يتكلّم الإنكليزيّة ولكنّه يسبّ ويشتم ويتآمر ويدعو بلغته الأمّ.

يسمّون المكان «العرين». تديره أسرة صينيّة قليلة الكلام، سبق لها أن عاشت في فيتنام أجيالاً بعد أجيال ولكنّها أُرغمت على الرحيل عنها في أعقاب الحرب. كان آدم لا يرتاح أبدًا إلى جانبهم، فالصينيّون لا يحمي أحدهم الآخر كالإيطاليّين، كما أنّهم ليسوا حادّي الطباع كالإيرلنديّين. ثمّة صفة محيّرة إزاء سلوكهم وتصرّفاتهم، هم أشبه بالطقس، لهم القابليّة على التغيّر لأتفه الأسباب.

في ذلك المساء لعب آدم لعبة الورق المعروفة باسم «بلاك جاك»، فضلاً على الطاولة، ثم انقلب بعد ذلك إلى لعبة الروليت، فوضع رهانه الأوّل على الأسود، وهي بداية تبشّر بالنجاح، ثم عمد إلى رهان توافقي فربح من جديد، ولكنّ المبلغ لم يكن دسمًا، فتحوّل إلى اللون الأحمر فربح ثلاث مرّات في صفّ واحد، تاركًا ما فاز به في الرهان السابق على الرهان الحالي. كانت لحظة من اللحظات السحريّة عندما أحسّ بقرص الروليت الدوّار، الذي كان ـ مثله تمامًا ـ يفتقر إلى ذاكرة قويّة. في الإمكان المراهنة بالرهان نفسه مرّات ومرّات ومع هذا تظلّ فرص الفوز غير متغيّرة. الروليت لا تحترم أيّة أنماط معروفة ومعترف بها، لهذا لعب من دون ذاكرة، مركّزًا في كلّ رهان جديد وكأنّه رهانه الأوّل والأخير.

وأشار إليه الجالسون في الغرفة بعلامة الموافقة والقبول، وربتوا على كتفه وتمتموا بكلمات التشجيع. يا له من شعور مدهش عندما يحترمك الآخرون وعندما تكون موضع إعجابهم وحسدهم. لعب كرة أخرى، وظلّ منتصرًا، وازدحم الناس أكثر من ذي قبل من حول الطاولة، وبعد خمس عشرة دقيقة كان لا يزال يراقب الكرة تدور من حول القرص ولا يزال يربح. وهنا طلب السمسار استراحة.

احتاج آدم إلى هواء نقي فخرج إلى الشارع، ليشاهد مغربيًّا طويل القامة، ضخم البنيان، يعرفه من العمل في المصنع، مفترشًا الرصيف وحده.

قال المغربي:

ـ أنت رجل محظوظ.

ـ قسمة. ليس كلُّ يوم كهذا اليوم.

ـ لعلّ الله يختبرك.

ثم أمسك عن الكلام ورمقه بنظرة شزر وأضاف:

ـ أتدري ما يقولون؟ من يريد ركوب فرس سريعة يمكن أن يكسر ظهره، ولكنّ الجواد سيواصل السير.

ـ عجبًا! ما معنى هذا الكلام؟

ـ لا أدري، ولكنّني أحبّ ذلك الصوت.

ضحكا، فحمل هواء الليل صوتيهما.

قال آدم:

ـ هاك قول آخر: يمكن للمرء أن يهرب إلى أقصى أقاصي

العالم ولكنّه لا يستطيع الهروب من عجيزته.

ـ هه!

كاد المغربي أن يرفع كأسه عندما لاحظ يدي رفيقه الخاويتين.

وقال آدم موضحًا:

ـ لا أتعاطى المشروبات.

فندّت عن الرجل ضحكة قصيرة وقال:

ـ الله، الله! انظر إلى نفسك! أنت غارق في المقامرة ولكن عندما يخصّ الأمر الخمرة تتحوّل إلى مسلم تقي.

تجمّد وجه آدم. إنّه ليس مدمنًا، وفي إمكانه أن يتوقّف عن لعب القمار متى شاء. أمّا الأسباب الكامنة وراء عدم تعاطيه الخمرة فهو أمر قلّما تحدّث عنه، وبخاصّة إلى الغرباء، ولكنّه قرّر أن يتكلّم في هذه الليلة، فقال في برود:

ـ كان أبي مدمنًا على الشراب.

عاد أدراجه إلى الوكر ولكن سرعان ما انطفأت الأنوار. انقطاع آخر في التيّار الكهربائي، وهو الانقطاع الثالث في هذا الأسبوع. لندن في هذه الأيّام كئيبة في الصباح مثقلة بسحب الأمطار ومدلهمّة السواد في الليل بسبب انقطاع التيّار الكهربائي. لا بدّ أنّ محلّ بيع الشموع في حيّ هاكني يحقّق أرباحًا طائلة، حسب ظنّ آدم، فثمّة أموال طائلة تجنى من وراء بيع الشموع بالجملة، وهي تجارة باتت حيويّة مثل بيع الخبز والحليب.

أرهق عينيه في الممرّ نصف المضاء إلى أن وصل الغرفة الخلفيّة، فشاهد ثلاثة صينيّين من وراء طاولة في حالة عبوس

وسكوت قرب مصباح كيروسين ـ رجال كلماتهم قليلة وتعابير وجوههم لا يُسبر غورُها، فأدرك آدم أنّ وقته حان كي ينصرف، وأنّ عليه أن يقتنع بما أحرز الليلة من مال، فأخذ سترته ومنح السمسار إكراميّة وكاد أن يخرج من الباب لولا أن توقّف.

كلّما كان يتذكّر تلك اللحظة بعدها، وكثيرًا ما فعل، فإنّه كان يفكّر في مقابض الطوارئ المزوّدة بها القطارات. لم يحاول يومًا أن يجذب مقبضًا، ولكنّه كان يعرف أنّ القطار سوف يتوقّف على حين بغتة إذا ما جذب المقبضَ شخص ما. لقد توقّف في تلك الليلة وكأنّ ثمّة مقبضًا من ذلك النوع مثبّتًا على ظهره وأنّ شخصًا ما جذبه، فقد دخلت امرأة شابّة الحجرة مثل طيف يبرز من وسط الظلال.

كان شعرها الرملي اللون يتألّق تحت نور المصباح الباهت ويلتفّ من تحت أذنيها على نحو دقيق. تنّورتها جلديّة وقصيرة جدًّا، وصديريّتها حريريّة بيضاء اللون، وفي قدميها حذاء بكعب طويل ذي طرف مدبّب. كانت كلُّ ذرّة من ذرّات وجهها الشبيه بالقلب تبعث برسالة مفادها أنّها ليست راضية أو مسرورة من وجودها في هذا المكان، وأنّها تفضّل أن تكون في مكان آخر بعيد جدًّا. راقبَها آدم وهي تتّخذ مقعدها بجانب أحد الصينيّين ـ وكان رجلاً أصلع الرأس، بدينًا، تصرّفاته توحي أنّه الزعيم، وربّما كان زعيمًا حقًّا ـ وتهمس في أذنه، فابتسم لها الرجل ابتسامة شاحبة وربت على فخذها في رفق، فشعر آدم بتمزّق في أحشائه.

سأل الرجل من دون أن يرفع رأسه أو ينظر إلى أيّ شخص محدّد:

ـ أنت ما زلت هنا إذًا. أتريد أن تلعب من جديد يا صديقي؟

عرف آدم، مثلما عرف كلّ الجالسين في الغرفة، أنّ السؤال موجّه إليه مباشرة. كان في وسعه أن يلاحظ الرجال يحدّقون إليه، لكن عيني المرأة هما اللتان نفذتا إلى أعماقه. عينان بلون الصفير الأزرق، لم يسبق له أن شاهد مثل تلك العينين الواسعتين، البرّاقتين والزرقاوين. لو قُيّض لزوجته أن تلتقي هذه المرأة لخشيت من عينها الشرّيرة، لأنّ بمبي كانت تؤمن بأنّ من يحدج شخصًا بمثل هاتين العينين، وإنْ برهةً وجيزة، فإنّ عليه أن يطلق ساقيه للريح ويعود إلى بيته ويحرق الملح فوق الموقد.

اتّقد وجه آدم والتهب، وأدرك في تلك اللحظة عينها أنّه يوشك أن يقترف أسوأ غلطة في القمار، إن لم يكن في الحياة، وهي أن يُستفَزّ، ولكنّه أدرك أيضًا أنّ هذا شيء والقبول بالاستفزاز شيء آخر. فهزّ رأسه وأجاب:

ـ نعم، سوف ألعب.

ونجح في تحقيق هدفه، وإن كان على نحو مختلف هذه المرّة، فالهمّة التي كانت تحيط به تغيّرت، وأصبح هو وقرص الروليت كيانين منفصلين وغير متطابقين الآن. ولكنّه على الرّغم من ذلك لم يتزحزح، وظلّ مسمَّرًا في كرسيّه يراقب الحسناء وهي تنظر إلى الكرة في دورانها.

عاد النور من جديد، فاعتقد أنّ هذه علامة تبشّر بالخير، واستمرّ في الرهان، فربح مرّات ومرّات، وكانت الرهانات كبيرة، وخطرة، وجنونيّة. وحاول الصينيّون أن يحتفظوا بهدوئهم وبرودة أعصابهم ولكن توتّرهم بدأ يظهر للعيان. وشاهد آدم الرجل

المغربي في وسط الحشد، مقطّبًا جبينَه في ألم وحزن وهزّ رأسه وقال:

ـ كفى أيّها الأخ.

لكن آدم لم يكفّ. كانت المرأة تحدّق إليه من طرف الطاولة الآخر، مكتنزة الشفتين كالكرز، جاذبيّتهما لا تقاوم. وراوده الإحساس باحتمال فرصة واحدة من بين ألف فرصة أن يأسر قلبها إذا ما استمرّ في الربح في لعبة الروليت، ولكنّه سمع بعد ثوانٍ معدودة شخصًا ما يناديها، وهكذا عرف اسمها: روكسانا.

رهان متّصل. وضع كلّ أقراص القمار على الرقم (١٤)، ودارت الكرة بعكس اتّجاه قرص الروليت، وكأنّهما تيّاران في حياته، الحياة والحرّيّة، يجذبانه في اتّجاهين متعاكسين. وندّت عن النظّارة تنهيدة جماعيّة. وهنا اهتزّت الكرة قبل أن تدخل أخيرًا أحد الشقوق. ودار قرص الروليت دورة أخرى كاملة، فأشرق وجه الفتاة في دهشة وإعجاب كما ظنّ آدم، ولم يكن مضطرًّا إلى إلقاء نظرة كي يعرف أنّه ربح.

عندئذٍ غمغم أحد الصينيّين في صوت خفيض وإن كان مسموعًا:

ـ أليست لك أسرة في انتظارك أيّها الصديق؟ لا بدّ أنّها قلقة البال عليك، فالوقت قد تأخّر.

وضع هذا التحذير المبطّن وكلمة «أسرة» حاجبًا كثيفًا بينه وبين الروليت، بينه وبين الحجرة، بينه وبينها، فوضع أقراص القمار في علبة وحوّلها إلى نقد وخرج، ليوصله أحد معارفه إلى منتصف الطريق، وسار بقيّة المسافة على قدميه.

كانت أكوام النفايات منتشرة في شوارع إيست لندن، والقاذورات المتعفّنة مبعثرةً في كلّ مكان وعلى نحو عشوائي. لقد أُصيب العالم بالسعار. كلّ الناس في حالة إضراب: رجال الإطفاء وعمّال المناجم والخبّازون وعمّال المستشفيات وعمّال النظافة. لا أحد يريد أن يلعب اللعبة مرّة أخرى، لا أحد سوى المقامرين.

كانت الرابعةَ فجرًا لمّا وصل آدم المنزل في شارع لافندر غروف. دخّن سيكارة فوق الأريكة حتى تحوّلت إلى رماد بين إصبعيه، وكانت كومة النقود بجانبه دافئةً وفيّة. ستّة عشر ألفًا وأربعمائة باوند. وبما أنّ الكلّ كان ينام نومًا عميقًا، فإنّه لم يتمكّن من إخبار أفراد أسرته بانتصاره. لا بدّ من الانتظار، ظلّ مستلقيًا، مفتوح العينين في غرفة المعيشة المعتمة، يراوده إحساس بالوحدة عميق لا يقوى على قهره. في وسعه سماع أنفاس زوجته وولديه وابنته، وحتى السمكة الذهبيّة... كلّهم في هدوء غامض.

سبق له أن لاحظ هذا الشيء أثناء خدمته العسكريّة في تركيا، فإذا ما نام أكثر من ثلاثة أشخاص في مكان ضيّق، فإنّ أنفاسهم تغدو متزامنة عاجلاً أم آجلاً. لعلّ ذلك وسيلةُ الله لإخبارنا أنّنا إذا ما تركنا أنفسنا على سجيّتها، فإنّنا في نهاية المطاف سنكون في حالة انسجام وتنتهي الخلافات. الفكرة جديدة كما تراءت له، واستمتع بها برهة وجيزة من الزمان، لكنْ حتى إن كان ثمّة انسجام في مكان ما، فإنّه لا يستطيع أن يكون جزءًا منه. وخطر بباله، مثلما كان يخطر بباله في مناسبات أخرى، أنّه رجل كبقيّة الرجال، لا أفضل ولا أسوأ، ولكنّه كان يخذل الناس الذين يرعاهم. وفكّر مرّات لا تعدّ ولا تحصى إن كان أهله في حال أحسن من دونه.

لم يقدر على النوم، فغادر الشقّة فجرًا حاملاً النقود معه، وإنْ كان يعلم علم اليقين أنّ حملها هو الجنون بعينه، فحيّ هاكني يحتشد بالسفّاحين واللصوص الذين لا يمنعهم مانع من كسر ضلوعه لقاء مثل هذا المبلغ الكبير. وتحوّل سيره إلى خطوات واسعة ونشطة، وكان يجفل وتسري في جسده قشعريرة كلّما اقترب منه شخص غريب في الشارع.

وفي مصنع البسكويت المتّحد عومل معاملة الملوك، إذْ كانوا قد سمعوا بالخبر، ففي استراحة الغداء، دخل أخوه طارق لتهنئته و. . . ليطلب منه معروفًا.

قال طارق بصوت تحوّل إلى همس سرّي:

ـ أنت تعرف حالة زوجتي، فهي تضايقني منذ زمن بشأن المطبخ.

كانت لدى طارق فكرة عن المطابخ الإنكليزيّة، وهي أنّها مصمَّمةٌ صغيرةً وكئيبةً عمدًا حتى يلجأ الناس إلى شراء الوجبات السريعة من الخارج. وقد تواطأ المهندسون المعماريّون في هذه المؤامرة أسوةً بالسياسيّين والمجالس المحلّيّة والنقابات، حيث دفع لهم أصحاب المطاعم الرشا، واستمرّ في قدْحه وذمّه على هذا الأساس.

أومأ آدم برأسه على نحو ودّي وإن كان قد شعر أنّ أخاه الأكبر سوف يقترض منه أكبر قدْر ممكن من المال، وبعد أن ينفق كمِّيّة قليلة منه على مطبخه سوف يحتفظ بالباقي في حساب ادّخاره.

كان طارق كثير البخل، يكتنز المال على الدوام. ويصعب كثيرًا التصديق بأنّ هذا الرجل هو ذاك الرجل نفسه الذي كان أيّام

شبابه قد ساعد شقيقيه بسخاء وكرم، فعندما قضى والدهم نحبه، اشتغل طارق في جِدٍّ وأصبح قانعًا ومدبِّرًا في مصاريفه، يقصّ أنبوبة معجون الأسنان لكي يعتصر منها آخر قطرة، ويجمع القسائم من النشرات، ويطفئ سخّان الماء، ويستخدم أوراق الشاي مرّات ومرّات، ويشتري الحاجات المستعملة دومًا، مانعًا أسرته من شراء أيّ شيء من دون الاستفسار منه أوّل الأمر وإنْ كان يجيب على كلّ سؤال إجابة واحدة لا تتغيّر: لا ضرورة لذلك.

قال آدم وهو يأخذ نفسًا عميقًا:

ـ هل تفكّر يومًا ما في والدتنا؟

لو كان اليوم يومًا عاديًّا لمَا لجأ آدم إلى الكلام على هذا النحو، ولكن بعد أن طلب منه شقيقه أن يسدي إليه معروفًا، شعر أنّ له اليد الطولى، وأنّه جدير به أن يستمع إلى بعض الذكريات لقاء حسنة.

غير أنّ السؤال كان مفاجئًا، إلى الحدّ الذي جعل طارق يبدو ذاهلاً لا يعرف كيف يجيب، وتغضّن جبينه بين حاجبيه وامتدّ إلى جبينه كلّه، حيث توجد بضع بقع بيضاء اللون هي نتاج مرض جلدي يرجع إلى أيّام الطفولة. ولمّا تكلّم بدأ صوته قويًّا، خشنًا:

ـ ما الذي يدفعني إلى ذلك، كانت امرأة لا فائدة من ورائها.

وهنا رغب آدم في أن يسأله ألا يريد أن يعرف إن كانت في قيد الحياة، أو إن كانت قد رُزقت بأطفال آخرين، أو كيف حالها، أو إن كانت تشتاق إليهم. . . لكنّه أمسك عن الكلام، وبدلاً من ذلك قال بعد أن لفّهما صمت رهيب:

ـ سوف أتوقّف بالقرب من بيتك في هذه الليلة وأجلب لك

المال، وأخبرْ زوجتك أنّها سوف تحصل على أثاث مطبخها الذي تحلم به.

بعد أن أَزِفَت الشمس بالمغيب، خطر بباله أنّه لو قامر وربح من جديد فسيكون له ضعف المبلغ الذي يملكه الآن، وعندئذٍ يمكنه أن يقرض المال لطارق ولغيره من الناس ولن يضطرّ إلى استعادة ملّيم واحد منه. كان ثمّة دافع نبيل يدفعه وهو يتّجه إلى الطبقة تحت الأرضيّة من بيثنال غرين، ورأى المرأة ذات العينين الزرقاوين، رنا إليها وهي ترقب الكرة تدور من حول القرص مرّة أخرى، ولعب، وقامر مقامرة كبرى، فخسر، خسر كلّ شيء.

* * *

سجن شروزبيري، ١٩٩٠

لم أتلعثم في كلامي يومًا في حياتي كلّها إلى أن حان ذلك اليوم، الثلاثاء الرابع عشر من تشرين الثاني ١٩٧٨ ، وهو اليوم الذي قرّرت أن أحصل فيه على سكن:

كنّا في مطعم المدرسة، أنا وزملائي. صوانٍ زرقاء بلاستيكيّة وفطيرة الراعي وكعكة محشوّة بالمربّى، أقداح ماء معدنيّة وجلبة معتادة. أخذتُ ألقي النكات تارة وأتلعثم في النطق بالكلمات تارة أخرى. حدث كلّ شيء على حين بغتة وعلى نحو سريع، ممّا جعل الآخرين يظنّون أنّني أحاول الضحك عليهم وخداعهم.

كنّا نتحدث عن لعبة اليوم القادم، فقد كان فريق تشيلسي يستعدّ لمنازلة فريق داينمو الروسي. وقال أرشد، وهو باكستاني قصير القامة ممتلئ الجسم يحلم باللعب مدافعًا عن فريق نوتنغهام فوريست، إنّه على استعداد للرهان على سيّارته الجديدة بأنّ أولادنا أصحاب البذلات الزرق سوف يفوزون، وقال إنّ اللعبة ستكون

أشبه بنزهة، ولكنّنا كنّا كلّنا نعرف أنّ ذلك هراء.

امتعض أرشد لأنّ كلامه لم يؤخذ على محمل الجدّ، فالتفت إليّ وغمز وابتسم، كعهده دومًا عندما كان يريد شيئًا ما:

ـ هل ستعطيني طبق الحلوى؟

فهززت رأسي نافيًا.

ـ لا . . . لا . . . انسَ. . . الأ . . . مر!

توقّف وحملق فيَّ واتّبعه الآخرون كأنّهم يرونني أوّل مرّة في حياتهم، ثم ذكروا أنّ أحدهم في صفّ آخر كان يتلعثم تلعثمًا شديدًا فلا يكلّمه أحد، وانفجروا ضاحكين معتقدين أنّني كنت أسخر منه، فضحكت بدوري، ولكنّني شعرت بموجة من الرعب والهلع تسري في أعماقي. دفعت صينيّتي في متّجه أرشد وأشرت إليه برأسي بما معناه أنّ في وسعه أن يأكل ما تبقّى من الطعام، إذْ إنّني فقدت شهيّتي في تناول الطعام.

ولمّا انتهت مدّة الاستراحة، عدت إلى حجرة الدرس مهمومًا، منكسرَ الخاطر لأنّني لا أعرف كيف أُصبت بهذا العَوْق في الكلام وعلى هذا النحو، فانت لا تجد في أسرتي من يتلعثم، وفكّرت في أنّ هذه العاهة لا بدّ أن تكون وراثيّة، أو ليست وراثيّة، فقد تكون صوتًا قصيرًا حادًّا، حالة نفسيّة موقّتة، حالة منحرفة عن شيء سويّ، مثل رحلة مزعجة، ولعلّها سوف تزول بالسرعة التي جاءت بها. كان عليَّ أن أكتشف ذلك، وهكذا وضعت ساعة رسغي في جيبي واقتربت من فتاتين لأسألهما عن الوقت، لكنّ الشيء الوحيد الذي صدر عن فمي هو صوت مخنوق.

فضحكت الفتاتان. لا بدّ أنّهما ظنّتا أنّني مغرم بهما،

فاستدرت على عقبي، محتقِنَ الوجه، واستطعت أن ألمح من طرف عيني صديقتي تراقب كلّ حركة من حركاتي، ولمّا بدأ درس التاريخ، رمتني كاتي بقصاصة تقول:

ماغي، كريستين، هيلاري. إن كان ولدًا، توم.

دعكْتُ الورقة بيدي ودسستها في جيبي، فما كان منها إلّا أن أرسلت كرة أخرى: ماذا جرى لك؟

هززت كتفيَّ، بمعنى: لا شيء مهمّ، ولكن حتى لو تلقّت كاتي الرسالة، فإنّها لا تبدو مقتنعة. لهذا السبب أجبتها:

سأخبرك لاحقًا!

بقيتُ طوال الدرس قلقًا خشيةَ أن يُطرح عليّ سؤالٌ ما فأصبح موضع سخرية واستهزاء إلى ما لا نهاية. لحسن الحظّ ليس ثمّة أسئلة، وما أن انتهى العذاب حتى جذبت حقيبة ظهري وأسرعت في اتّجاه الباب وقد وطّنت نفسي على عدم حضور بقيّة الدروس والرجوع إلى البيت مبكرًا.

* * *

عندما وصلتُ البيت كانت الساعة قد بلغت الثالثة والنصف. قرعت الجرس وانتظرت كي يفتح أحدهم الباب، ونظرت إلى الاسم المثبّت بجانب جرس الباب: آدم طبرق.

كانت شقيقتي أسماء قد كتبت الاسم بخطّ يدها الجميل والمنمّق وخلافًا لإرادتها، إذْ تذمّرت قائلة: «نحن نعيش في هذا المكان أيضًا، فلماذا نكتب اسم أبينا وحده؟».

كانت أسماء فتاة رقيقة ولكنّها كانت على الدوام تعبّر عن

نفسها بأفكار هائلة: فرص متساوية، عدالة اجتماعيّة، حقوق المرأة. . . وظنّ أصدقائي أنّها مخبولة أو شيوعيّة، ولو كانت الأمور بيدها لكتبت بدلاً من ذلك: أسرة طبرق.

أو ربّما كتبت:

آدم وبمبي وإسكندر وأسماء ويونس والسمكة الذهبيّة.

إلّا أنّني لم أُعِر الأمر أيّة أهمّيّة في الحالتين، فأنا شخصيًّا كنت أفضل ترك الباب من دون اسم، فذلك أسلوب أكثر رقيًّا ومباشِر. إنّه أسلوبي كي أقول إنّ ما من أحد يعيش هنا، فنحن لا نقطن في تلك الشقّة، بل نقيم مدّة قصيرة من الزمان، فالبيت عندنا لا يختلف في شيء عن فندق بنجمة واحدة، حيث تغسل الوالدة شراشف الأسرة بدلاً من الخادمات، وحيث يكون طعام الإفطار متشابهًا في صباح كلّ يوم: جبنة بيضاء وزيتون أسود وشاي في أقداح صغيرة ـ بلا حليب دائمًا.

على قدر ما أعرف، ربّما سيلعب أرشد يومًا ما في دوريّ النخبة الأوّل. في وسعه أن يملأ جيوبه بصور الملكة ويملأ سيّارته بطيور ضخمة، لكنّ أمثالنا من الناس سيكونون غرباء دائمًا، فآل طبرق عابرو سبيل في هذه المدينة ـ أسرة أصولها كرديّة وتركيّة في الوقت ذاته، في منطقة غير ملائمة في لندن.

قرعتُ الجرس من جديد، ولكن ما من جواب. عجبًا! أين أمّي؟ لا يمكن أن تكون في محلّ حلاقة «المقصّ البلّوري» لأنّها تركت العمل منذ أيّام. كنت ربَّ الأسرة منذ رحيل أبي، ولم تكن بي رغبة في أن تستمرّ في العمل أكثر من ذلك. بكت طويلاً ولكنّها لم تعترض، لأنّها كانت تعرف أنّ لديّ أسبابي الخاصّة، فالناس

يُكثرون من القيل والقال. لا دخان بلا نار. لهذا طلبت منها أن تلزم البيت لأنّني مضطرّ إلى إخماد اللهب.

لم ينتبه أحد في المدرسة إلى ما يجري من أحداث، وكنت شخصياً أريد أن تبقى الأمور على ذلك الحال. فالمدرسة مدرسة، أمّا البيت فبيت. ولم تكن كاتي تعرف شيئاً بدورها، فصديقتك هي صديقتك، وأسرتك هي أسرتك. ثمّة أشياء لا بدّ من تركها منفصلة بعضها عن بعض، مثل الماء والزيت.

وخطر في بالي أنّ أمّي ربّما ذهبت للتسوّق أو لأمر ما. إنّني مضطرّ إلى أن أكلّمها في ذلك الشأن أيضًا. أخرجت مفتاحي ووضعته في ثقب المفتاح وحرّكته إلى أمام وإلى الخلف، ولكن من دون جدوى. كان الباب مغلقًا برتاج. وسرعان ما انساب إلى مسمعي صوت وقع خطوات على امتداد الممرّ.

وقالت أمّي:

ـ من أنت؟

ـ أنا . . . أ . . . نا، يا أمّ. . . ي.

ـ أهذا أنت يا إسكندر؟

كان صوتها مشوبًا بالذعر، وكأنّ أمرًا جللاً يوشك أن يحدث. وسمعت همسة، خفيضة وسريعة، وأدركت من فوري أنّ الصوت ليس صوت أمّي، فبدأ قلبي يخفق خفقاناً سريعًا وشعرت أنّني أختنق ولم أتمكّن من التقدّم إلى أمام أو التراجع إلى الخلف، فلبثت أحاول فتح الباب بالمفتاح دقيقة أخرى، ربّما أكثر، ثم فُتح الباب.

كانت واقفة عند المدخل مبتسمة الثغر، حادّة العينين، على غير عادتها. ولاحظت خصلة من شعرها متدلّية من تصفيفة شعرها المشابهة لذيل الحصان، وأحدَ أزرار كنزتها الصوفيّة في ثقب مغاير.

وقالت:

ـ لقد عدتَ يا ولدي إسكندر.

فكّرت أنّ الشيء الذي أثار دهشتها هو إمّا عودتي إلى البيت قبل ثلاث ساعات من الوقت المعتاد أو أنّني ولدها.

وسألَتْ أمّي:

ـ هل أنت بخير؟ لا تبدو على ما يرام يا سلطاني!

أردت أن أقول لها: لا تناديني بهذا اللقب. لا تناديني بأيّ اسم، ولكنّني بدلاً من ذلك خلعت حذائي واندفعت إلى أمام موشكًا أن أطرحها أرضًا، وسرت مباشرة إلى حجرتي، وأغلقت الباب في عنف، ووضعت كرسيًّا أمامه كي أحول دون دخول أيّ شخص. ثم استلقيت فوق فراشي وجذبت الملاءات من فوق رأسي وركّزت في أنفاسي، وهو الأسلوب الذي تعلّمته في دروس الملاكمة: شهيق.. زفير.. شهيق.

ثمّة أصوات تتناهى إلى السمع من الخارج، أصوات مبهمة. ألواح الأرضيّة الخشبيّة تصدر صريرًا والريح تهبّ ومطر خفيف يسقط على المدينة. وفي غمار ذلك الخليط من الأصوات، كان في إمكاني أن أسمع صوت باب بيتنا الأمامي يُفتح، وصوت شخص ما يخرج منه هادئًا كالفأر.

كانت معتادة أنْ تحبّني أكثر من أيّ شيء آخر، فأنا ولدها

البكر، ابنها المبكر «ونور عيني». أمّا الآن، فقد بات كلّ شيء مختلفًا، محطّمًا، وانحدرت دمعة فوق خدّي فصفعت وجهي بقوّة أكبر.

أَصَخْتُ السمعَ لصوت وقع أقدامها على الممرّ، خافتة وثابتة، مثل ضربات القلب. وتوقّفَتْ قرب باب حجرتي من دون أن تتجرّأ على قرعه. كنت أحسّ بحركاتها، وأكاد أن ألمس خطيئتها وأن أشمّ عارها. ولبثنا ننتظر على ذلك النحو انتظارًا لا يعلم مداه إلّا الله، يصغي أحدنا لأنفاس الآخر، متسائلاً عمّا يدور في فكر الآخر. ثم انصرفَتْ كأنّها لا تملك ما تقول، كأنّها ليست مدينةً بتفسير، كأنّ رأيي لا قيمة له بعد الآن، أو حتى غضبي أو ألمي وعذابي. لقد نجت منّي.

كان ذلك عندما علمْتُ أنّ ما أخبرني به طارق عن أمّي كان صحيحًا، عندها فكّرت في أن أبتاع سكّينًا، سكّينًا تُطوى بمقبض خشبي وحافّة مقوّسة. تصرّفٌ مخالف للقانون بطبيعة الحال، فما من أحد يريد أن يتورّط مع الشرطي العجوز[1] بشراء مطواة تنفتح

(١) الشرطي العجوز Old Bill: أصل التعبير جندي عجوز بشارب كثّ وأمل خائب في أيّام الحرب العالميّة الأولى، صوّره الكابتن بروس برينزفاذر (١٨٨٧ ـ ١٩٥٩)، الرسّام والصحافي البريطاني، في منشوراته مختبئًا في جحر من جحور القنابل موحل ومغمور بالمياه، أثناء القصف المعادي، ويخاطب زميله بيرت قائلاً: إن كنت تعرف مكانًا أفضل فاذهب إليه. وأصبح التعبير كناية عن شخص عجوز يتذمّر ويتعذّب طويلاً. وإن كان ثمّة رأي آخر يفيد أنّ التعبير يقصد به رجل الشرطة، أو شرطة العاصمة البريطانيّة تحديدًا. والصلة بين التعبير والمدلول غير واضحة المعالم وإن كان معروفًا أنّ أعدادًا كبيرة من جنود الحرب العالميّة الأولى التحقوا بشرطة العاصمة البريطانيّة (الميتروبوليتان) بعد أن وضعت تلك الحرب أوزارها، فضلاً على أنّ ملصقات جداريّة انتشرت يومئذٍ توضح أنّ الجنود جُنّدوا

بالضغط على مقبضها، وخاصّة إذا كان الشخص مثلي. ولكنّني كنت أعرف من أين أشتري مطواة. كنت أعرف الرجل.

لن أؤذي أحدًا، بل كنت أبغي إثارة هلعها... أو هلعه.

إسكندر طبرق

= للشرطة بعد عرض ملصقات تصوّر الجندي العجوز الذي رسمه برينزفاذر مرتديًا بزّة رجال الشرطة (المترجم).

نـزهـة تحـت الشمـس

إسطنبـول ١٩٥٤

أنفق آدم سنوات طفولته ممزَّقًا بين أب صاح وأب سكّير. عاش هذان الأبوان في جسد واحد ولكنّهما كانا مختلفين أحدهما عن الآخر اختلافَ الليل عن النهار، فقد كان التناقض بينهما من الحدّة ما جعل آدم يرتاب في أنّ المشروب الذي يعبّ منه والده كلّ مساء إنّما هو نوع من أنواع الشراب السحري، فهذا المشروب لم يحوّل الضفادع إلى أمراء ولا التنّين إلى ساحر، ولكنّه حوّل الرجل الذي كان يهواه إلى غريب.

كان بابا الصاحي منحني الكتفين ثرثارًا، يحبّ أن ينفق وقته رفقةَ أولاده الثلاثة: طارق وخليل وآدم. وكان معتادًا أن يصطحب أحدهم حيثما ذهب، حبًّا واعتزازًا. وكان الغلام المحظوظ يرافق والده لرؤية أصدقائه أو التنزّه على امتداد شارع الاستقلال، وأحيانًا إلى موقع عمله، وهو مرأب على مقربة من ساحة «تقسيم» حيث يشتغل رئيسَ عمّال. وكانت السيّارات الفخمة ذات الأسماء

المعقّدة تدخل المرأب إمّا للتصليح أو لتبديل أدوات احتياطيّة: «شيڤروليه بيل إير» أو «بويك رودماستر» أو «كاديلاك فليت وود» أو «مرسيدس بنز» الحديثة. ولم يكن في مقدور أيّ شخص شراء مثل هذه السيّارات، إذْ كان مالكوها في معظم الأحيان من السياسيّين أو رجال الأعمال أو أصحاب الكازينوهات أو لاعبي كرة القدم، وكانت جدران المرأب مزيّنة بصور مؤطّرة للعمّال وقد وقفوا بجانب زبائنهم من ذوي النفوذ.

كان آدم يرافق بابا إلى مقهى الحيّ حيث ينفقان وقت النهار يرشفان من شراب السحلب أو الزيزفون أو الشاي ويراقبان الرجال من مختلف الأعمار وهم يلعبون لعبة النرد أو الداما. وكانت السياسة موضوعًا ساخنًا، هي وكرة القدم وغيرهما من الموضوعات في صحف الإثارة. وباقتراب موعد الانتخابات العامّة، تسود المكان جدالات ونقاشات حامية، حتى إنّ رئيس الوزراء ـ وهو أوّل زعيم يُنتخب انتخابًا ديموقراطيًّا في تاريخ البلاد ـ زعم أنّ حزبه الديموقراطي سوف يفوز فوزًا ساحقًا في الانتخابات، ولكن لم يستطع أحد أن يخمّن أنّه سوف ينتخب من جديد لولاية ثانية وأنّه سيشنق على أيدي طغمة عسكريّة.

في أوقات ما بعد الظهيرة الباعثة على فتور الهمّة، كان آدم يقلّد بابا (بابا الصاحي) ويتلمّظ بطعم مكّعب من السكّر ممسكًا بقدح الشاي بأصابعه الصغيرة، رافعًا إيّاه إلى أعلى. ثمّة دخان كثيف من حولهما، حتى إنّ شعره كانت تفوح منه رائحة الدخان عند عودتهما إلى البيت وكأنّه منفضة سكائر، وكانت أمّه عائشة المقطّبة جبينها قليلاً تهرع به إلى الحمّام، ولكنّه كان يتمنّى ألّا

تفعل ذلك، لأنّ رائحة الدخان في شعره تجعله يشعر بالرجولة. ولمّا اعترف بهذا إلى أبيه ذات مرّة، ضحك بابا وقال:

ـ ثمّة شيئان في هذا العالم يُخرجان الرجل من مرحلة الصبا، وهما حبّه لامرأة وكرهه لرجل ثانٍ.

وأوضح بابا (الصاحي) أنّ أولئك الذين لا يعرفون إلّا الشيء الأوّل يصبحون رجالاً ضعافًا، أمّا الذين لا يعرفون إلّا الأمر الثاني فيزدادون صلابة كالصخر، ولكنّ الذين يجرّبون كلا الأمرين يصبحون مثل سيف من الفولاذ. وكما يعرف الحِرَفِيّون الماهرون جيّدًا، فإنّ أفضل طريقة لزيادة صلابة المعدن تتمثّل في طرقه في النار وتبريده في الماء.

ـ وهكذا الأمر بخصوص الرجل. عليكَ أوّلاً أن تدفعه إلى أن يحبّ حبًّا عنيفًا ثم تركه يبرد ليكره.

هكذا خلص بابا إلى القول بعد أن توقّف، كي يفهم ابنه الدرس، لكن آدم انتابه قلق لأنّه لم تكن لديه يومًا ما مثل هذه العواطف الجيّاشة، ولكنّه احتفظ بهذا القلق في نفسه.

في ذلك العام، جاءت آدمَ أوّلُ نوبة من نوبات الربو الذي قُدّر له أن يختفي في سنوات مراهقته من دون أن يغادر جسده وظلّ يطارده طوال حياته.

كان بابا (الصاحي) يأتي إلى البيت حاملاً بين وقت وآخر فضلات من الجُزُر، كقطع من اللحم والعظام والأحشاء، وفي مثل هذه الحالات، يستعير سيّارة مديره، وهي شاحنة صغيرة، ويصطحب أسرته إلى نزهة لتناول اللحم المشوي. وكان آدم وشقيقاه يجلسون في الجزء الخلفي من الشاحنة ويتفاخرون بعدد

النقانق أو الكوارع التي يأكلونها في جلسة واحدة. أمّا بابا، فكان يجلس في المقعد الأمامي وإلى جانبه زوجته ويطلق النكات، وإن كان رائق المزاج تراه يفتح النافذة ويغنّي، وكانت الأغاني حزينة تجعل الدمع يترقرق في العيون، ولكنّه كان يغنّيها غناء يسحر السامع. كانت الشاحنة محمّلة بالقدور والمقالي والأقمشة الكتّانيّة، أمّا قلوبهم فمرحة وسعيدة وهم في طريقهم إلى التلال المطلّة على البوسفور، وإن كانوا قد انزعجوا لأنّ ثمّة مقبرة في الجوار. على أيّة حال، لم تكن في يدهم حيلة، فقد كان الأموات في إسطنبول يرقدون منذ زمن غابر في أكثر المناطق خضرة والتي تطلّ على أجمل مناظر المدينة.

ولدى وصولهم إلى تلك البقعة، كان الأولاد يبدأون بالبحث عن مكان ظليل مناسب. وكانت أمّهم تدعو قبل الجلوس لأرواح الموتى وتستأذنهم لقضاء بعض الوقت على الأرض. ولحسن الحظّ، كان الموتى يجيبون بالإيجاب على الدوام. وبعد بضع ثوان من الانتظار، تومئ عائشة برأسها وتفرش الحُصُر كي يجلس عليها الحاضرون، وتعمد على أثر ذلك إلى إشعال الموقد وتهيّئ كلّ شيء لإعداد الطعام. وفي هذه الأثناء كان الأولاد يلعبون بمرح ويدمّرون مستعمرات النمل ويطاردون الصراصير ويؤدّون دور الموتى المبعوثين إلى الحياة، وفي اللحظات التي تنتشر فيها رائحة لحم البقر المشوي، يصفّق بابا بيديه موضحًا أنّ الوقت حان لفتح زجاجة شراب العرق المُسْكِر.

كان أحيانًا يبدأ في بطء، ولكنّه يزداد في سرعته رويدًا رويدًا، وفي أحيان أخرى يبدأ في عجالة من أمره، فيحتسي ثلاثة كؤوس

من الشراب في مدّة من الزمان لا يشرب أثناءها في الأوقات الاعتياديّة أكثر من كأس واحدة. ولكنّه كان يصبح بشكل أو بآخر مسطولاً من شدّة السكر بعيد الغداء مباشرة.

وما أن يفرغ بابا من احتساء زجاجته الأولى حتى يُظهر ما يشير إلى الهذيان، فيبدأ بالعبوس غالبًا ويشتم نفسه ويعنّف الأولاد بين حين وآخر على أشياء تافهة لا يتذكّرها أحد بعد مرور بعض الوقت، ويثير أعصابَه أيُّ شيء: فهذا الطعام مالح، وهذا الخبز بائت لا طعم له، والثلج ليس باردًا كفاية... ثم تراه يفتح زجاجة ثانية من المشروب لتهدئة أعصابه.

وعندما شارفت إحدى النزهات على نهايتها، وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب، والنوارس تزعق وتصيح، بدا الزمن وكأنّه قد توقّف، وانتشر في الجوّ عبق نباتات اليانسون، فأضاف بابا مقدارًا قليلاً من الماء إلى مشروبه وراقب السائل الشفّاف يتحوّل إلى لون حليبي، ضبابي مثل أفكاره. وبعد برهة وجيزة، نهض على قدميه مرتبكًا، صارم النظرات، رافعًا ذقنه إلى أعلى وأشار بيده علامة على نخب المقبرة وقال:

ـ أنتم محظوظون أيّها الناس، فأنتم لا تدفعون أيّ إيجار، ولا تشترون الوقود للسيّارة، ولا تملكون أفواهًا لإطعامها، ولا زوجة تنغّص عليكم حياتكم، ولا رئيسًا يقرأ عليكم قانون المظاهرات. أنتم لا تعرفون أنّكم محظوظون جدًّا.

أصغت القبور إليه، وهبّت ريح خفيفة بعثرت الأوراق اليابسة إلى الأمام وإلى الخلف.

وأعلن بابا:

ـ خلقنا من تراب، وإلى التراب مرجعنا.

وفي طريق العودة إلى البيت، أصرَّ على أن يجلس الأولاد في المقدّمة معهما. وعلى الرّغم من حذرهم الشديد، وكبتهم أنفاسهم، وانتباههم إلى كلّ كلمة يتفوّهون بها، كانت أشياء دائمة الحدوث تدفع والدهم إلى الهيجان: الحفر المنتشرة على الطريق، وعدم وجود علامة دالّة من علامات الطرق، كلب سائب يهرول من أمام الشاحنة، والأخبار التي يذيعها المذياع... يبدو أنّ هذا الرجل الجديد خروتشوف لا يعرف ما الذي يفعله، ولا بدّ أنّ الفودكا شوّشت عقله. الفودكا، المشروب المنحطّ الذي لا يساوي شيئًا أمام العرق. وكان ناصر يتوقّع من العرب أكثر ممّا ينبغي، العرب الذين يتكلّمون اللغة نفسها ولكن لا أحد منهم يستمع إلى الآخر. ثم ما السبب الذي دفع شاه إيران إلى أن يطلّق زوجته الثانية التي لم تستطع أن تنجب له وريثًا للعرش؟

ـ يا لها من فوضى! يا له من عالم حقير!

سبَّ بابا (السكّير) وشتم البلديّة ومديرها والسياسيّين، وصبَّ جامَّ غضبه لبضع دقائق سعيدة على العالم الخارجي، متجنّبًا بذلك أسرته.

وكان المألوف بيننا أن يلجأ أحد الركّاب في الشاحنة إلى قول أو فعل ما يثير حفيظته وانزعاجه، فكان أحد الأولاد يتلوّى، أو يتجشّأ، أو يشهق، أو يُخرج ريحًا أو يقهقه ضاحكًا.

وفي هذا اليوم توسّلت إليه عائشة أن يقود السيّارة في بطء أشدّ. فما كان منه إلّا أن استفسر منها بنبرة هادئة لم تناسب حدّة السؤال:

ـ عجبًا! ماذا حلّ بكِ؟ ألا يمكنني أن أحظى بلحظة سلام واحدة. هه! أتريدنني أن أنفجر؟ أهذا ما تبغين؟

لم يجب أحد. وحدّق الأولاد إلى ركبهم الوسخة أو إلى ذبابة دخلت السيّارة من النافذة ولم يعد في وسعها الخروج الآن.

فرفع بابا صوته:

ـ إنّني أبذل قصارى جهدي في العمل كلَّ يوم، كالحمار، كي تتمكّنوا جميعكم من تناول الطعام. هل أنا حمار هذه الأسرة؟

فقال أحدهم: أستغفر الله. فكان قوله محاولة عقيمة لإرضائه في ضوء ما سيحدث لاحقًا.

ثم رفع يديه عن مقود الشاحنة ليريهم رسغيه النحيلين الشاحبين:

ـ أنتم مصّاصو دماء. كلّكم تمتصّون دمي. هل في جسدي بقيّة من دم كي أسقيكم إيّاه؟ هل أبقيتم شيئًا لي؟

وهمست زوجته:

ـ أرجوك، أمسك بمقود الشاحنة.

ـ اخرسي! لن أتعلّم منك كيف أقود الشاحنة.

لم يستطع آدم سوى الإحساس بالشفقة على بابا، الذي كان على ما يبدو ضحيّة، ومعذّبًا، وكان الإثم ينهشه نهشًا. لقد فعلوها من جديد، لقد أزعجوه على الرّغم من أنّه حذّرهم مرّات ومرّات. أمّا كيف أراد آدم أن يصالح أبيه، فإنّه فكّر في أن يقبّل يده ويعده ألّا يمتصّ دمه مرّة أخرى.

ـ هل أخبركِ كيف تطبخين العدس؟ لا، على وجه التوكيد،

لأنّ تلك ليست وظيفتي، مثلما أنّ قيادة السيّارة ليست مهنتَكِ، أيّتها المرأة. ماذا تعرفين عن السيّارات؟

وفي وقت آخر، ضغط على المكابح في قوّة دفعت الشاحنة إلى أن تدور من حولها كأنّها فوق جليد، وانزلقت نحو منبت زهور متفادية السقوط في ترعة ماء على بعد بضع ياردات. فتح آدم عينيه ليجد سكونًا لم يعرفه من قبل... يا له من سكون تامّ خيّم على المكان على أثر الحادث. ولاحظ أوّلَ مرّة همس الريح وشعاع الضوء في الهواء. كان شقيقه طارق يرفع ذراعه إلى أعلى وقد لاح الألم على وجهه وتلوّت شفتاه، وكانتا توشكان أن تُصدِرا آهة ولكنّها لم تخرج من فمه قطّ. وفتح بابا باب السيّارة في بطء وخرج منها شفته العليا تنزف دمًا. دار من حول السيّارة وفتح باب زوجته.

ـ اخرجي!

قالت عائشة ووجهها شاحب كشحوب الموتى:

ـ آه، أرجوك.

ـ قلت لك اخرجي!

أمسك بابا بذراعها وجذبها في متّجه مقدّمة الشاحنة التي انفتح بابها إلى أعلى عندما توقفت. وقال:

ـ ما دمت تعرفين الشيء الكثير عن السيّارات، عليك إصلاح هذه.

لم تتحرّك أيّ عضلة من عضلات وجهها، فما كان من بابا إلّا أن دفع رأسها إلى حيث المحرّك، ولم يتوقّف إلّا عندما ارتطم رأسها به ارتطامًا قويًّا محدثًا صوتًا عاليًا.

ـ ماذا؟ ألا يمكنك إصلاحها؟

غمغمت، ولكنّ الكلمات اختنقت في حلْقها فلم يستطع آدم أو أخواه فَهْمَ ما كانت تقوله، ولكنّهم سمعوا كلّهم بابا وهو يعلن:

ـ إذًا اخرسي ولا تحاولي تعليمي القيادة.

اشترك الكلّ في دفع الشاحنة لإخراجها من منبت الزهور: الولدان وبابا، وراقب طارق المشهد من دون أن ينبس بكلمة، متشبّثًا بذراعه المكسورة، أمّا والدتهم، فقد كانت تنتظر عند الحافّة باكية. الشيء نفسه يحدث في كلّ مرّة، فكلّ نزهة تبدأ بآمال كبيرة لكنّها تنتهي ببكاء أحدهم أو انكسار خاطره.

وكان آدم يذكِّر نفسه ليلاً أنّ بابا الآخر هو الذي كان يرغي ويزبد، مثلما أنّه هو الذي انحرف بعجلة القيادة وضرب الجدران والطاولات والأبواب وخزانة الآنيّة الخزفيّة، وإذا لم يفد كلّ ذلك، فإنّه يضربهم بحزامه، وفي إحدى المرّات رفس زوجته بين فخذيها فتدحرجت من فوق السلالم وهوت إلى الأرض، وكان ذلك يذكّرهم أجمعين بأنّه ليس الرجل نفسه. ولم يخفِّف هذا من غلواء الألم أو الخوف، بل سهّل عليهم الرجوع في صباح اليوم التالي إلى بابا الحنون (الصاحي).

* * *

ذرّة من الحقيقة

لندن، كانون الأوّل ١٩٧٧

ثمّة حجرة للفنّانين من وراء الكواليس، ولكن لم يكن كلّ واحد ليطلق عليها اسم «حجرة الفنّانين» سوى روكسانا، فهي وحدها التي كان يروقها التفكير بتلك الغرفة الباردة الضيّقة المستخدَمة لتبديل الثياب والتي تفوح منها روائح السكائر ومسحوق الطلق المعطّر والعطور والعرق، على أنّها غرفة مخصّصة لاستراحة الفنّانين قبل صعودهم على خشبة المسرح. ولم يعن ذلك أنّها كانت تفكّر في نفسها بوصفها فنّانة، لأنّها لم تكن فنّانة أصلاً، وإذا ما اقتضت الحال، فإنّها تستخدم كلمات أخرى لوصف وظيفتها: ممثّلة، راقصة باليه، ساحرة، أو راقصة دخيلة.

الوقت قرابة منتصف الليل الآن، وفي أقلّ من خمس عشرة دقيقة سوف يحين دورها للظهور على خشبة المسرح. وبينما كانت تلقي نظرة فاحصة على ثيابها، رشّت قدرًا من البهارج الفضّيّة اللون

على صدرها، وارتدت ثياب راقصة من راقصات السامبا للفصل الأوّل وزيّنت رأسها بعمامة ذات ريش أرجواني برّاق وصدريّة مزركشة بماس زائف ونثار معدني، وارتدت بنطالاً فضّيًّا لامعًا ومن تحته سروال صغير لا يكاد يستر شيئًا منها، يفترض بها أن تكشف عنه عند نهاية العرض. وفتحت بيسر وسهولة علبة مساحيق التجميل ورتّبت أدواتها وفرشها المختلفة الأحجام. كانت علبة قديمة ومستهلكة سبق أن استعملتها أعداد لا حصر لها من النساء. وتحوّلت إسفنجة إلى ما يشبه قطعة فطر غير صحّيّة، بينما كست فرشاة المسكارا طبقة سميكة وقاسية، في حين فقدت بعض الألوان خصائصها اللونيّة من فوق لوحة الألوان التي باتت فراغاتها تحدّق إليها مثل عيون غائرة في محاجرها. وعلى سبيل المثال، لم يعد ثمّة لون لازوردي أو بلاتيني ولا حتى شامبانياوي، وهي الألوان المفضّلة عند روكسانا، ولهذا لجأت إلى اللون البنفسجي مرّة أخرى.

ولمّا فرغت من وجهها، وضعت أحمر شفاه بلون الدرّاق، وأخيرًا رفعت نهديها إلى أعلى ورتّبت من شأنهما كي يبدوا أكبر حجمًا وأكثر اكتنازًا من داخل الصدريّة المخرّمة. في إنكلترا لا يسمّون النهود نهودًا، بل يطلقون عليها أسماء مضحكة بالعامِّيّة الإنكليزيّة.

وفي مرّة من المرّات، رقصت خصّيصًا أمام عجوز كان عضوًا محافظًا من أعضاء البرلمان البريطاني، وبدا وكأنّه تاجر من تجّار

الفرو، وقيل وقتئذٍ إنّه قال لها: هزي مفاتنك من أجلي يا حبيبتي، غير أنّها لم تفهم إلّا بعد بضع ثوان أيَّ الأجزاء من جسدها كان يريد منها أن تهزّها له.

تحسّنت لغتها الإنكليزيّة تحسّنًا مدهشًا بمرور السنين، على الرّغم من أنّ لكنتها كانت لا تزال قويّة، وكانت أحيانًا تشدّد لفظ صوت حرف «الراء» عمدًا، وتمدّ صوت الحرف «يو»، وتستخدم صوت حرف «في» بدلاً من «دبليو». ولمّا لم تكن قادرة على التخلّص من نبرتها، فقد تعمّدت جَعْلَها نبرة أقوى وأشدّ، على النحو الذي يتوقّعها كلّ فرد في إنكلترا من أحد أبناء روسيا أثناء الكلام بالإنكليزيّة، ولهذا أخبرت روكسانا كلّ شخص التقت به أوّل مرّة أنّها من روسيا.

الحقّ أنّها كانت من بلغاريا، ولكنّ الأهالي في إنكلترا، وحتى في العاصمة لندن، حيث يسمع المرء عديد اللغات واللهجات في الشوارع، لم يعرفوا الشيء الكثير عن بلدها، فقد كانت البلقان أحجية من الأحاجي تتألّف من مختلف الأجناس، كلّ جنس لا يعرفه الجنس الآخر ويجده متوتّرًا. ولو قالت روكسانا إنّها من بلغاريا لعمد الناس إلى الإيماء برؤوسهم مكتفين، من دون أن يطرحوا أيّة أسئلة أخرى، ولكن كلّما أشارت إلى أنها ولدت في روسيا وترعرعت فيها، تجدهم يواجهونها بوابل من الأسئلة، فإذا كان المرء ينتمي إلى بلاد الثلوج والفودكا والكافيار، ويا للغرابة إلى بلاد جواسيس المخابرات الروسيّة «كي. جي. بي.»، فهو أمر

مثير ورومانسي إلى حدٍّ ما.

وكان الناس يحذّرون قائلين على الدوام: «الفتيات اللواتي ينظرن إلى أعلى ينتهي المطاف بهنّ دومًا إلى السقوط إلى ما هو أدنى». ولكن حتى لو كان ذلك صحيحًا، وحتى لو تعثّرت في نهاية المطاف، وحتى لو قُدِّر لحلمها أن يكون أقصر من أنفاس فراشة، فإنّها سوف تعتمد على شيء ما لبذل المحاولة. صحيح، كانت روكسانا نسيج ذاتها، وعثرت لنفسها على اسم روكسانا (أو روكساني أو روكسي، وهو ما يردّده الرجال) وعلى جنسيّة وماضٍ ومستقبل وقصّة ترويها. إنّ الحقيقة، حقيقتها، ليست متوارية من تحت طبقات وطبقات مثل سترة سيّدة من العصر الڤيكتوري، بل كانت تتألّف من مجموع الفبركات التي وصلت بها إلى هذا المكان: فتاة من إحدى بلدات بلغاريا الغافية تتظاهر بأنّها روسيّة وترقص رقصة السامبا البرازيليّة في نادٍ من نوادي التعرّي في قلب لندن.

* * *

من وراء الكواليس، وخلف الستائر الحمر المائلة إلى الأرجواني، والتي لم تغسَل منذ عصور طويلة، هذا إن كانت قد غُسلت أصلاً، وقفت روكسانا الآن على أهبّة الاستعداد. تلصّصت فرأت النادي محتشدًا بالناس. ليلة مزدحمة أخرى: الزبائن الدائميّون، بعض الزبائن الجدد، العزّاب، الذين يوشكون على الزواج، الذين انفصلوا عن أزواجهم بالطلاق والأزواج منذ زمن بعيد، من ذوي البشرة السوداء والسمراء والبيضاء، كبارًا وصغارًا، ولكن... كان معظمهم في خريف العمر.

ثم لمحته عند المَشْرَب يحتسي شراب الصودا في بطء. التركي ذو الشعر الأسود المكتئبُ الملامح على الدوام، الذي يبدو متوجّسًا مثلما يبدو العثّ في سترة صوفيّة. كانت قد شاهدته أوّل مرّة في وكر المقامرة حيث كان قد دعاها إلى هناك أحد المالكين الصينيّين، وهناك عرفت باسمه: آدم. شاهدته يربح مالاً وفيرًا في لعبة الروليت، وأدركت أنّ من شأن أيّ رجل آخر أن يخرج من ورائه ويسلبه كلّ ماله، ولكنّه عاد في اليوم المقبل وقامر على مالٍ أكبر وخسر كلّ شيء. جانبٌ منها احتقره لغبائه ولكنّ الجانب الآخر أُعجب بتهوّره.

ومنذ ذلك اليوم، واظب على مشاهدة كلّ عرض من عروضها، وفي كلّ مرّة كان يدعوها لتناول الشراب من بعد العرض. كان موسوسًا، مدقّقًا في كلّ التفاصيل، سائلاً إيّاها عن ماضيها، متوقّعًا أن يسمع منها أشدّ الاعترافات المورثة للكآبة، غير أنّ الحقيقة الوحيدة التي تركت لسانها يزلّ بها هي عن عادة والدها في تعاطي الخمرة.

وقال آدم:

ـ حقًّا؟ إذًا عجوزك مثل أبي تمامًا. هه! لقد مات بسبب تضخّم الكبد.

وهنا جفلت وكأنّها تعثّرت بعقبة غير مرئيّة أمامها. لم تكن راغبة في أن تسمع قصّة هذا الرجل الحزينة، بل لم ترغب في أن تسمع أيّ قصّة حزينة لأيّ رجل، وكانت بغيتها الوحيدة فبركة قصصها الخاصّة بها، مطمئنة إلى أنّ تلك القصص لم تكن حقيقيّة أبدًا.

سوف تُعْرِض عنه وتعامله ببرود وجفاء وتخبره أن يبتعد عنها. ربّما سيجرح هذا الكلام مشاعره، ولكن هذا أفضل حلّ له... ولأسرته. ربّما سوف يُخلص لزوجته ويكون وفيًّا لها وإن كانت ترتاب في ذلك.

فما أن يرتاد أمثاله من الرجال هذا المكان ويتخيّلوا المغامرات الرومانسيّة التي حرمتهم منها الحياة، حتى يهجروا بيوتهم ولا يعودوا إليها إلّا بعد أن يكونوا قد عاشوا تجربة كارثيّة لا تنسى.

* * *

قسم عظيم

لندن، تشرين الأوّل ١٩٧٧

كان يونس الولد الوحيد من أولاد طبرق الذي ولد في إنكلترا. إنكليزيّته طليقة، تركيّته متعثّرة وكرديّته صفر، شعره مائل إلى الحمرة، ملتفّ في نهاياته، وجنتاه مكسوّتان بقليل من النمش وأذناه بارزتان إلى الجانبين، ممّا أضفى عليه مسحة صبيانيّة. رأسه لا يتناسب وحجمَ بدنه، فضلاً على أنّه كبير قياسًا إلى سنّه، وذلك بسبب انشغاله في التفكير أكثر ممّا ينبغي، على حدّ زعم والدته. أمّا لون عينيه، فيتغيّر من خضرة الطحالب إلى خضرة الآس، وفْقَ لون الثياب التي يرتديها أو حسب مزاجه. وقد سُمّي على اسم النبي يونس، الذي عرف أنّ قدَره أن يخبر قومه بطريق الحقّ الذي لم يكونوا على استعداد لسماعه، فانطلق إلى التلال مؤمّلاً التنصّل من المهمّة التي أوكله الله بها، وهو أيضًا الرجل الذي التقمه الحوت في نهاية الأمر واضطرّ إلى تحمّل البقاء في جوفه ثلاثة أيّام

مظلمة وثلاث ليالٍ حالكة، وحيدًا ونادمًا[1].

كان يونس ابن الأعوام السبعة يستمع إلى هذه القصّة مشرقَ الوجه، من حبّ استطلاعه وهو يتخيّل بطن الحوت مظلمةً وعميقة ورطبة. ثمّة سبب آخر يكمن وراء اهتمامه بهذا العذاب، وهو أنّ يونس كانت لديه نزعةٌ تُشابِه نزعة النبي يونس، وهي أن يطلق ساقيه للريح: فلمّا لم تعجبه المدرسة هرب منها، وعندما لم يعجبه المنزل هرب من أسرته، وإذا ساوره أدنى إحساس بالسأم ينهض واقفًا على قدميه على أهبّة الاستعداد للهروب من جديد. وعلى الرّغم من الجهود الحثيثة التي كانت بمبي تبذلها، إلّا أنّه كان ينفق وقتًا طويلاً خارج المنزل، قاهرًا الشوارع الفرعيّة والأزقّة الخلفيّة في حيّ هاكني، إلى حدٍّ يؤهّله لأن يرشد سائقي سيّارات الأجرة إلى الطريق.

وقالت بمبي إنّها لا تستطيع أن تفهم مدى اختلاف أبنائها بعضهم عن بعض، ولا مدى اختلاف يونس، فهو المنطوي على نفسه، الفيلسوف، الحالم، الناسك الذي يحيا في كهف متخيَّل من

---

(١) ثمّة اختلافات في هذه الرواية عن نصّ قصّة سيّدنا يونس عليه السلام التي وردت في الكتب المقدّسة، ومنها القرآن الكريم. فمن جهة أولى، لم يذهب النبي يونس إلى التلال وإنّما ركب سفينة في البحر بعد أن ترك قومه غاضبًا لأنّهم كذّبوه فلّما لجّت بهم السفينة واضطربت وثقلت بمن فيها تشاوروا على أن يقترعوا، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخفّفوا منه. فلّما اقترعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس وكرّروا القرعة ثانية وثالثة فوقعت عليه أيضًا. ولمّا أُلقي في البحر بعث الله عزّ وجلّ حوتًا عظيمًا فالتقمه. واختلف المفسّرون في مدّة بقائه في جوف الحوت فقال مجالد عن الشعبي: التقمه ضحى ولفظه عشيّة، وقال قتادة: مكث فيه ثلاثًا، وقال جعفر الصادق سبعة أيّام، وقال سعيد بن أبي الحسن وأبو مالك: مكث في جوفه أربعين يومًا، والله أعلم كم مقدار ما لبث فيه. (المترجم).

صنعه، يجد في الأشياء الاعتياديّة قيمة لا تضاهى، والرفقةَ في الوحدة والجمال في كلّ حدب وصوب. وفيما كان إسكندر وأسماء يكرهان الناس وحظوظهم السعيدة، وكانا يتشاجران، كلّ واحد على طريقته الخاصّة، بسبب ظروفهما، فإنّ يونس لم يمقت أحدًا، وكان ينتمي إلى نفسه وحدها. وعلى الرّغم من أنّ كلّ فرد من أفراد الأسرة كان يشعر أنّه غريب، وإن اختلفت الأسباب، بدا يونس أكثرهم اطمئنانًا وارتياحًا، وعندما كان يخلو إلى نفسه، فإنّ إحساسه بالكمال كان يبلغ درجة رفيعة لا تضطرّه إلى ما يعكّر صفوه، وكان في وسعه أن يعيش في بطن حوت من دون أن يتأثّر قيد شعرة.

واعتقدت بمبي أنّه وصل إلى هذه الحالة لأنّه لم يبق طويلاً في رحمها ولم يرضع طويلاً من حليبها، فقد كان يونس الوحيد من بين كلّ أطفالها الذي ولد قبل أوانه، ولمّا رفض الرضاعة من ثدييها اضطرّوا إلى إعطائه حليب الأطفال، وكانت تتذمّر قائلة: «هل رأيتم النتيجة؟ لقد بات بعيدًا يصعب الوصول إليه».

وفي حين كان إسكندر يتوق إلى السيطرة على العالم وتريد أسماء تغييره مرّة واحدة وإلى الأبد، كان يونس يريد أن يفهمه. هذا كلّ ما هنالك.

* * *

في وقت مبكر من خريف العام ١٩٧٧، كان يونس أوّل من لاحظ أنّ أمّه تعاني شيئًا ما، إذْ بدت متحفّظة وغارقة في التفكير. ونسيت بضع مرّات أن تناوله مصروف الجيب، فضلاً على أنّها أطعمته قليلاً ولم تضع في فمه ما يكفي من الطعام، ممّا دفع يونس

إلى التفكير في أنّ أمّه لم تكن على ما يرام، فبمبي لم تنسَ قطّ يومًا أن تطعمه، ولو كان صباحُ يوم القيامة لتأكّدت من ذهابه إلى النعيم شبعان.

ولكن يونس لم يعترض، بل كان قلقًا على غيره من الأشخاص، فهو عثر لنفسه على طريقة للحصول على مصروف الجيب، وكان دائمًا مصروفًا أكبر ممّا كانت تنقده إيّاه بمبي.

ثمّة منزل في شارع مولان على بعد بضعة شوارع شمال غربي مدرسته. كان مبنًى كبيرًا يعود إلى العصر الڤيكتوري، وحيدًا وموحشًا ومهجورًا، تسكنه الأشباح، وفقَ مزاعم سكّان المنطقة. وكان سقف المنزل منحدرًا ويحتوي على رواق منحن عند الجانبين ونوافذ مقوّسة ومدبّبة. وقد اكتشف يونس هذا المنزل في إحدى جولاته الاستطلاعيّة في الحيّ. ثمّة مجموعة من الشبّان يحتلّونه: من الفوضويّين، والبانك، والعدميّين، والمسالمين، والساقطين اجتماعيًّا، والمنحرفين ممّن يؤمنون بآراء شتّى، وعدد كبير ممّن ليس لهم انتماء محدّد... كانوا طائفة من ألوان مختلفة، معظمهم يرتدي ثيابًا بتدرّجات الأسود والأحمر.

ولم يعرف أحد من أفراد أسرة طبرق كيف تعرّف يونس أوّل مرّة إليهم، ولكنّ الشبّان أحبّوه، وراقهم ذلك الفتى الصغير والعاقل، فكانوا يرسلونه في بعض حاجاتهم إذا ما شعروا بالإرهاق أو حتى إن لم تكن لديهم رغبة في ترك مكانهم: خبز وجبنة وحليب ولحم وشوكولا وعلب التبغ... كان يونس قد تعلّم من أين يحصل على هذه الأشياء بأفضل سعر.

وكانوا يطلبون منه في بعض الأحيان أن يأتيهم بزجاجات

الخمرة من رجل آسيوي صارم الملامح يقطن في مبنًى مضاء إضاءةً سيّئة على بعد مسافة عشر دقائق يقطعها بالدرّاجة الهوائيّة، كانت تلك المهمّة مبعثَ خوفه: ما كان الرجل ينفحه إكراميّة، ولم يطرح عليه أيّ سؤال، وثمّة رائحة نتنة في مسكنه تشي بالعفونة والمرض، وكان المنزل نتنًا أيضًا، بل كان أسوأ. ولكن على الرّغم من ذلك، كانت ثمّة روائح أخرى من تحت الرائحة التي تزكم الأنوف وتلفّ كلّ واحد وكلّ شيء: وهي روائح الزهور والتوابل والأوراق ـ حياة في مرحلة تحوّل.

في داخل المنزل المهجور ثمّة سلالم خشبيّة تلتفّ صعودًا إلى الطبقة الثالثة، شديدة الانحدار، متعفّنة، تهتزّ في كلّ مرّة يرتقيها شخص ما أو يهبط من عليها. أمّا الجدران الداخليّة للطبقتين الأرضيّة والأولى فقد هدمت، واستخدمت المساحة الواسعة لتكون غرف نوم، وحُوّلت مغاطس الحمّامات بدورها إلى أسرّة نوم. أمّا الطبقة الثانية فتدعى الأغورا، وهي الساحة العامّة في المدن الإغريقيّة، وكان ساكنو المنزل يجتمعون فيها اجتماع قدامى الإغريق في دويلات المدن للنقاش والتصويت على القرارات والمصادقة عليها.

وكان معظم الأثاث في المنزل يستخدم حصرًا في الأغورا: مصابيح متروكة من حملات البضائع القديمة، وكراسٍ، وكراسي طعام ـ لا يوجد كرسيّان متشابهان، وأرائك ظهرت عليها حروق السكائر... وثمّة سجّادة شرقيّة قرمزيّة مزركشة أيضًا، لا أحد يعرف مصدرها، وأشياء رثّة منتشرة هنا وهناك لعلّها أفضل موجودات المنزل. كما تنتشر في أرجاء المنزل أكداس الكتب

والمجلّات وخليط من أكواب القهوة وأقداح الخمرة والبسكويت الذي فقد طعمه لقدمه، وآلات الهارمونيكا وجهاز تسجيل عاطل لم يحاول أحد إصلاحه. . . كلّ شيء مِلْكٌ مَشاع، ولا شيء تعود ملكيّته إلى أحد تحديدًا.

وكان عدد الساكنين في المنزل يتغيّر من أسبوع لآخر، وهو ما اكتشفه يونس في زيارته الثانية عندما التقى وجوهًا جديدة وعرف أنّ بعض الذين التقاهم في البداية قد انتقلوا إلى مكان آخر.

وأوضح أحد الرجال وهو يبتسم ابتسامة عريضة تكشف عن مدى ثمالته:

ـ إنّه أشبه ببيت عائم. هذه هي سفينتنا ونحن نبحر على متنها نحو المجهول، وعلى امتداد الرحلة يترجّل منها بعض المسافرين فيما يستقلّها آخرون.

كان شعر رأس الرجل مصبوغًا بلون الأصفر الكناريّ، مُسنبلاً في أشكال تشبه ألسنة اللهب، وبدا شعره وكأنّه يحترق.

وقالت امرأة إرلنديّة شابّة ذات عينين لوزيّتين وشعر فاحم وابتسامة مشرقة:

ـ نعم، إنّه فُلْك.

ثم التفتت لتواجه الصبي وتعرّفه إلى نفسها:

ـ مرحبًا بك، أنا. . .

لكن يونس لم يسمع اسمها. لم يسمعه لحظتئذٍ ولا بعدئذٍ، فقد كان منشغلاً في التحديق إلى الحلقة التي تزيّن شفتها وإلى حاجبيها المثقوبين والوشم الذي يغطّي ذراعيها وكتفيها والجزءَ

العُلْوي من صدرها. ولمّا تنبهت إلى الدهشة التي استبدّت به، طلبت منه أن يقترب منها أكثر وأظهرت له كلّ وشم بارز من جسدها، وكأنّها هاوية من هواة جمع اللوحات الفنّيّة تعرض مجموعة من اللوحات على ضيوف في حفلة:

ثمّة وشم يمثّل راميًا، لأنّها من برج القوس، ولمّا لم تكن راغبة في أن يشعر الرامي بالوحدة والشقاء، فقد وضعت ملاكًا وإلى جانبه قيثارة ذهبيّة. وتدلّت من قفا عنقها وحتى كتفيها زهرة لوتس عظيمة، بيضاء وزرقاء ضاربة إلى الخضرة، في حين تدلّت جذورها إلى أسفل ظهرها. وعلى ذراعها اليمنى ثمّة زهرة ورديّة اللون متفتّحة ومن تحتها كلمة «توبيكو».

ـ ما معنى هذه الكلمة؟

فردّت تهزّ كتفيها:

ـ آه، إنّها حكاية طويلة.

ـ تقول أختي إنّ الحكاية الطويلة لا وجود لها، بل ثمّة حكايات قصيرة لا أكثر وحكايات لا نريد أن نقصّها.

ـ آه، تلك وقاحة. وماذا تعمل شقيقتك؟

ـ سوف تصبح كاتبة، وستؤلّف روايات لا يعشق فيها أحد الآخر، لأنّ الحبّ للمجانين.

وضحكت الفتاة، ثم حكت له قصّة وشمها: ففي يوم من الأيّام نُقش على رسغها الاسم «توبي»، وهو اسم صديقها، وكان يعمل في الموسيقى، وكان مخمورًا على الدوام، ولكنّها أحبّته على الرّغم من كلّ ذلك. وفي أحد الأيام أخبرته أنّها حامل وإن لم تكن

حاملاً حقًّا، إذْ كانت تريد معرفة ردّ فعله لا أكثر، لأنّ الرجال يجنّ جنونهم إذا ما سمعوا مثل هذا النبأ. لا يمكنك أن تصدّق، إذ تبدّل الاثنان، وكان ردُّ فعل أرقِّ الاثنين فظًّا وقاسيًا، في حين انقلب الأكثر تحفّظًا إلى ما يشبه من يؤمن بالبوذيّة التأمّليّة تمامًا.

وسأل يونس:

ـ وكيف كان تصرّف صديقك؟

ـ جنّ جنونه. فقد عقله حقًّا.

كان ردّ فعل توبي هو الاستفسار إن كان الطفل طفله، وقال إنّه حتى لو كان الطفل طفله حقًّا، فإنّه مضطرّ إلى وضع حدٍّ لهذه المهزلة. وعندئذٍ تخلّصت من صديقها، وإن كانت تساورها رغبة شديدة في ألّا تفعل. إنّ إزالة وشم ليس بالأمر السهل، إذْ ستبقى آثار ندبة في مكان الوشم. هي لم تكن مناهِضة للندوب، فهي جزء من الحياة، ولكنّها لم ترغب في أن تكون ندبته عليها، ولهذا ذهبت إلى أحد فنّاني الوشم وطلبت منه أن يحوّل كلمة «توبي» إلى «توبيكو».

ـ رائع! وما معناها؟

فأوضحت له قائلة:

ـ آه، إنّها طبق ياباني، بيض سمك طيّار.

همس يونس كأنّه لا يريد أن يفسد السحر:

ـ بيض سمك طيّار.

وتخيّل أمام عينيه عشرات من السمك الطيّار تثب خارج الماء لتنزلق من بعد ذلك انزلاقًا رشيقًا في متّجه الشمس الغاربة. لقد

أُغرم يونس الفتى، الذي سُمّي على اسم النبي الذي نجا من بطن الحوت.

ومنذ ذلك الوقت بدأ يرتاد المنزل عندما تسنح له أوّل فرصة، فكانوا يدعونه للمكوث بين ظهرانيهم حتى وإن لم يكن لديهم أيُّ عمل يكلّفونه به، وكان يجلس بجانب توبيكو متعلّقًا بكل كلمة تتفوّه بها، وإن كان لا يستطيع متابعة الحديث إلّا نادرًا: البطالة، الوعي الزائف، حقوق العمّال، الهيمنة الثقافيّة... وتعلّمَ أنّ بقاء المرء خارج النظام الرأسمالي يجعل من المستحيل عليه إجراء أيّ تغيير حقيقي في داخله، ولكن إذا ما أصبح المرء جزءًا من ذلك النظام، فإنّه سوف يدمّر روحه. إذًا كيف يمكن تحويل شيء من الداخل مع البقاء منفصلاً عنه في الوقت نفسه أيّها الرفيق؟ فكّر يونس تفكيرًا مليًّا وهو يحتسي الشاي المدخَّن ويرشف في الوقت نفسه رشفة من النبيذ، ولكن مهما حلّق عاليًا وبعيدًا، فإنّه لم يستطع العثور على جواب.

وفي الليل، كان يونس يحلم بالمنزل المحتلّ وقد جرفه التيّار في البحر، الذي بدا بلون السماء، وحيث النوارس تحلّق عاليًا ثم تنقضّ. وكان يشاهد سكّان المنزل وهم يخوضون في المياه في صوت عالٍ، عراة، مثل حوريّات مرحة، وكانت توبيكو ترافقهم، واقفة على حافّة جرف، شعرها الأسود الطويل تتقاذفه الريح وهي تلوّح له، عبقة بريئة. وكان يونس يلوّح لها أيضًا ويشعر بالشمس تضرب وجهه، فيغوص عميقًا في زرقة البحر ويسبح حتى توجعه عضلاته.

وفي صباح اليوم التالي كان يستيقظ من نومه في فراش مبلّل.

لم يكن محتلّو المنزل يطبخون طعامًا باستمرار، باستثناء طبقهم المكسيكي المفضّل، وهو اللحم بالفلفل، لحم مثروم بالطماطم المعلّبة وأكياس الفاصوليا. وكان العشاء يتألّف من البسكويت والشوكولا والتفّاح والموز والفطائر التي توشك أن تنتهي مدّة صلاحيّتها من متجر الموادّ الغذائيّة. وإذا كان مزاج توبيكو رائقًا فإنّها سوف تعدّ قالب حلوى بما يتوفّر في المطبخ من موادّ أوّليّة وتضيف إلى المزيج كمّيّة لا بأس بها من الحشيش.

وحاول المجلس البلدي في حيّ هاكني أن يخلي المنزل من محتلّيه منذ زمن طويل، كي يُعاد ترميمه وبيعه لقاء ربح وفير، لكن ثمّة حربًا متواصلة دارت بين الفريقين. وقبل مدّة قصيرة اكتشفت مصلحة كهرباء لندن أنّ محتلّي المنزل فطنوا إلى وسيلة لربط المنزل بالتيّار الكهربائي، فأرسلت من يتولّى مهمّة قطعه، فاستخدم المحتلّون الشمع ومصابيح الزيت في كلّ طبقة، فظهرت ظلال مخيفة غريبة الشكل زاحفة على الجدران. وتعرّض الحمّام لانسداد متواصل، وكانت الرائحة المنبعثة منه كريهة جدًّا، ولم يستطع يونس أن يفهم السبب الذي يدفع توبيكو إلى أن تعيش في هذا المكان. لو كان أكبر سنًّا وله وظيفة وشقّة لطلب منها أن تأتي وتعيش وإيّاه، ولكن ربّما سوف تصطحب وإيّاها الكابتن، الذي سيعمد إلى دعوة كلّ أفراد العصابة، لأنّ القادة في حاجة إلى قيادة المنزل، وهكذا سينتهي المطاف بهم جميعًا إلى السكن وإيّاه في منزله، الذي سيتحوّل في أسابيع قليلة إلى ما يشبه المنزل المحتلّ.

كان الرجل الذي يسمّيه الآخرون «الزعيم» رجلاً نحيل البنية ينسدل شعره إلى عينيه الرماديّتين، مصفرَّ الأسنان إلى حدٍّ ما بسبب

التبغ، وكان يضع خاتمًا في كلّ إصبع من أصابعه، بما فيها الإبهامان، وكان ميّالاً إلى التفوّه بصوت عالٍ كلّما خطر بباله أن يتكلّم. كان يعشق الكلام، وكان صوته يزداد حماسًا كلّما تحدّث في موضوع جديد، فيسحر سامعيه. وكان الكابتن أوّلَ رجل يدعو يونس بكلمة «مؤذٍ»، وهي كلمة لم يسبق ليونس أن سمعها ولم تَرُقْ له إطلاقًا.

ـ لا تهتمّ. إنّه ليس عنصريًّا على الرّغم من مظهره، إذْ كيف يمكنه أن يكون عنصريًّا وهو مناهض للفاشيّة؟ صحيح؟

فرمش يونس بعينيه.

ـ أعني أنّه يحبّ أن يصنِّف على هواه، كي يتأكّد من مكانة كلّ شخص لا غير. هكذا هو تفكيره.

فقاطعها يونس وهو يعرف أنّ كلامه ساذج ولكنّه أراد التفوّه به ليس إلّا:

ـ أختي أسماء تحبّ الكلمات بدورها.

فابتسمت توبيكو:

ـ الزعيم لا يحبّ الكلمات.

المؤكّد أنّ الحسد وخيبة الظنّ لاحا على وجه الفتى، لأنّ توبيكو جذبته إليها على حين بغتة وطبعت قبلة على جبينه وقالت:

ـ آه يا عزيزي! كم كنت أتمنّى لو أنّك أكبر سنًّا بعشرة أعوام!

فأجاب يونس إجابة واقعيّة وإن كسا الخجل وجهه كلّه:

ـ سوف أكبر! ولكن بعد عشرة أعوام.

ـ ولكنّني سأكون بعد عشرة أعوام حبّةَ خوخ مجفّفة، عجوزًا كثيرة التجاعيد.

ثم داعبت شعره مداعبة تحبّها ولكنّه غالبًا ما كان يكرهها وإن لم يكن قادرًا على الاعتراف بذلك في دخيلة نفسه.

لكنّه كان متشجّعًا:

ـ سوف أكبر في سرعة.

ـ آه، أعرف أنّك سوف تكبر، فأنت الآن أكبر غلام عرفته حتى اليوم. ثم قبّلته قبلة أخرى ولكنّها كانت قبلة على شفتيه، قبلة سريعة رطبة، فشعر كأنّه يقبّل المطر.

وهمست توبيكو:

ـ لا تتغيّر أبدًا، ولا تترك النظام الرأسمالي الجشع يؤثّر فيك.

ـ حسنًا.

ـ اصدقني القول، لا... انتظر، امنحني وعدًا على شيء له قيمته عندك.

فقال يونس خجلاً:

ـ ما رأيك بالقرآن؟

ـ آه، نعم. ممتاز!

في تلك اللحظة وفي ذلك المكان، ارتعشت شفتا يونس وخفق قلبه خفقانًا شديدًا وهو ابن الأعوام السبعة، وأقسم بالله ألّا يدع النظام الرأسمالي يدنو منه، وإن لم يكن يملك أدنى فكرة عن معنى ذلك.

* * *

سجن شروزبيري ١٩٩٠

وأخيرًا وصل. إنّه ملصق هاري هوديني، الرجل الذي لا يمكن وضع القيد في يديه، أو حتى حبسه. معبودي. صورة من صوره القديمة بالأسود والأبيض وبظلال رماديّة كثيفة. هوديني شابّ كما يبدو في الصورة: ساحر، نحيل البدن، عالي الجبين ومذهل العينين. كان مشمّرًا عن ساعديه، كاشفًا بذلك عن نصف دزّينة من القيود من حول رسغيه. ولم تبدُ على وجهه أيّة علامة من علامات الخوف أو الوجل، بل كانت تلوح عليه مسحة من التفكير. الناظر إليه يخيَّل إليه أنّه يستيقظ من حلم.

ثبَتُّ الملصق على الجدار، فرآه تريبي وابتسم ابتسامة عريضة. اسم رفيقي في الزنزانة باتريك، ولكن لا أحد يتذكّر ذلك، وكلّما شاهد ما يجذب انتباهه ـ وهو ما يحدث في الأعمّ الأغلب وحتى في مكان بمثل هذا المكان الباعث على السأم والضجر ـ يقول: هذا تريبي أيّها الرجل! من هنا اكتسب الاسم.

كان أصغرَ سنًّا منّي، وأقصر قامة. بشرته شاحبة وشعره منسدل إلى الخلف، وعيناه بنِّيّتان غامقتان، ورموشه كثيفة. وبصرف النظر عن السنّ، فإنّ والدته تظنّ أنّه ولد طيّب أفسده أصدقاء السوء.

وهذا صحيح في حالة تريبي ـ الولد اللطيف من مدينة ستافورد الذي يؤدّي أعمالاً أربكته. المضحك في الأمر هو أنّ هؤلاء السفلة كانوا قادرين على التخلّص من أيّة ورطة، ولكن تريبي حُكم عليه بالسجن مدّة عشرة أعوام. هكذا هو الحال الآن. لا شيء يحدث لبنات آوى، لكنّ الذين يؤدّون دور ابن آوى يُقبض عليهم. أنا أقول إنّنا أفضل حالاً. إنّ ادّعاء المرء أنّه ابن آوى أسوأ من أن يكون ابن آوى أحيانًا.

لم أخبره بهذا الشيء، ولكنّ عينيه ذكّرتاني بعيني يونس. أشتاق إليه كثيرًا، لم أكن أخًا وفيًّا له، ولم أقف إلى جانبه عندما احتاج إليّ. كنت مشغولاً جدًّا وليس لديّ الوقت لخوض معارك خاسرة.

أصبح يونس رجلاً كبيرًا الآن، موسيقارًا موهوبًا. هكذا يردّدون. لم يرني إلّا مرّتين على مدى اثني عشر عامًا. لا تزال أسماء تزورنا من حين إلى حين، ولكنّها لم تأت منذ مدّة من الزمان. إنّها تأتي لتخبرني عن مدى شوقها إليّ، وأنّها تشفق عليَّ وتكرهني. أمّا يونس، فقد أطلق ساقيه للريح، كعهده دائمًا، حتى كلمات أسماء القاسية جدًّا لم تؤذني قدْرَ ما آذاني غياب أخي. كم أحب أن يغفر لي ويسامحني، إن استطاع أن يغفر من أعماق قلبه. ولا يرجع سبب ذلك إلى أنّني أتوقّع منه أن يحبّني، لأنّ حبّه لي

أضغاث أحلام، ولكنْ أريد منه أن يسامحني لمصلحته الشخصيّة. الغضب قاتل، يسبّب لك السرطان، والناس من أمثالي معتادون عليه، ولكن يونس يستحقّ ما هو أفضل.

وسأل تريبي مشيرًا إلى الجدار:

ـ من ذلك الرجل؟

ـ ساحر عظيم. أعظم ساحر!

ـ حقًّا؟

ـ نعم، ولا يزال بعض حيله لغزًا.

ـ في استطاعته أن يجعل بعضَ الفيلة تختفي.

ـ ممتاز!

أنفقنا عصر ذلك اليوم نتجاذب أطراف الحديث عن هوديني، وقد احتشد رأسانا بالحكايا، وفي حالة تريبي بالمخدّر. يروقني أن أتعاطى المخدّر بين وقت وآخر، هذا كلّ ما هناك. لا حبوب ولا نكهة، لم أجرّبها ولن أجرّبها، فلن أسلك ذلك الدرب. وعندما أذكّر تريبي أنّ عليه أن يقلع عن ذلك، فإنّه يضع إبهامه في فمه ويمصّه مُصدِرًا صوتًا ويقول:

ـ لست رضيعًا.

ـ اخرس!

يبتسم ابتسامة عريضة كأنّه ولد مشاكس. ولكنّه لا يبالغ. إنّه يعرف أنّه الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يتحدّث إليَّ على ذلك النحو، كما أنّه يعرف حدودي.

وبعد التعداد المسائي بوقت قصير، يأتي الحارس مارتن

صحبةَ رجل قصير القامة، متين البنيان، لم يسبق لنا أن رأيناه ـ ثمّة نتوء بارز في ذقنه، كما أنّ شعره فاحم السواد، حتى إنّني كنت أظنّ أنّه يصبغه.

ـ بدأ الضابط أندرو ماك لوخلين عمله اليوم، ونحن ننوي زيارة بعض الزنازين.

يوشك مارتن أن يتقاعد، ويريد أن يطمئنّ إلى أنّنا سوف نحترم هذا الشابّ الذي جاء ليحلّ محلّه.

واستقرّ صمت مثير للارتباك، ولم نعرف ما نقول. وعلى حين بغتة وقعت عينا مارتن على الملصق من خلفه، وتمتم:

ـ من وراء هذه الفكرة؟

ثم التفت إليَّ وقال من دون أن ينتظر جوابًا:

ـ أنت. صحيح؟

كان مارتن ممثّلاً فاشلاً، وهو سبق له أن شاهد هذا الملصق، ولولا موافقته لما حصلت عليه قط، ولكنّه يتصرّف الآن كأنّه يراه للوهلة الأولى، وذلك كي يُظهر للصبي الجديد أنّه وإن كان في سنّ التقاعد لا تفوته فائتة، ويقول إنّه شاهد طوال تلك السنين رجالاً يضعون مختلف الصور على الجدران ـ صور زوجاتهم وأسرهم ورموزهم الدينيّة ونجوم السينما وكرة القدم والكريكت وفاتنات مجلّة بلاي بوي، أمّا هوديني فتلك قضيّة أخرى.

ويضيف مارتن مقهقهًا:

ـ ربّما ستفقد عقلك.

قلت:

ـ ربّما.

ويقترب الضابط ماك لوخلين ويشمّ الهواء من حوله كأنّه كلب يقتفي أثر طريدة:

ـ أو ربّما يخطّط للهروب. إنّ هوديني عالِم في الهروب.

من أين أتى هذا؟ أعني الوريد الظاهر في جبينه والذي ينبض نبضًا هادئًا؟

ـ ما الذي يدفعني إلى ذلك؟

ثم يسأل مارتن وقد قست عيناه فجأة:

ـ نعم، ما الذي يدفعه إلى ذلك؟

ثم يلتفت إلى السجّان الجديد موضحًا:

ـ جاء أليكس إلى هذا المكان في العام ١٩٧٨ ولم تبق من محكوميّته سوى سنتين.

فصحّحتُ له كلامه:

ـ سنة واحدة وعشرة شهور.

فقال مارتن وأومأ برأسه، كأنّه يريد بذلك أن ينهي كلّ شيء:

ـ نعم.

ثمّة شيئان متناقضان يَلُوحان على وجه مارتن، كعهده على الدوام: النفور والاحترام. كان النفور منّي موجودًا منذ البداية ولم يختف ـ النفور والامتعاض من إنسان ارتكب أسوأ جريمة يمكن تخيّلها وأنهى بذلك الحياة التي منحها الله. أمّا الاحترام، فجاء من بعد ذلك بوقت طويل وعلى نحو مفاجئ تمامًا. لنا تاريخ مشترك: أنا ومارتن.

لكن وجه الضابط ماك لوخلين يوحي بحكاية أخرى، فيقول في صوت تعوزه الحيويّة والنشاط:

ـ أعتقد أنّني أعرف قضيّتك، وأتذكّر أنّني قرأت عنها وقلت في نفسي: كيف يمكن لامرئٍ أن يفعل ذلك بأمّه؟

أدرك أنّنا في سنّ واحدة. ليس هذا فحسب، بل إنّنا من عجينة واحدة. قد نكون سرنا في شوارع بعينها لمّا كنّا مراهقين، وقبّلنا الفتيات أنفسهنّ.

واستبدّ بي شعور هو الأغرب من بين المشاعر كلّها، كأنّني أنظر إلى مرآة منحرفة، فماك لوخلين هو الرجل الذي كان في وسعي أن أكون في محلّه لو أنّني سلكت دربًا مغايرًا، وكان يمكن أن أكون المُدان لو لم يفلح هو في الإفلات في اللحظة الأخيرة.

فيقول:

ـ أربع عشرة سنة، إيه؟ يا له من عار؟

يسعل مارتن سعالاً يثير الأعصاب. إنّك لا يجب أن تذكّر رجلاً بجريمته على نحو عابر وكأنّك تتحدّث عن الطقس. لا تذكّره إلّا عندما يحين الأوان، فالمألوف هو أنّ ما من شخص يذكّر شخصًا آخر بما حدث من قبل، والإنسان رهينُ السجن هو أصلاً رجل رهن الماضي في كلّ الأحوال.

يتدخّل مارتن في الكلام وكأنّه مرشد سياحي:

ـ لقد مرَّ أليكس في منعطف أثناء السنوات القليلة. مرَّ في وقت عصيب ولكنّه تحسّن حاليًّا.

لي سمعة فظيعة، وأعتقد أنّها ما زالت. أضحيت موضعَ

سخرية، وكان يصعب توقّع الشيء الذي يزعجني. أنا شخصيًا لم أستطع توقّع ذلك، وعندما أغدو مخبولاً فإنّني أتحوّل إلى شخص عنيف. قبضتي اليسرى قويّة مثل قطعة قرميد كما يقولون. أحياناً أنفجر لا أكثر. الآخرون الذين يمكن لهم أن يتصرّفوا مثلي هم مدمنو المخدّرات، فعندما يريدون السلع وهي غير متوفّرة فإنّهم يفقدون صوابهم، لكنّني لست مدمناً، وربّما يجعلني ذلك أشدَّ إثارة للخوف. هذه هي حالتي العقليّة الصاحية، لقد ألحقت الأذى بنفسي، برأسي، لأنّ ما في رأسي لا يروقني. أشعلت راحتيَّ بسكائري فتورّمتا مثل تورّم العيون المنتفخة. جرحت ساقيَّ. قدْرٌ كبير من اللحم على الساق والفخذين والركبتين والكاحلين، قدْرٌ كبير من الاحتمال. الشفرة في شروزبيري ثمينة مثل قطعة ياقوت، ولكن ليست صعبة المنال.

يقول مارتن:

ـ سوف يعرف أحدكما الآخر.

يقول الضابط ماك لوخلين:

ـ حسناً، أظنّ ذلك.

يراقب تريبي التوتّرَ يتصاعد، ويشعر بالقلق. يعرف ماذا سيحدث، فقد شهد ذلك من قبل. أحياناً نُغلَب على أمرنا، وعندئذٍ تنتهي الحكاية، فما أن تنطلق انطلاقة سيّئة حتى تظلّ كذلك من دون تحسّن.

يبذل «المرشد السياحي» محاولة أخرى للتوصّل إلى تسوية: «أليكس ملاكم، رياضيًّا، فاز بجائزة لمّا كان تلميذاً في المدرسة». مضحك أن أقول شيئًا دفاعًا عن نفسي، ومن نافلة القول أنّ

أحدًا ما لم يضحك. أريد أن أشكر مارتن على وقوفه إلى جانبي، ولكن إذا ما أَشَحْتُ بناظريَّ عن الضابط الشابّ، وإنْ لثانية واحدة، فإنّني سوف أكشف بذلك عن نفسي.

عليه أن يرى أنّني لست رعديدًا. كنت رعديدًا آخر مرّة قبل نحو عشرين سنة، طفلاً صغيرًا فوق شجرة، هاربًا من عمليّة ختان، لكنّ ذلك لم يُجْدِ نفعًا، ومنذ ذلك اليوم لم أضعف. كنت مخطئًا، مخطئًا تمامًا، ولكنّني لم أكن ضعيفًا، لهذا لا ينتابني الخوف، ولا تَطْرُفُ عينيَّ، بل أظلّ أحدّق إلى عيني ماك لوخلين، الذي ربّما يحدّق بدوره إليَّ للأسباب نفسها.

ثم ينصرفان.

* * *

أستيقظ في منتصف الليل على حين غرّة. في البدء أعتقد أن والدتي زارتني ولكنّني لا أستطيع الإحساس بوجودها على الرّغم من الجهد الذي أبذله كي أشعر بها. ليس من حفيف يشبه سقوط ورقة شجرة، وليس من ضوء يشبه ضوء القمر من وراء السحب. لا أحد سوى تريبي، يشخر ويطلق ريحًا ويصرّ أسنانه ويحارب شياطينه.

أجلس معتدلاً من فوق الفراش وأنظر من حولي لأتبيّن السبب الذي دفعني إلى الاستيقاظ، وعندئذٍ أكتشف السبب: ثمّة ورقة على الأرض لا بدَّ أنّ شخصًا ما دفعها من وراء قضبان الباب. ألتقطها تحت النور الخابي المنبعث من الممرّ، فأكتشف أنّها قصاصة من جريدة، جريدة الديلي إكسبريس...

* * *

صبي يقتل أمّه «غسلاً للعار»

٢ كانون الأوّل، ١٩٧٨

«طعن صبي في السادسة عشرة من عمره من أصل تركي/ كردي أمّه حتى الموت في حيّ هاكني غسلاً للعار، فقد طعن إسكندر طبرق بمبي طبرق أمام بيت الأسرة في شارع لافندر غروف:

ويُقال إنّ الأمّ البالغة من العمر ثلاثة وثلاثين عامًا ولها ثلاثة أولاد، على علاقة غير شرعيّة. وقد أفاد الجيران أنّ آدم وبمبي طبرق انفصل أحدهما عن الآخر وإن بقيا متزوّجين. وقال أحد شهود العيان: «إنّ شرف الأمّ كان يحميه الابن الأكبر عند غياب الأب، وكان هذا الابن هو إسكندر». هذا وتُجري الشرطة تحقيقًا الآن لمعرفة إن كان الصبي المراهق قد تصرّف من تلقاء نفسه أم أنّ فردًا آخر من الأسرة استخدمه لتنفيذ خطّة قتل جماعيّة.

وذكرت ناطقة باسم شرطة سكوتلانديارد لصحيفة التايمز، أنّ هذه القضيّة ليست الأولى ولن تكون الأخيرة في المملكة المتّحدة وأوروبا. وأوضحت أنّ الشرطة تحقّق الآن في ١٥٠ حالة وفاة

يمكن أن تكون ذات صلة بغسل العار. وأضافت: «ممّا يدعو إلى الأسى أنّ العدد يمكن أن يكون أكبر، لأنّ حالات الموت لا تكتشفها الشرطة كلّها، فالأُسَر والجيران يعرفون أكثر ممّا يدلون به من أقوال، كما أنّ أقرب المقرّبين من الضحايا هم أولئك الذي يكتمون معلومات غاية في الأهمّيّة».

* * *

ترتعش يداي ارتعاشًا قويًا، فتسقط القصاصة وكأنّها في وسط ريح عاتية. أَتَحَرَّقُ شوقًا من أجل سيكارة، أو مشروب، من أجل شيء ما منعش وبسيط. لم يعرف والداي هذا قطّ، لكنّني كنت والأولاد معتادين أن نشرب شراب التفّاح أو الجعة بين حين وآخر، ولكنّنا لم نشرب الويسكي قطّ. تلك مسألة أخرى، لقد تذوّقته أوّل مرّة تحت هذا السقف، فيمكنك أن تجد كلّ شيء في السجن إذا ما عرفت كيف تتصرّف.

طويتُ القصاصة وطويت زواياها حتى أصبحت مربّعًا فمثلّثين فمستطيلاً... تركت الزوايا كي تلتقي وجذبت المثلّثين إلى الجانبين، فأصبح لديّ زورق. أضعه على الأرض. ما من ماء كي أجعله يطفو وما من ريح كي تدفع الأشرعة. قد يذهب بك الظنّ إلى أنّه صُنع من الأسمنت، ثابت، لا يتحرّك في أيّ اتّجاه، مثل ألم في الصدر.

إسكندر طبرق

* * *

أسمـاء

لندن، كانون الأوّل، ١٩٧٧

عشنا في حيّ هاكني، في شارع لافندر غروف. كانت أمّي خائبة الظنّ على الدوام، لأنّ الشارع لا يحتوي على شجرة لافندر (خزامى) واحدة، كلّ ما فيه هو اسمه لا أكثر، غير أنّها لم تفقد الأمل في أن نعثر يومًا ما، في حديقة شخص ما أو من حول منعطف، على غروف (بستان) منسي، على بحر من البنفسج.

أحببت الحيّ: محلّات الحلاقة الأفريقيّة، والمقهى الجامايكي، المخبز اليهودي والصبي الجزائري الواقف من خلف منصّة الفواكه ويلفظ اسمي لفظًا مضحكًا ويقدّم لي على الدوام هديّة صغيرة، وعازفي الموسيقى المفلسين الذين يقطنون من حول الناصية ويتدرّبون يوميًّا بعد أن يتركوا نوافذهم مفتوحة، عرّفوني من دون أن أعرف بالموسيقار شوبان، والرسّام الذي يرسم لوحات فنّيّة في رايدلي رود ماركت لقاء عشرة شلنات، والذي رسم يومًا صورة لي لقاءَ ابتسامة لا أكثر، فيها كلّ الأصباغ والألوان.

قبل هذا البيت ثمّة شقّة في إسطنبول هي المكان الذي أنفقت فيه أنا وإسكندر بواكير طفولتنا. على أيّة حال، ذلكم زمن آخر وبلد آخر، وهو المكان الذي عاشت فيه أسرتنا قبل رحيلنا إلى إنكلترا في مايس ١٩٧٠ بعد وقت قصير من ولادة يونس.

كانت لأمّي ذاكرة انتقائيّة، شأنها شأن كلّ المغتربين، فمن بين أجمل الأشياء التي تتذكّرها أكثر من غيرها عن ذلك الماضي الذي خلّفته من ورائها، إن لم يكن الشيء الوحيد الذي تتذكّره، هو الشمس الدافئة وأهرامات التوابل في السوق ورائحة أعشاب البحر التي تحملها الريح. وظلّت البلاد لا تشوبها شائبة، وشانغري ـ لا[1]، وملاذًا حيويًّا تعود إليه في الحلم في الأقلّ، إن لم يكن في الواقع.

أمّا ذكرياتي الشخصيّة، فكانت متمازجة بطبيعتها، أمّا الذكريات عن الماضي المشترك، فربّما لا يتذكّر الأطفال النتف الصغيرة التي يتذكّرها آباؤهم. كانت ذاكرتي ترجع أحيانًا إلى الوراء، إلى قبو ذلك المنزل العتيق: الأثاث المنجَّد بلون شذري، وقطع القماش الدائريّة، البيضاء اللون، ذات الزخارف المخرّمة، الموضوعة من فوق مناضد الشاي الصغيرة ورفوف المطبخ،

---

(١) شانغري ـ لا Shangri - La: هي جنّة اللاما البوذيّة الخفيّة التي أتى على وصفها الكاتب الإنكليزي جيمس هيلتون (١٩٠٠ ـ ١٩٥٤) في خامس رواية يؤلّفها بعنوان الأفق المفقود (١٩٣٣) وتدور وقائعها في دير سرّي من أديرة التيبت يدعى شانغري ـ لا. يطلق هذا الاسم أيضًا على سلسلة جبال روزفلت في ولاية ماريلند الأميركيّة، وعلى قاعدة سرّيّة شنّت منها القوّات الأميركيّة أضخم الغارات الجوّيّة وأعنفها على طوكيو في العام ١٩٤٢. كما يطلق الاسم اليوم على أيّة جنّة أرضيّة متخيَّلة أو منطقة يوتوبيّة توحي بجوّ من الرضا والطمأنينة. (المترجم).

ومستعمرة الفطريّات على الجدران والنوافذ العالية التي تطلّ على الشارع. . . كانت الشقّة تلحّ على ذاكرتي، مكان معتم ينبعث منه صوت مذياع غير واضح النبرات طوال النهار، ورائحة عفنة تخيّم عليه. الوقت غسق على الدوام، أمّا الصباح أو العصر، فلا كبيرَ فرقٍ بينهما.

كنت صغيرة السنّ عندما بات المكان يعني بيتًا لي. كنت أجلس ساقًا على ساق فوق سجّادة في حجرة المعيشة، رافعةً بصري إلى أعلى باتّجاه النوافذ القريبة من السقف، فاتحة فمي قليلاً. وكان في وسعي أن أشاهد حركة مرور قويّة لسيقان تتّجه يمينًا وشمالاً، لأشخاصٍ يذهبون إلى أعمالهم أو يعودون أدراجهم من بعد التسوّق أو خارجين للتنزّه.

كانت مراقبتنا أقدام السابلة ومحاولتُنا معرفةَ نمط الحياة التي يعيشها أصحابُها لعبةً مفضّلة لدينا ـ لعبة بثلاثة لاعبين: أنا وإسكندر وأمّي. فعلى سبيل المثال، كنّا نشاهد شخصين من الجانب يسيران في خطوات سريعة ونشطة، وشرائط جلديّة تربط الكاحل في عناية، وكعوب أقدام تضرب من فوق الرصيف، فكانت أمّي تقول: «أعتقد أنّ هذه المرأة ذاهبة للقاء خطيبها»، ثم تبدأ بسرد قصّة جذّابة من قصص الحبّ والغرام ووجع القلب. وكان إسكندر يلعب هذه اللعبة لعبًا جيّدًا، فكان يبصر زوجًا من أحذية قديمة قذرة فيؤلّف قصّة يقول فيها إنّهما يعودان لرجل عاطل عن العمل منذ زمن ليس بالقصير، وإنّه الآن في وضع شاقّ يوشك أن يدفعه إلى سرقة المصرف الكائن من حول الناصية، وعندئذٍ سيطلق حرّاس المصرف النار عليه.

وإضافة إلى أنّ القبو يفتقر إلى أشعّة الشمس افتقارًا شديدًا، فإنّه كان يتلقّى قدرًا كبيرًا من المطر أيضًا. المطر الخفيف لم يكن مصدر تهديد، لكن كلّما أمطرت السماء بمقدار يزيد عن البوصتين في المدينة، فإنّ أنابيب الصرف كانت تفيض داخل المنزل تاركة بركة قذرة في الحجرة الخلفيّة، وتصبح منفضات السكائر الخشبيّة والمباصق وأُطر الصور والسلال المصنوعة من خشب الخيزران سبّاحين مهرة، أمّا صواني الخبز وألواح التقطيع وأباريق الشاي والهاون، فلم تكن كذلك، وفي حين كانت الزهريّة الزجاجيّة الموضوعة من فوق الطاولة سريعة الغرق، فإنّ الزهور الاصطناعيّة في داخلها كانت تطفو في سهولة. ثم هناك محكّة الظهر، التي كنت أتمنّى غرقها أيضًا، ولكنّها لم تغرق قطّ.

كان والدايّ قد تحدّثا عن الانتقال من الشقّة، ولكن حتى لو كانت لديهما الوسيلة وعثرا على شقّة تحت الأرض تتخلّلها أشعّة الشمس على نحو أفضل في هذا الحيّ الفقير، فإنّ ما من ضمان يجعلها تتحمّل هطول أمطار إسطنبول الغزيرة السيّئة الصيت تحمّلاً أفضل من سابقتها. لعلّهما تمسّكا بالشقّة بمرور السنين. صحيح أنّها رطبة ومظلمة، ولكنّها على الرّغم من ذلك بيتهما الأليف.

إسطنبول. . . المدينة الغارقة في ذكريات بطيئة دواميّة، اسمها يبرز من بين مئات الأسماء التي خزّنْتُها في ذاكرتي طوال حياتي. وضعت الكلمة من فوق لساني وتلذّذت بمصّها على مهل وبلهفة، كأنّها قطعة حلوى فعليّة. لو كانت لندن قطعة من حلوى لكانت قطعة طوفي بالزبدة الإسكتلنديّة: غنيّة وصلبة وتقليديّة، لكنّ إسطنبول قطعة من حلوى فيها طعم عرق السوس، قابلة للمضغ،

مزيج من مذاقات متنافرة، قادرة على تحويل ما هو مرّ إلى حلو، والحلو إلى مرّ.

* * *

بدأت أمّي بالشغل أوّل مرّة بعد أن قامر أبي بمرتّب شهرين وخسره، وعلى حين بغتة أضحت النقود ضروريّة أكثر من أيّ وقت مضى. وفي حين كان إسكندر تلميذًا في المدرسة، بدأت أمّي تتردّد على بيوت الأثرياء، حيث تهتمّ برعاية أطفالهم الصغار وتطبخ طعامهم وتنظّف غرفهم وتغسل قدورهم وتكوي ثيابهم وتقدّم العزاء والسلوى أحيانًا، وكنت أبقى في رعاية امرأة من الجيران. كانت عجوزًا ذات لسان سليط وسمع ثقيل، ولكنّها، بخلاف ذلك، كانت امرأة لطيفة.

وكانت أمّي تحكي لنا في الأماسي قصصًا عن الحياة في القصور وكأنها تقص علينا القصص لكي ننام: لكلّ طفل من الأطفال في تلك القصور غرفة خاصّة به، والأزواج العصريّون يدعون زوجاتهم لتناول المشروبات في رفقتهم، وقد رأت في مرّة من المرّات شخصين يضعان موسيقى جاز في آلة ويرقصان، وأنّ الأمر الذي أثار حفيظتها على أنّه خزي وعار، أنّهما تقدّما من فوق السجّادة بأحذيتهما المغبرّة، ممّا عزّز من اعتقادها بأنّ الأغنياء تحوم من حولهم الشبهات، وإلّا ما السبب الذي يدفع الآخرين إلى وضع الزيتون الأخضر في مشروباتهم وإفساد سجّادهم الناعم وقضم مكعّبات الجبنة الصفراء المغروسة في أعواد تنظيف الأسنان؟

وبعد أن عملت أمّي في بيوت عدد من الأسر، عثرت لها على

عمل دائم، وكان ربُّ عملها من أسرة مشهورة، وكانت ربّة البيت ممثّلة رُزقت بطفلة قبل وقت قصير، على حين أنّنا لم نعرف شيئًا عن زوجها أو عمله، ولكنّه كان مشغولاً على الدوام ومسافرًا في أغلب الأحيان. هذا كلّ ما عرفناه. وكانت مهمّة أمّي العناية بالمنزل والطفلة، فضلاً على العناية بالممثّلة، التي لم يبدُ عليها أنّها متأقلمة على نحو جيّد مع المتغيّرات في حياتها. وكانت الطفلة مزاجيّة وممغوصة، دائمة البكاء، لكنّ الأمّ الحديثة العهد بالأمومة كانت تبكي بدورها بالسهولة نفسها التي كانت تبكي فيها ابنتها، وربّما أكثر. هي جميلة، ذات عينين لوزيّتين وشعر أسود فاحم وأنف مستدقّ ويدين نحيلتين تلوح منهما أرقّ الأوردة وأرفعها، ولو شاهدها عشّاقها في هذه الحالة لخاب ظنّهم، أمّا أمّي فقد شعرت بموجة من الحبّ والهيام لها في تلك الحالة المثيرة للكآبة.

بعد ذلك، داهم المرض السيّدة العجوز التي كانت ترعاني، فبدأت أمّي تصحبني وإيّاها، وفي حين كنت ألعب بمفردي كانت هي تكدّ وتشقى وترشّ سرًّا بذور الهال من حول سرير الممثّلة لحمايتها من الجنّ. كنّا بعد ذلك نستقلّ حافلة، فحافلة صغيرة ونعود أدراجنا إلى المنزل، فيما كانت السماء كئيبة ومعتمة من فوق المدينة. ومضى شهر بطوله، وكانت أمّي تتوقّع تلقّي أجرها كلّ يوم، ولكن لم يأت أحد على ذكره، وكانت بدورها تخجل من المطالبة به.

وفي عصر يوم من الأيّام، وبينما كانت أمّي تطهو الطعام وكنت ألعب تحت طاولة المطبخ، ظهر للعيان زوج السيّدة، وكانت تنبعث منه رائحةٌ هي مزيج من عطر ما بعد الحلاقة والويسكي،

عيناه متّقدتان ومحتقنتان وإن كان يبدو مسرورًا على الرّغم من ذلك. سار مترنّحًا في متّجه والدتي من دون أن يلاحظني وأمسك بها من جنبيها.

ثم وضع أصبعه على شفتيها وقال:

_ صه! إنّهم نائمون كلّهم!

كلّهم نائمون. لن يشاهدونا. كلّهم نائمون. يمكننا أن ننام بدورنا. وسوف أشتري لك أشياء جميلة: أحذية وحقائب وملابس وزوج من الأقراط الذهبيّة... أنت امرأة طيّبة، قدّيسة. أرجوك أن تشفقي عليَّ، ولن تعرف زوجتي شيئًا، ولن يعرف زوجك أيضًا. كلّهم نائمون. لست رجلاً شرّيرًا، ولكنّني رجل مثل بقيّة الرجال ولديَّ رغباتي. زوجتي لم تعد امرأة بعد الآن، لقد تغيّرت منذ مجيء الطفلة، دائمة البكاء والأنين. المدينة نائمة برمّتها.

لكنّ أمّي دفعت الرجل نحو الجدار، فلم يُبْدِ إلّا مقاومة بسيطة وهو في حالة ثمالة. كانت يداه متدلّيتين إلى جنبيه، جسده مرتخيًا وكأنّه أجوف مثل لعبة ليّنة. ثم أمسكت بي بإحدى يديها وحقيبتها باليد الأخرى وتقدّمت نحو الممرّ، ولكنّها أدركت أنّنا لا نملك ما يكفي من المال لنعود إلى بيتنا. فقالت:

_ سيّدي... أنت لم تعطني أجري.

كان يقف بجوار الباب، مرنَّحًا قليلاً. ثم سأل مندهشًا:

_ أتريدين مالاً؟

_ مرتّبي الشهري...

فقاطعها قائلاً:

ـ أنت تعاملينني هذه المعاملة وتريدين مالاً فوق كلّ ذلك؟ يا لك من عاهرة!

خرجنا من المنزل، وركبنا الحافلة وترجّلنا منها في الموقف المعتاد، وقرّرنا السير على أقدامنا بقيّة المسافة حتى نصل البيت، لكن أمّي لم تتنبّه إلى الوجهة التي كنّا نتّجه إليها، وخطوةً فخطوة ابتعدنا عن الطرق العامّة وولجنا شوارع فرعيّة ملتفّة بدت بلا نهاية. وبدأ الظلام يرخي سدوله حتى وجدنا نفسينا على الشاطئ وفي منطقة لم تسبق أن وطأتها أقدامنا. ثمّة صخور سود هائلة على امتداد الساحل ترتطم بها الأمواج. فجلسنا في تلك البقعة نستردّ أنفاسنا وننظر إلى عظمة المدينة وروعتها ولامبالاتها بنا.

ولمّا رأيتُ بعض الأصداف البحريّة الصغيرة على الشاطئ، نهضت من مكاني لجمعها، وكنت لا أزال أتسكّع على الشاطئ عندما شاهدت رجلين يقتربان من أمّي وهما يأكلان حبّ زهرة الشمس ويبصقان القشور بعيدًا، تاركَيْن من ورائهما أثرًا كما في قصّة هانسل وغريتل(١).

---

(١) هانسل وغريتل Hansel and Gretel: رفيقان مشهوران لا يفترقان في واحدة من أشهر قصص الجانّ التي وجدت بين حكايات الأخوين غريم (جاكوب لودينغ كارل غريم ١٧٨٥ ـ ١٨٦٣ وفيلهلم كارل غريم ١٧٨٦ ـ ١٨٥٩) الألمانيين. كان هانسل ابن حطّاب عثر على الفتاة الصغيرة غريتل في الغابة، وعندما هدّد الجوع أسرته، قرّر ـ بناء على مشورة زوجته ـ ترك أطفالهما في الغابة، ولكن هانسل ترك من ورائه أثرًا يمكّنه من الرجوع إلى المنزل، لكنّ الأبوين طرداهما من جديد، وبعد محاولات هروب متعدّدة بذلها هانسل، مسخته جنّيّة إلى ولد الظبي واقتيد هو وغريتل إلى قصر الملك، وفي القصر أعيد هانسل إلى شكله الآدمي السابق وتمكّن من الزواج بغريتل. يُذكر أنّ هذه الحكاية تمثّل أساس أوبرا من تأليف همبردينك (١٨٩٣) بالاسم نفسه. (المترجم).

قال الرجل الأوّل:

ـ مساء الخير يا أختاه، يبدو أنّك غاية في الحزن. ما الذي تفعله امرأة مثلك في هذا المكان وفي هذه الساعة؟

وقال الرجل الآخر:

ـ نعم، يبدو أنّك في حاجة إلى مساعدة.

لم تجب أمّي، وفتّشت في حقيبة يدها عن منديل وهي تنخر. ولم تجد أيّ منديل بل وجدت عددًا من دبابيس الشعر ومفاتيح المنزل وقوائم حساب ينبغي لها أن تدفعها وحفنة من البندق أخذته معها ولكنّها نسيت أن تطعمني إيّاه وصورة فوتوغرافيّة تمثّل أطفالها ومرآة شاهدت فيها شدّة حزنها.

ـ ألديك أيُّ مكان تأوين إليه الليلة؟ لماذا لا تأتين معنا؟

وقال الرجل الآخر بوقاحة:

ـ سوف نهتمّ بك ونرعاك.

فردّت أمّي في صوت يشوبه الانزعاج:

ـ لست بحاجة إلى مساعدتكما.

ثم التفتت نحو الساحل وصاحت:

ـ هلّمي إلى هنا بسرعة يا أسماء!

دهش الرجلان لرؤيتي، ولكنّهما لم يستسلما، بل سارا في أعقابنا في صمت. لعبة: أمّي تقاوم وهما يلحّان، فتقاوم أمّي، ويلحّان كي تستسلم أمّي.

ـ ابتعدا عن طريقي! ألا تلاحظان أنّني امرأة متزوّجة؟

اختلس أحدهما نظرة خاطفة متوتّرة إليها، ولكنّ الآخر هزئ

بها وقلَّب بصره، وكأنّه يريد القول: وإنْ يكن.

كان الجوّ مظلمًا يشوبه ضباب، والمارّة يقلّون عددًا، وحركة المرور قليلة أيضًا. أسرعنا خطانا، نسير في حذر، متجنّبتين منعطفات الطرق حيث يلقي ضوء القمر ظلاله الشاحبة على الأشجار. شاهدْنا امرأة أو امرأتين تتنزّهان رفقةَ زوجيهما أو شقيقيهما، مستمتعتين بما يوفّرانه لهما من حماية وامتياز. مضت عشر دقائق، أو ربّما أكثر، عندما التقينا رجلاً عجوزًا رفقةَ ولد.

ـ سلام عليكما. أأنتما على ما يرام؟

لم أنتظر أمّي كي تردّ، فقلت في حدّة:

ـ إنّنا ضائعتان.

أومأ الرجل إيماءة رقيقة وابتسم لي وقال:

ـ وأين بيتكما يا عزيزتي؟

همست أمّي باسم الحيّ، ولكنّها أضافت مجامِلةً ألّا يشغل باله علينا.

ـ حسنًا. أنتما محظوظتان، فأنا وحفيدي ماضيان في هذا الطريق أيضًا.

فاعترض الولد الذي كان أكبر سنًّا منّي وقال:

ـ كلّا، هذا غير صحيح.

ضغط الرجل العجوز على كتف الولد وقال:

ـ إنّ أقصر الطرق أحيانًا هو اتّباع طريق صديق.

ثم استدار إلى الرجلين من خلفنا وزمجر فيهما، ممّا دفعهما إلى إشاحة أنظارهما بعيدًا وبَدَوَا مرتبكَيْن على حين غرّة.

وهكذا سرنا عائِدِين إلى المنزل ـ أنا وأمّي والرجل العجوز والولد. تنشّقْتُ عبق الهواء اللاذع الذي كانت الريح تحمله من جهة البحر، ممتنّة في أعماقي للغريبين اللذين انقلبا رفيقين في الطريق على نحو غير متوقّع، ولمّا وصلنا بيتنا سألَتْ أمّي العجوزَ عن اسم حفيده، فقال مزهوًّا:

ـ يونس. وسوف يُختن في الشهر المقبل إن شاء الله.

فقالت أمّي:

ـ لو رزقني الله بولد آخر، فسوف أتذكّرك وأسمّيه يونس، كي يكون رحيمًا بالغرباء كما كنتَ رحيمًا بي.

* * *

كان أبي ينتظر جالسًا في الشقّة تحت الأرضيّة من تحت النوافذ المفعمة الآن بالخواء، يدخّن سكائره. وفي اللحظة التي انساب فيها إلى سمعه صوت المفاتيح تدور في القفل، وثب على قدميه وسأل:

ـ أين كنتما؟

قالت أمّي مقطّبةً:

ـ اضطررنا إلى التنزّه. هيّا يا أسماء، اخلعي معطفك واذهبي إلى حجرتك.

ثم دفعَتْ بي نحو الممرّ وأغلقت الباب في قوّة جعلته ينفتح من جديد قليلاً.

ـ لم يكن لديّ مال كي أستقل الحافلة الصغيرة.

ـ ماذا تعنين بكلامك أنّك لم تملكي المال؟ كم دفعوا لك؟

ـ لا شيء، ولن أذهب للعمل عندهم بعد الآن.

سأل أبي رافعًا صوته قليلاً:

ـ ما هذا الذي تتحدّثين عنه؟ لديّ ديوني، وأنت تعرفين ذلك.

ـ لم يدفعوا لي...

مرّت دقيقة كاملة لم أسمع فيها أيّ صوت، ولكن أبي أخذ نفسًا عميقًا وكأنّه يطفو بعد أن غاص في مياه عميقة، وقال:

ـ أنت تأتين إلى البيت في هذه الساعة وتريدين منّي أن أصدّق أكاذيبك؟ أين المال أيّتها العاهرة؟

ثمّة محكّة ظهر على الأريكة، وكانت أداةً صفراء بلون الخردل، باردة، ومصنوعة من قرن كبش. وفي غمضة عين، جذبها أبي ورمى بها نحو أمّي، التي كانت شاردة الذهن بسبب كلماته، ممّا جعلها تخفق في تفاديها في الوقت المناسب، فضربَتْها على صفحة وجهها ضربة قويّة أحدثت جرحًا في رقبتها.

كلّا. إنّ أبي آدم طبرق لم يكن يضرب زوجته أو أولاده، ولكنّه في تلك الليلة وفي الليالي المقبلة من السنوات، كان يفقد أعصابه ويملأ الجوّ بكلمات نابية وقذرة ويكسر الأشياء والأغراض على الجدران ويكره العالم كلّه لدفعه إلى مثل ذلك التصرّف، الذي يجعله يخشى ظلّ أبيه الفاحش الذي ينتظره ليقول له إنّه لا يختلف عنه في نهاية المطاف.

* * *

علبة بقلاوة

قرية على مقربة من نهر الفرات، ١٩٦١

لم يغادر آدم مدينة إسطنبول التي وُلد وترعرع فيها إلّا عندما بلغ الثامنة عشرة من العمر، وكانت تلك هي أوّل مرّة يغادرها، مصطحبًا حقيبة ثياب مملوءة بالملابس الداخليّة النظيفة وماء الكولونيا بعطر الخزامى وعلبة بقلاوة. استقلّ إحدى الحافلات، وبعد مرور أربع وعشرين ساعة وصل منهكًا ومشتّت الأفكار بلدةً من بلدات الجنوب الغربي لا يعرف عنها الشيء الكثير، ومن تلك البلدة انطلق على ظهر شاحنة إلى قرية محاذية للحدود الشماليّة السوريّة. في تلك البقعة كان شقيقه خليل يؤدّي خدمته العسكريّة منذ خمسة شهور.

كانت سحنة خليل قد مالت إلى الاسمرار بسبب شمس الشتاء، وكان قد فقد شيئًا من وزنه، غير أنّ التغيّر الأكبر كان في سلوكه وتصرّفه، حيث اكتسبت عيناه بريقًا ينمّ عن شدّة استغراقه في التفكير، كما بدا صَموتًا قليلَ الكلام على نحو غير مألوف، وكأنّ

ارتداء الزيّ العسكري قد غيَّر من شخصيّته. وحتى عندما قَبِلَ تسلّم الثياب الداخليّة وماء الكولونيا عن سعادة وفرح، بدا معبِّرًا عن تفكير حزين أكثر ممّا هو مرح. نظر آدم إليه نظرةً فاحصةً ملؤها حبّ الاستطلاع، لأنّه سوف يصبح جنديًّا بدوره بعد عام من الزمن تقريبًا. ولمّا كانت الخدمة العسكريّة إلزاميّة، فقد قرّر أن يؤدّيها بعد إنهائه الدراسة الثانويّة مباشرة. أمّا الجامعة، فهي ليست لأمثاله، فضلاً على أنّه لا يستطيع تسديد نفقاتها. وبعد تسريحه من الجيش، سوف يبحث لنفسه عن عمل ويتزوّج وينجب ستّة أطفال ـ ثلاثة أولاد وثلاث بنات. قصارى القول، هذا هو المستقبل الذي كان يتخيّله لنفسه.

ولمّا انتهت ساعات الزيارة، غادر آدم أخيه في ثكنته العسكريّة وامتطى حمارًا ليعود إلى أقرب قرية. امتدّت الأرض المكسوّة بالثلج فأصبحت بلون الشوفان، على مدّ البصر. الطبيعة قويّة في هذه المنطقة، عنيدة. ولم يفطن إلى أنّه نسي أن يسلّم خليل علبة البقلاوة إلّا عندما كان يتأمّل الطبيعة.

وفكّر في نفسه: قسمة ربّما تكون من نصيب شخص آخر.

ولمّا وصل آدم إلى القرية وجد المختار، ولحسن الحظّ كان والده قد تاجر وإيّاه في الماضي، وعلى الرّغم من أنّ الرجلين لم ير أحدهما الآخر منذ سنوات طويلة، إلّا أنّهما بقيا على صلة بوساطة أصدقاء مشتركين. وهكذا، وقبل أن ينطلق آدم في هذه الرحلة كان قد أرسل بطاقة بريديّة إلى صديق والده يُعْلِمه بنبأ وصوله، إلّا أنّ باله انشغل عندما لم يتلقَّ أيَّ ردٍّ منه.

وعندما طرق آدم الباب صاح المختار:

ـ بطاقة بريديّة؟ أيّة بطاقة؟ أنا لم أتلقّ شيئًا. كان المختار رجلاً داكن البشرة، فارع القدّ، يضطرّ إلى الانحناء كلّما دخل أو خرج من أحد الأبواب، وكان شارباه الكثيفان يلتفّان أعلى شفتيه. أمّا خزانة أدوات المائدة، فكانت صقيلة مدهونة بمادّة تبدو مثل الزيت.

فقال آدم:

ـ آ... آسف... يستحسن أن أمضي في سبيلي.

ـ إلى أين؟

ـ أ... أبحث... أ...

فهدر المختار:

ـ إنّ هذا البيت لم يرحّب بأحد قطّ.

وأدرك آدم رويدًا رويدًا أنّ هذا الرجل الكردي لم يكن غاضبًا منه، وأنّه لم يكن يصرخ بأعلى صوته، فصوته عالٍ بطبعه وأجشٌّ، كما أنّه لم يمارس الكلام باللغة التركيّة، فيبدو ثائرًا، على حين أنّه ليس بثائر.

ـ حسنًا، شكرًا لك. في الحقّ، إنّها ليلة واحدة.

ـ ليلة واحدة؟ لا يمكنك الرحيل مبكرًا، فثمّة حفل زفاف بعد يومين، ولا بدَّ لك من الانضمام إلينا ومشاركتنا، وإلّا فتلك إهانة لأسرة العريس.

أراد آدم أن يسأل: كيف يمكن للأسرة أن تشعر بالإهانة وهي لا تعرفني حقًّا؟ لكنّ العادات والتقاليد مختلفة في هذا الجزء من البلاد، فضلاً على أنّها أكثر وضوحًا، يضاف إلى ذلك أنّه لم يكن

لديه أيّ سبب يدفعه إلى العجالة في الرجوع إلى إسطنبول، كما أنّ ما من أحد يتطلّع إلى قدومه على وجه السرعة.

بقدر ما كانت حفلات الزفاف سعيدة، كما يبدو، إلّا أنّها كانت مبعثَ حزن لآدم منذ زمن بعيد، لأنّها كانت تذكّره على الدوام بوالدته عائشة، فاسمها لم يعد يذكره أحد في المنزل بعد الآن، وصورها أُتلفت وكأنّها لم تكن شيئًا مذكورًا، أمّا المخرّمات التي كانت تتقنها والمناديل التي كانت تنقشها والقلادات التي كانت يومًا ما تزيّن جيدها الطويل والقمصان والجوارب الطويلة ودبابيس الشعر التي كانت تضعها على رأسها... فقد أُحرقت عن بكرة أبيها في نار أضرمها بابا (السكّير).

إذًا، قَبِل آدم دعوة المختار، ولبث في القرية متخِمًا نفسَه بالزبدة الطازجة والقشدة اللذيذة والعسل الشهي. وفي عصر اليوم التالي، استسلم المختار للنوم بعد تناوله وجبة طعام الغداء، وانهمكت زوجته وبناته في تلميع الأواني النحاسيّة في المنزل، بينما انشغل أولاده بلعب النرد. كان آدم قد زار شقيقه في صباح ذلك اليوم، وكانت الزيارة أقصر هذه المرّة من سابقتها وإن لم تكن أقلّ رقّة في عاطفيّتها. ونسي آدم البقلاوة مرّة ثانية، ولمّا لم يكن لديه أدنى اهتمام بلعبة النرد، ولافتقاره إلى أيّ شيء آخر يعمله، فقد قرّر أنّ الأفضل له أن يخرج في نزهة.

تجوّل في أرجاء القرية وشاهد البيوت المتداعية المخلّعة الأوصال، والتصدّعات في الجدران، والأطفال الذين تنتشر القذارة من تحت أظافرهم، وآثار عجلات العربات والقوافل التي قطعت هذه الأرض من دون أن ترجع إليها ثانية. كلّ شيء قَفْرٌ

ومعرّض للريح وإن كان مُغْوِيًا وفاتنًا على نحو غريب. وصادف أثناء تجواله مجموعةً من الكلاب السائبة تتوسّط القاذورات، كشف أحدها، وهو من فصيلة كلبيّة ذات أسنان نابية، عن أنيابه، فيما بدت عيناه محتقنتين وجلده ميّالاً إلى اللون البرتقالي، وسرعان ما حذت بقيّة الكلاب حذو هذا الكلب، فكشّرت عن أنيابها وزمجرت وعوت وانتصبت آذانها إلى الوراء، فما كان من آدم إلّا أن استدار على عقبيه وأطلق ساقيه للريح وإن كان يعرف أنّ هروبه سيدفع بالكلاب إلى ملاحقته.

تقطّعت أنفاسه وهو يجاهد من فوق الدروب الموحلة من دون أن يعرف إلى أين يتّجه، إلى أن وصل في نهاية المطاف إلى بيت مكسوّ بالخضرة انتشر في حديقته الأماميّة الدجاج وصغار الدجاج، وشاهد شخصًا يجلس فوق سور الحديقة: نصف فتاة ونصف امرأة. ضحكت لمّا شاهدته جزِعًا، ونظرت إليه نظرة فاحصة، فما كان من آدم إلّا أن اندفع في متّجهها ودلف إلى الحديقة من دون أن يطلب الإذن بذلك، لائذًا بثقتها بنفسها.

ولم تصل الكلاب الحديقة إلّا بعد بضع ثوان، وحامت من حوله في جميع الاتّجاهات، واقترب أحد الكلاب منه اقترابًا يوحي بالخطر، ثم جثم في مكانه، وفي اللحظة التي كاد فيها أن يهجم على آدم، صفّقت الفتاة بيديها وهتفت في صوت هو مزيج من السلطة والبهجة، ونطقت بكلمات لم يستطع آدم أن يدركها، فكان لتأثيرها وقع السحر، إذْ هدأت الكلاب وجلست واحدًا تلو الآخر، مطأطئة رؤوسها، خائفة وذليلة.

حدّق آدم إلى منقِذته، منزعجًا لأنّ فتاة أنقذته، ولكنّه كان في

الوقت نفسه مرتاحًا من صميم أعماقه. كانت ثمّة غمّازة في خدّها الأيسر، وكانت ذات عينين واسعتين رائقتين بلون قاع بحيرة، في يدها قطعة من معجّنات سرعان ما عادت إليها وبدأت تلتهمها. وأدرك آدم أنّه لم يشاهد في حياته فتاة بمثل هذه الشهيّة للأكل.

سألته:

ـ هل تخاف الكلاب؟

لكنّه لم يجب.

فقالت:

ـ لو عرفت الكلاب أنّك تخافها لبثَّت الرعب في قلبك. حيوانات ذكيّة. أختي تحبّها.

ثم مالت إلى أمام وكأنّها تبوح بسرّ:

ـ أمّا أنا فلا أحبّها.

كانت الفتاة تتحدّث باللغة التركيّة بنبرة ثقيلة. وفكّر آدم في نفسه: إنّها فتاة كرديّة جاهلة، ربّما مبتلاة بالقُمَّل. ثم رشق ضفائر شعرها الجميلة بنظرة خاطفة، البنّيّة بلون الكستناء والتي ينبعث منها لمعان ذهبي وعنبري، واعترته رغبة شديدة لا سبيل إلى مقاومتها في لمس ضفائرها جعلته يرفع يده، ولكنّه توقّف في منتصف المسافة وقال:

ـ كيف تعرفين اللغة الكرديّة على حين لا يعرفها معظم القرويّين؟

ـ لقد تعلّمتها في المدرسة، وكذلك شقيقاتي كلّهنّ، فقد أصرَّ أبي على ذلك.

أنعم آدم النظر في البيت وفي الثياب والتنّورات والجوارب من فوق حبل الغسيل، وأضاف:

ـ كم أختًا لكِ؟

ـ أنا البنت الثامنة في الأسرة.

ـ عجبًا! أما من أولاد؟

فهزّت رأسها وغيّرت من الموضوع.

ـ هه! أتحبّ هذه المعجّنات؟ إنّها فطيرة وأنا التي صنعتها.

تناول قطعة الفطيرة التي ناولته إيّاها وغرز أسنانه في عجينتها المنتفخة والدسمة، إذْ لم يتوقّع أن تكون لذيذة إلى هذا الحدّ. ورفعت الكلاب بصرها إليه متوقّعةً شيئًا ما، وهزّت ذيولها. قضم الاثنان الفطيرة في صمت، بينما كانت عيون الكلاب تراقبهما مراقبة تكشف عن مدى تأنيبها لهما. وحار الاثنان كيف السبيل إلى مواصلة الحديث.

قال آدم عندما استعاد رباطة جأشه:

ـ إنّني أقطن في إسطنبول.

ـ حقًّا؟ الكلّ يقول إنّها مدينة جميلة.

فأجاب آدم بنوع من الزهو:

ـ هذا صحيح.

وشعر أنّه بدأ يميل إليها. ثمّة خفّة في سلوكها خلبت لبّه. كما أنّ العفويّة التي راحت تتكلّم بها هدّأت من روعه.

وعلى حين بغتة قالت:

ـ أتسمح لي أن أوجّه إليك سؤالاً؟

ولكنّها مضت في الكلام من دون أن تنتظر ردًّا منه:

ـ هل أنّ حجارة رصف الشوارع في إسطنبول مصنوعة من الذهب؟

وفكّر آدم في نفسه: أيّ فتاة هذه؟ لديها من الشجاعة ما يكفي لأن تواجه طائفة من كلاب متوحّشة ولكن في الوقت نفسه لديها من السذاجة ما يجعلها تصدّق مثل هذا الكلام الأجوف! ولكنّه على الرّغم من ذلك متيَّم بفتنتها، ووجد نفسه يقول:

ـ نعم، هي كذلك. إذا ما قُدِّر لك أن تتزوّجي شخصًا مثلي فيمكنك عندئذٍ السفر إلى إسطنبول لمشاهدة ذلك بنفسك.

فاحمرّت وجنتاها خجلاً، وسألت:

ـ ولماذا ينبغي لي الزواج؟

ـ لأنّ في وسعي أن آخذك إلى مكان بعيد.

ـ لا أريد الذهاب إلى مكان بعيد، فكلّ شيء متوفّر في هذا المكان، بل وأكثر من ذلك.

كان لا يزال يفكّر في كيفيّة الردّ عليها عندما انساب إلى سمعهما صوت امرأة قادمة من البيت، فوثبت على قدميها ووقفت قبالته وحدجته بنظرة ثاقبة، قبل أن تلتفت إلى الكلاب وتهزّ إصبعها في وجهها قائلة:

ـ اتركوه وشأنه!

ولمّا توارت عن الأنظار، بدأ آدم يشقّ طريقه في بطء كي يخرج من الحديقة، فراقبه زعيم الكلاب ونظر إليه نظرة ذات فحوى، وما أن مرَّ آدم أمامه حتى زمجر الكلب في وجهه، فارتعد،

وسقط من يده ما تبقّى من الفطيرة، وشعر بالأسى لمّا شاهد السكّر يمتزج بالتراب على الأرض.

ليس ثمّة أرصفة ذهبيّة في إسطنبول، ولا حتى في أيّ مكان آخر من العالم، ولا أحلام يركض المرء من خلفها، فهذه الأشياء لا توجد إلّا في الأساطير وقصص الجانّ. أمّا العالم الحقيقي بما فيه من أناس حقيقيّين، فهو أشبه بمزيج من السكّر والتراب، وله الطعم نفسه بهذا القدر أو ذاك. أفلم تعرف هي ذلك؟

* * *

حضر آدم الزفاف في اليوم التالي، وكان زفافًا لم يشاهد مثله من قبل، فقد امتلأ الفناء حتى فاض بالرجال من مختلف الأعمار وقد جلسوا في نصف حلقة، بينما كان أحد العازفين يقرع طبله وآخر يعزف على آلة الكلارينت. وكان الأطفال يركضون على هواهم من دون أن يهتمّ بهم أحد، والنساء يراقبن المشهد من فوق السطوح المستوية، وجوههنّ نصف مغطّاة وأيديهنّ تكسوها الحنّة. وتنبّه آدم إلى أنّ الرجال العزّاب كانوا حذرين لا يرفعون أبصارهم إلى أعلى، فلم يرفع بدوره بصره إلى أعلى، بل ظلّ ينظر أمامه.

وفي الجانب الآخر من المدخل، جلس والد العريس ووالد العروسة جنبًا لجنب من دون تبادل أيّ كلمة. أمّا الأقارب، فقد جلسوا على كلا الجانبين حسب مكانتهم أو درجة قرابتهم، في حين جلس العريس في الوسط، حيث يمكن لكلّ المدعوّين مشاهدتهم ما شاءت لهم المشاهدة. وكان العريس حليق الذقن، يبتسم بين الفينة والفينة، وكانت تصعب معرفة شعور العروسة، لأنّ وجهها كان مخفيًّا من وراء خمار قرمزي برّاق، وكانت إحدى

النساء تقترب من وقت لآخر منهما على رؤوس أصابعها حاملة شيئًا ما تشربه العروسة بعد أن ترفع الخمار قليلاً كي ترشف من دون أن تسكب أيّ شيء على ثيابها، ومن دون أن يراها أحد.

كان آدم قد قرّر الجلوس في ركن هادئ عندما تنبّه له المختار وصاح به مشيرًا إلى المقعد المجاور له:

ـ تعال واجلس بجانبي يا فتى المدينة!

وهكذا، ذهب آدم وجلس منفرجَ الأسارير ومستمتعًا بالاحتفال، إلى أن أخرج الرجل الجالس بجانبه مسدّسه وبدأ يطلق العيارات الناريّة في الهواء، وسرعان ما حذا آخرون حذوه. الصوت يصمّ الآذان، ونفذت رصاصة إلى سطح أحد البيوت القريبة تاركة ثقبًا فيه، وانهال الغبار من بين الألواح الخشبيّة. انتاب الذعر آدم وخاف أن يُصاب بإطلاقة، فما كان منه إلّا أن رشق المكان بنظرة عابرة، في هلع وجزع، وفي غمار الفوضى الضاربة أطنابها في المكان، حبس أنفاسه لمرآها واقفة فوق أحد السطوح المستوية ترمقه بنظراتها، رابطة الجأش، هادئة، مدركةً ـ على ما يظهر ـ أنّها الشيء الوحيد الهادئ في عالم خارج عن السيطرة.

وما أن هدأ إطلاق النار حتى طلب آدم الإذن وخرج يبحث عن مرفق صحّي، وإنْ كانت بغيته الحقيقيّة إيجاد سبيل ما للحديث إليها. وما أن خرج من البوّابة الرئيسة حتى لمحها جالسة على مقربة من بئر، منهمكة في إعداد قدر عظيم من شراب اللبن. متى هبطت من فوق السطح؟

قال:

ـ تسرّني رؤيتك ثانية.

فنظرت إليه في برود:

ـ ماذا تقول؟

خيّل لآدم أنّها تتظاهر بعدم رؤيته قبل الآن لأسباب ذات صلة بالحشمة والتحفّظ، وهي بلا شكّ أسباب مطلوبة من امرأة شابّة في مثل هذا المكان، فما كان منه إلّا أن قرّر أن يجاريها في لعبتها وقال:

ـ معذرة. كان ينبغي لي ألّا أتطفّل وأزعجك. المؤكّد أنّك لا تعرفينني. اسمي آدم. هلّا عرّفتِني باسمك؟

أجابت في حدّة متسائلة:

ـ ولماذا أخبرك باسمي؟

ثم لوت شفتيها وبانت الغمّازة من على وجنتها اليمنى. كانت عيناها مختلفتين في هذا اليوم، العينان نفسهما ولكنّهما متغيّرتان، تومضان وميضًا ينمّ عن تشامخ، أو هكذا لاحتا له. وفي طرفة عين، خُيِّل إليه أنّها تهزأ به، فما كان منه إلّا أن اعتذر ومضى في سبيله، وتبوّل وراء إحدى الأشجار وهدّأ من روعه قليلاً، وعاد إليها ليجد أنّها قد انصرفت ولم تعد قرب البئر.

كانت العروس تتهيّأ للذهاب إلى منزلها الجديد بعد أن امتطت جوادًا بلون العاج يجرّه أحد الغلمان، في إشارة إلى أنّها سوف ترزق بالبنين أيضًا. وكان شعر عنق الجواد مزيّنًا بأشرطة قرمزيّة وحبّات الخرز لطرد العين الشرّيرة، في حين كان ذيله مضفورًا. وفي حين سار خلف الجواد حشد من الأولاد وطائفة من النساء

يصفّقن ويزغردن، استعدّ الضيوف من الرجال للجلوس لتناول عشاء الزفاف. وحمل الشبّان صواني الطعام النحاسيّة الدائريّة والكبيرة إلى داخل المنزل. ولمّا قفل آدم راجعًا، بات في مستطاعه أن يشمّ رائحة أقراص الخبز واللحم، وعندما دخل الفناء شاهدها مرّة أخرى. كانت تبدو مسرعة، حاملة طفلاً يبكي.

اعترض آدم طريقها وسألها:

ـ لماذا أنت غاضبة منّي؟

قالت مقهقهةً:

ـ ماذا؟ لماذا أغضب منك؟

بدا الطفل مأخوذًا بين ذراعيها، إذْ لزم الهدوء فجأة.

ـ لماذا لم تخبريني باسمك إذًا؟

فابتسمت له وهي تدسّ خصلة متدلِّية من شعرها في داخل وشاحها الفضفاض وقالت:

ـ لأنّك لم تسألني عن اسمي، ولكن بما أنّك تسأل الآن، فإنّ اسمي هو جميلة.

فأومأ برأسه ممتنًّا لها.

ـ وما اسمك أنت؟

فقال هامسًا:

ـ ولكنّني أخبرتك به قبل قليل.

انفرجت أساريرها وقالت:

ـ لعلّك كلّمت أختي التوأم بمبي. متى رأيتَها؟

بدأ إطلاق الأعيرة الناريّة من جديد وكأنّ سؤالها هو الذي حفّزه، على حين انفجر الطفل الصغير في البكاء، فاضطرّت جميلة إلى الخروج من الفناء. أمّا آدم، فقد مكث واقفًا في مكانه ذاهلاً إلى حدٍّ ما، ولكنّه مرتاح أيضًا. توأمان! نعم، هذا يوضح كلّ شيء: السلوكَ الفظّ والنظرةَ الجامدة. ليست تلك جميلة، ليست جميلته.

وعند المساء وقف آدم بجانب النافذة مراقبًا ضوء القمر من على السطوح ملقيًا أشعّته الفضّيّة على القرية برمّتها. كانت أنوار المنزل تشبه وميض حافّات سكائر، وانتابه السرور لأنّه سيرحل عن المكان قريبًا. لكن ماذا سيفعل من دون جميلة؟

وذهب لزيارة المختار، فوجده في ثياب النوم يدخّن نارجيلته. ثمّة مصباح زيتي بجانبه يعكس ظلالاً من على الجدران على عينيه، فيتسبّب في ظهور تجاويف من تحتها.

ـ أريد أن أقدّم لك هذه البقلاوة وأن أعبّر لك عن شكري وامتناني لضيافتك و...

لكنّ المختار قال في صوت واهن:

ـ آه، لا يمكنني أكل البقلاوة. أتمنّى لو كان ذلك في إمكاني، لكنّني مُصاب بداء السكّر.

رشق آدم علبة البقلاوة التي كان يحملها في يده بنظرة طويلة، فربّما ستكون من نصيب شخص آخر. ثم أخذ نفسًا عميقًا وعزم على معالجة الموضوع معالجة غير مباشرة، إلّا أنّه لم يجد سبيلاً إلى ذلك الآن.

ـ في هذا اليوم، شاهدتُ فتاة أثناء الزفاف.

ـ فتاة؟

راقب آدم وجه الرجل في بطء عندما رفع حاجبيه إلى أعلى مدركًا هدفه ومفكّرًا في نفسه: آه يا الله! يظن الفتى أنّه أسير الغرام!

ثم حثّه على الكلام قائلاً:

ـ أخبرني عن هذه الفتاة. ما اسمها؟

فردَّ آدم وهو يحسّ بوجهه يتّقد نارًا:

ـ جميلة... ذات الشعر الكستنائي الطويل والعينين الخضراوين الواسعتين.

لكنّ المختار هزَّ رأسه وهو يأخذ نفسًا من نارجيلته:

ـ كلّا. ليس في هذا المكان مثل هذه الفتاة.

ـ تتكلّم التركيّة.

ـ آه... أظنّني عرفت ماذا تعني. بنات بيرزو. لقد التحقن كلّهنّ بالمدرسة. هل تعني بس جميلة؟

ـ بس جميلة؟

قال المختار موضحًا:

ـ نعم، هي وأختها التوأم. لقد سُمِّيتا مرّتين. بخت بمبي وبس جميلة.

لكنّه لم يوضح أكثر. ثم أضاف:

ـ انظر إليَّ! أنت أصغر سنًّا من أن تعرف هذه الأمور، لكنّ حبّ الرجل يعكس شخصيّته.

أصغى آدم من دون أن يعلم معنى كلام المختار.

ـ إنْ كان الرجل محبًّا للخصام فسوف يكون حبّه مفعمًا بالشجار. وإنْ كان رائق المزاج، هادئًا وعطوفًا، فإنّ حبّه بلسم. وإذا ما اضطرّ إلى الإحساس بالشفقة على نفسه طوال الوقت، فسوف ينهار حبّه ويتحوّل إلى غبار. وإذا كان فتًى مرحًا، فسوف يكون حبّه مفعمًا بالفرح والسرور.

قال آدم:

ـ حسنًا، إنّني رجل صالح.

قال المختار:

ـ الرجل الصالح الوحيد الذي أعرفه كان النبي محمّدًا ﷺ. على أيّة حال، لبيرزو عديد الفتيات، والتقاليد تستوجب تزويج الفتاة الكبرى أوّلاً. أمّا جميلة فهي الأصغر سنًّا. لكنّني أستطيع أن أرى أنّ هذا الزواج مثالي. لقد مرّت الأسرة بأوقات شديدة وصعبة، فقد توفّيت الأمّ نازي أثناء الولادة. يا لها من امرأة مسكينة. كم كانت تتمنّى أن تنجب ولدًا. وتزوّج بيرزو من جديد، ولكنّ الزوجة الجديدة لم تنجب له أطفالاً بعد. ثم هناك البنت الكبرى هديّة...

ـ ماذا حدث؟

ـ ذلك الرجل محكوم بقدر مشؤوم يا بني. ربّما يرغب في تزويج البنات في عجالة، وربّما ليست جميلة مضطرّة إلى الانتظار.

وهنا انفرجت أسارير آدم عن ابتسامة. ثمّة أمل على أيّة حال، وإن كان أملاً ضعيفًا.

فهمس المختار:

ـ ولكن لا تنسَ أنّ الأسرة فقيرة، وقد لا يوافق والدك وإخوتك على الزواج بعروس كرديّة، بقرويّة. من جهة ثانية، لا تملك أسرتك سمعة طيّبة ما دام أنّ والدتك قد هربت رفقةَ رجل آخر. ربّما يستحسن بك أن تختار امرأة من هذا المكان، وإن كان ذلك من غير المألوف.

وعلى حين بغتة اكفهرّ وجه آدم، إذْ لم يَدُرْ في خلده قطّ أنّ هذا الرجل يعرف عن العار الذي لحق بأسرته. الكلمات كالقبائل الرحّل، بلا عنوان ثابت، وهي ترحل إلى كلّ الجهات، منتشرة في أنحاء الأرض.

عشق كالمذنَّب

مكان على مقربة من نهر الفرات، كانون الأوّل، ١٩٧٧

غفت جميلة غفوة خفيفة في هدأة الليل بجوار المدفأة مائلة الرأس إلى أحد الجانبين، تتدلّى يدها اليسرى من فوق حافّة الكرسي بينما كانت يدها اليمنى تمسك بثباتٍ رسالةً. لقد استسلمت للنعاس أثناء قراءة الرسالة للمرّة الخامسة.

كان نومها غيرَ مريح، يحتشد بالشياطين، واندفعت الدماء إلى وجنتيها فاحمرّتا، واكتسى وجهها بطبقة رقيقة من العرق وومض. رأت في الحلم أنّها في بلدة بدت لها مألوفة من جهة ولا تشبه أيّ بلدة أخرى في العالم. كان ثمّة نهر يجري في وسطها، واسع، متمرّد، تتلاطم المراكب وتصطدم في مراسيه، مراكب من مختلف الأحجام، تعلو وتهبط، ووجدت جميلة نفسها وحيدة على واجهة الماء تختلس النظر إلى أحد مراكب الصيد، وثمّة جمهرة من الأهالي داخل قمّرة المركب، وجوههم مكسوّة بالوجوم وأجسادهم دبقة وتبدو قادرة على التكيّف أو التأقلم، مطواعة وكأنّها مصنوعة

من شمع، وكانوا يتحدّثون بحماسة. . . عنها.

وندّ عن شفتي جميلة ما يشبه الأنين والحسرة، ولاحظها أحد الرجال ـ وهو رجل يشبه آدم شبهًا عجيبًا ـ فنبّه الآخرين، فهاجوا وماجوا من دون سبب يذكر، ومضوا مسرعين من فوق المركب وهبطوا إلى رصيف الميناء يطاردونها، فما كان منها إلّا أن ركضت بأقصى ما تستطيع، واجتازت أزقّة ملتوية وساحات مكسوّة بالحجارة، غير أنّها سرعان ما شعرت بالتعب والإرهاق، وغدت قدماها أثقل من كتل إسمنتيّة.

تستيقظ جميلة عندما يحاصرها مطاردوها في نهاية المطاف في زقاق لا منفذ له، وعندما تقذف نفسها بكلّ قوّتها. . . وتخرج من الحلم لاهثة، ولكنّها كانت حتى تلك اللحظة لا تزال في حلمها، في بلدة الكابوس.

الهواء في الكوخ يبدو فاسدًا ونتنًا، آخر قطعة خشب في المدفأة تصدّعت وتحطّمت وتحوّلت إلى نيران ملتهبة، مرسلةً بذلك رذاذًا من شرر ذهبي اللون يشبه غبارًا ينبعث من عصا ساحر. أمّا خارج الوادي، فكان ثمّة طائر يصيح بأعلى صوته.

ثمّة وقْعُ أقدام، ولكنّها بعيدة، غير واضحة، ولم تسمعها جميلة، فهي لا تزال تهرب للنجاة بحياتها بعد أن انعطفت وولجت شارعًا مسدودًا. في هذه اللحظة، بدا وجه جميلة أكبر سنًّا من وجه تلك المرأة البالغة من العمر اثنين وثلاثين عامًا. ثمّة تجاعيد من حول رقبتها وخطوط مائلة تشبه حروفًا أبجديّة مبهمة محفورة بإزميل على الخشب. الحقّ أنّها لم تعد تحسّ أنّها شابّة منذ سنين.

وبهزّة مفاجئة، ارتجّ جسد جميلة وجُذب إلى الخلف،

فاستيقظت، وظهرت على خدّها آثار لوح الكرسي المحفور، وشعرت بألم فظيع يسري في كتفها الأيسر، فلم تتجرّأ على الحركة أوّل الأمر، ثم بدأت تمسّد أطرافها المتصلّبة بإحدى يديها بينما كانت ممسكة بالرسالة بيدها الأخرى. حدجت الورقةَ بنظرة طويلة وكأنّها نسيت أمرها، ولكنّ الرسالة كانت حقيقيّة، ماثلة أمامها، على العكس من المراكب التي راودتها في حلمها، حقيقيّة مثل الجبال المحيطة بها، ولكنّها مثقلة بالاحتمالات. وبدأت جميلة تقرأها من جديد:

أختي. منذ أن جئت إلى هذه الجزيرة التي لم أشاهد فيها البحر بعد، فقد تمنّيت مرّات ومرّات أن تكوني بجانبي. ولكنّني لم أتمنَّ ذلك قدْرَ ما أتمنّاه الآن. فلو كنتِ هنا، لوضعتُ رأسي في حضنكِ وأخبرتك أنّني لم أسقط. فهل ستمسكين بي؟

آدم لم يعد زوجي، فهو لا يأتي إلى المنزل منذ زمن ووجد له امرأة أخرى. الأطفال يجهلون أمره، لأنّني أُبقي كلّ شيء في داخلي سرًّا دائمًا. قلبي يحتشد بكلمات لم أتفوّه بها، وبدموع لم أذرفها. إنّني لا ألومه، بل ألوم نفسي. كانت أكبر غلطة في حياتنا أنّني أصبحت أنا عروسه بدلاً منك. صحيح أنّه لم يحبَّني على النحو الذي أحبّك، لكنّه رجل مفعم بالحسرات ويفتقر إلى الشجاعة. إنّني أشفق عليه.

كم أتمنّى لو عدنا أطفالاً من جديد. أنا وأنت. نسرق النقود من نافورة الأمنيات. آه لو كنّا نعرف يومئذٍ ما نعرفه الآن.

هل أخبرتك عمّا قاله آدم لي يومًا؟ قال: «ليتني كنت أملك ممحاة سحريّة، لأنّ ثمّة أشياء كثيرة أحبّ أن أغيّرها». وقد عرفت

أنّه كان يعنينا بكلامه، وإن لم يعترف صراحةً بذلك. ما كان ينبغي لي الزواج مطلقًا. صحيح أنّ الأمر لم يكن في يدي ولكنّني لم أحاول الحيلولة دونه. لا، لم أحاول حقًّا، فأنا شخصيًّا كنت أبغي الخروج من القرية. كان تذكرتي إلى أماكن أخرى. لا بدّ أنّك منزعجة منّي يا جميلة. لو كنت مكانك لانزعجت حقًّا.

هل فكّرتِ يومًا بأختنا هديّة؟ قبل أيّام صنعتُ حلاوة على روحها ووزّعتها على جيراني، فاستبدّت بهم الدهشة قليلاً لأنّهم لا يعرفون شيئًا عن عاداتنا. عارٌ علينا أنّنا لم نحزن عليها على النحو المطلوب. أتشعرين بمثل هذا الشعور؟

نصفك المحبّ: بمبي

نهضت جميلة وهي تفرك ما تصلَّبَ من راحتَيْ كفّيها واقتربت من النافذة واختلست نظرة إلى أعماق الليل. ظنّت أنّها سمعت صوتًا ولكنّها ارتابت في ذلك بعد أن أصاخت السمع في عناية أكبر. تنهّدت وعادت أدراجها ووضعت الغلّاية فوق المدفأة وبدأت تعدّ الشاي.

* * *

كان آدم قد قال: «ثمّة نجوم كثيرة في السماء في هذه الليلة».

كان ذلك في مساء شديد البرودة من مساءات العام ١٩٦١.

اقترب آدم منها أكثر، عيناه تنقّبان في وجهها، وأخبرها أنّ بعض العشّاق يشبهون أشدّ النجوم لمعانًا، يستدرجون بني البشر ويملأون الأفئدة أملاً وبهجة حتى في الأوقات العصيبة. وثمّة

عشّاق آخرون يشبهون درب اللبانة، تطاردهم أشباح أسلافهم.

وسألت جميلة:

ـ وحبّنا؟ أهو نجمة أيضًا؟

جفل آدم من سهولة التفوّه بهذه الكلمات. كان مستغرقًا في التفكير لا يعرف كيف يخبرها أنّه يحبّها، ولكن ها هي تنطق بذلك بنفسها. إنّها أشدّ جرأة منه، وأكثر شجاعة. أمّا هو، فإنّه يرى كلّ شيء يحدث في سرعة بالغة، تاركًا إيّاه ذاهلاً ومرعوبًا في الوقت ذاته. ومع هذا، فليس من وقت للانتظار، للّحاق، لا وقت للتنزّه متماسكي الأيدي، ولا وقت لتبادل قبلات خاطفة، ولا وقت كي يتعرّف أحدهما على الآخر.

قال منفرج الأسارير:

ـ حبّنا نجمة من النجوم ذات ذيل مزدوج عظيم. أتدرين ما ذلك؟

فهزّت جميلة رأسها نافية، فقال:

ـ إنّه مذنَّب.

ـ مذنَّب. . .

ثم نهضت من مكانها وهي لا تزال تكرّر النطق بالكلمة، وجذبت المنجل من فوق الحائط وقصّت خصلة من شعرها الطويل.

فسألها آدم دهشًا:

ـ لي أنا؟

ـ سوف تُذكّرك بي. احتفظ بها معك على الدوام.

في وجهها حبّ وقلق وانشغال بال، وشيء ما لم يسبق له أن رآه في أيّ وجه آخر: الثقة.

وقال:

ـ لست بحاجة للاحتفاظ بها، لأنّك سوف تبقين بجانبي طوال الوقت.

غير أنّه وضع هديّتها في جيبه، كأنّه لم يصدّق كلماته.

وبعد مرور سنين، سوف تتعلّم الشيء الكثير عن المذنّبات وعن أسباب إمكان اصطدام أحدهما بالآخر. وعلى الرّغم من أنّ آدم قد لا يكون مدركًا لهذا الأمر في ذلك الوقت، إلّا أنّها بدأت تدرك أنّهما كانا مثل مذنّبين، ينطلقان في سرعة رهيبة ليصطدم أحدهما بالآخر، تاركَيْن من ورائهما عبء وعود لم يوفَّ بها وأحلام لم تتحقّق.

* * *

رفعت جميلة إبريق الشاي من فوق النار وصبّت الشاي في أقداح صغيرة، وقبل أن ترشف رشفتها الأولى، وضعت مكعّبًا من السكّر في فمها وبدأت تمصّه وهي مستغرقة في التفكير، شاردة الذهن، ثم أمسكت القلم في قوّة غير ضروريّة، كما يمسكه من لم يتعوّد الكتابة. وبخلاف أخواتها، اللواتي كنّ يكتبن بالتركيّة تارة وبالكرديّة تارة أخرى، فقد تمسّكت بالكتابة باللغة الكرديّة وحدها:

عزيزتي بمبي، لحمي ودمي، نصفي الآخر، وشوقي الذي لا ينتهي. أنا لا أغضب منك أبدًا. لقد خلق الله روحينا هو وحده. في هذه الأيّام أستيقظ مفعمة بالحزن والكدر. ثمّة شيء ما يحدث.

لا أستطيع النوم في فراشي بعد الآن. كوابيس. لكنّها تنتهي، فلا داعي لأن يساورك القلق.

وضعت جميلة القلم جانبًا، فقد ارتخت يدُها وتغضّن جبينها. في إمكانها أن تسمع أناسًا يقتربون من الشمال الغربي، وخمّنت أنّهم ثلاثة أو أربعة زوّار. يمكنها أن تتيقّن ذلك من صوت الأغصان تحت أحذيتهم الثقيلة، وصوت الحصى التي يدفعونها نحو الوادي الممتدّ إلى أسفل.

قد يكونون جنودًا، وقد يكونون قطّاع طرق، قد يكونون أيَّ شيء. اختلست جميلة نظرة إلى الباب فوجدته موصدًا بالرتاج، والنوافذ مغلقة بألواح خشبيّة تآكلت بالدود. وضعت وشاحها على رأسها، وجذبت بندقيّتها من فوق الجدار. هذا كلّ ما تستطيع عمله.

أرادت أن تفرغ من كتابة الرسالة، فهي مضطرة إلى أن تخبر بمبي أكثر وأكثر عن مشاعرها التي تؤرقها من الداخل، وأن تحذّرها من إتيان أيِّ عمل ينمّ عن عدم الاكتراث أو غير مناسب في خصوص زواجها. لكن هل كانت بمبي حذرة يومًا ما في حياتها؟ إنّ شقيقتها التوأم، تلك الفتاة النحيلة التي كانت تطرح على الدوام أسئلة مستحيلة، وتريد أن تعرف السبب الذي يجعل جذور الأشجار غائرة في التربة وليست فوقها فيمكنها بذلك شرب مياه المطر، نضجت وكبرت ولكنّها لم تتغيّر.

فكّرت تفكيرًا عميقًا، وكان القلق يساورها على شقيقتها ذات الوجه المشابه للكتاب المفتوح، فكلّ ما كانت تشعر به بمبي، من أصغر شعور إلى أدنى حزن، إنّما يبدو على وجهها، فإذا لم تتمكّن

من إخفاء أشدّ العواطف تقيّدًا، فكيف يمكنها أن تخفي لامبالاتها تجاه زواجها عن أيّ شخص؟

اقترب صوت وقع الأقدام خارج المنزل إلى أن توقّف عند بابها. ثمّة طرق هو الأخفّ، طرق على استحياء ولكنّه ثابت، فأخذت جميلة نفسًا عميقًا وتمتمت بدعاء سريع وفتحت الباب.

رأت جميلة ثلاثة رجال وكلبين عند أقدامهم. كانوا قاطعي طرق، خارجين على القانون. هذا ما أدركته جميلة منذ البداية: ثمّة نتف من الثلج على شواربهم وكأنّها قطرات ماء متجمّدة وعالقة بحافّات ناتئة. تقدّم أحد الرجال الثلاثة إلى أمام، وكان رجلاً متين البنيان، غائر العينين، أحد أسنانه مغلّف بالذهب. تذكّرت جميلة أنّها قد رأته من قبل: إنّه زعيم العصابة.

قال قاطع الطريق في اقتضاب:

ـ إنّها زوجتي. عليك مرافقتنا.

ـ متى بدأ الألم؟

ـ قبل ساعتين، وربّما أكثر.

أومأت جميلة برأسها وأخذت معطفها وبندقيّتها ولحقت بهم.

وفي وقت متأخّر من الليلة، وجدت نفسها في منزل متداعٍ تحتشد ثقوب الرصاص على بابه، ويمتدّ سقف معدني من فوقَ المدخل. كان وجه المرأة مغطًّى بالدم والعرق، تحمل بين يديها أغرب طفل تشاهده حتى الآن.

كان الطفل بنتًا، أو إذا توخّينا الدقّة، بنتًا ونصف البنت، لأنّ ثمّة جسدَ ولدٍ ملتصقًا بصدرها وبطنها.

كان الطفلان قد بدآ رحلتهما في رحم الأمّ توأمين، لكن أحدهما نما في حين توقّف الآخر عن النموّ في منتصف الطريق، كأنّه خشي المجيء إلى هذا العالم فغيّر رأيه، غير أنه ظلّ ملتصقًا بتوأمه.

وقالت جميلة:

ـ لا بدّ من الذهاب إلى المدينة لإجراء عمليّة جراحيّة، إذْ ينبغي فصل الجسد الثاني، وعندئذٍ ستكون الطفلة على ما يرام.

تسمّر قاطع الطريق في مكانه وضاقت عيناه وبدا غيرَ مصدِّق وغير موافق في آن. وقال:

ـ أهو نذير شؤم؟

لم تتوقّع جميلة هذا السؤال إلّا قليلاً، فردّت في رقّة وطيبة:

ـ إنّه ليس نذير شؤم. إنّ مثل هذه الولادات نادر، ولكنّه يحدث، فبعض التوائم لا يستطيع الانفصال.

فقال وكأنّه لم يسمع كلمة ممّا تفوّهت به:

ـ ثمّة معزة بخمس قوائم. هكذا ولدت.

فقالت جميلة مدركة أنّها لا تجد إلّا كلمات قليلة تتفوّه بها لطمأنة هذا الرجل الجبلي.

ـ إنّ طفلتك هذه ذات خصوصيّة، وهي في حاجة إلى حبّك، وإذا ما قال لك شخص آخر خلاف ذلك، فإنّه ليس صديقك. هل فهمت؟

أشاح الرجل بنظره جانبًا.

ولكن عندما قفلت جميلة راجعة إلى بيتها، منهكة ولكنّها غير

قادرة على النوم، فكّرت إن كانت تلك الولادة نذير شرّ، ليس على قاطع الطريق وأسرته ولكن عليها، فجلست وأكملت الرسالة التي كانت قد بدأت كتابتها لأختها:

عدتُ قبل قليل على أثر ولادة صعبة: توأمان ملتصقان، أحدهما ميّت والآخر حيّ. لو كنتِ هنا لتساءلتِ: «ما السبب في سماح الخالق بحدوث مثل هذا الشيء؟ إنّه ظلم». ولكنّني لا أنظر إلى الحدث مثل هذه النظرة، بل أستسلم وأؤمن به من دون قيد أو شرط، وأبذل قصارى جهدي لمساعدة أهلي وقومي.

إنّنا لا نستطيع محو الماضي يا عزيزتي، فذلك ليس في وسعنا، فأنا لم ولن أغضب منك أو من آدم. هل في وسعك إيقاف ريح عاتية من الهبوب؟ هل في وسعك تبديل لون الثلج إلى أيّ لون آخر عدا اللون الأبيض؟ إنّنا نتقبّل بكلّ بساطة عجْزَنا أمام الطبيعة، ولكن لماذا لا نعترف بأنّنا لا نستطيع تغيير قدَرَنا؟ الأمر ليس مختلفًا.

لو قادنا الله إلى طرق مختلفة فلا بدّ من سبب لذلك. حياتك تكمن في ذلك الطريق، وحياتي تكمن في هذا الطريق، وعلينا أن نقبل ذلك. ولكنّني قلقة بشأن زواجك. ألا يمكنك بذل ما في وسعك كي ينجح زواجك؟ عليك أن تفعلي ذلك من أجل أطفالك.

ذكرتِ هديّة الغريبة. إنّني أفكّر في أمرها كثيرًا، خاصّة مؤخّرًا.

أختك الحبيبة دائمًا

جميلة

لا حكمة بلا غباوة

قرية على مقربة من نهر الفرات ١٩٦١

انطلق صوت المؤذّن عصرًا في أرجاء القرية الكرديّة الصغيرة، فأصغى آدم له، وغمره إحساس رهيب، فالوقت يمرّ متثاقلاً، مؤلمًا، ولكنّه كان سريعًا في الوقت ذاته، إذْ قرّر تأجيل عودته إلى إسطنبول بضعة أيّام أخر، وإنْ كان لا يقدر على تأخيرها أكثر من ذلك، فتوجّه إلى المسجد رفقة المختار وصلّى للمرّة الأولى منذ أن رحلت أمّه عن المنزل.

وهمس آدم وهو يجلس من فوق سجّادة الصلاة:

ـ يا الله! أعرف أنّني لا أصلّي دائمًا، ولم أصم في شهر رمضان المنصرم ولا حتى في شهر رمضان الذي سبقه. ولكن أرجوك ساعدني يا إلٰهي، ولا تترك عينَيْ جميلة ترى شخصًا آخر غيري إلى الأبد.

وسأله المختار عندما خرجا من المسجد إلى نور النهار الساطع:

ـ أأنت على ما يرام؟

كان الهواء باردًا على الرّغم من أشعّة الشمس.

ـ أريد الزواج بها؟

ـ ألست صغيرًا على الزواج؟

ـ بلغتُ من العمر ما يؤهّلني للزواج.

ـ صحيح، ولكن لا عمل لديك، ولم تؤدّ الخدمة العسكريّة، فلماذا العجالة؟

كان آدم قد ذهب في اليوم السابق لزيارة شقيقه خليل في الثكنة العسكريّة، وتمكّن بمساعدته من إرسال برقيّة إلى طارق في إسطنبول:

التقيتُ يا أخي فتاة. الفتاة الوحيدة. أعرف أنّني ما زلت شابًّا، لكنْ هذا هو أمر الله. سوف أتزوّجها. بحاجة إلى بركاتك. وإلى مالك.

لم يخبر آدم المختار بهذه التفاصيل، بل قال له:

ـ عثرت على فتاة طالما كنت في انتظارها ولسوف أموت إن لم أمتلكها.

ـ عليك أن تكلّم والدها في هذه الحال.

ـ وإذا قال إنّه لا يريد مقابلتي؟

ـ لا تقلق، سوف أكلّم بيرزو عنك، فهو لن يأكلك.

وسأل آدم بعد وقفة قصيرة:

ـ لماذا تساعدني؟

فندّت عن المختار ضحكة قصيرة خافتة وقال:

ـ لا بدّ لشخص ما أن يساعدك، فأنت كما يبدو غير قادر على فعل شيء من دون مساعدة.

كان اللقاء بوالد جميلة أسهل ممّا كان آدم يتصوّر، غير أنّ طرح الموضوع بدا مستحيلاً. وبما أنّ بيرزو كان أصلاً صموتًا، قليلَ الكلام، فإنّه بعد وفاة زوجته وابنته هديّة أضحى أكثر سكوتًا من ذي قبل. لهذا، عندما زار آدم بيت جميلة وإلى جانبه مختار المحلّة وعلبة البقلاوة تحت إبطه، وجد أمامه رجلاً متجهّم الوجه، كئيبًا، عاقد الحاجبين، كامد النظرات.

وبعد أن قُدم للرجلين الشاي والتين المجفّف قال آدم:

ـ أتيت إلى هنا لأكلّمك بخصوص ابنتك.

ثم تذكّر أن للرجل عديد البنات، فأضاف:

ـ أعني ابنتك جميلة. بس جميلة.

فقال الرجل في لغة تركيّة غير سليمة:

ـ لا تنطق بهذا الاسم.

فتلعثم آدم وهو يقول:

ـ معذرة...

سمح والد جميلة لنفسه أن يتلفّظ بسلسلة من الكلمات باللغة الكرديّة ترجمها المختار باقتضاب: يقول إنّ والدة البنت الراحلة هي الوحيدة التي يمكنها أن تسمّيها بالاسم «بس».

راود آدم إحساس بالشفقة على الذات اقترب من الشعور باليأس. غير أنّ المختار تدخّل في الحديث لحسن الحظّ:

ـ صحيح أنّ هذا الرجل الشاب غريب عن أهل الحيّ، ولكنّه رجل شريف وينحدر من أسرة شريفة، فأنا أعرف والده. إنّ هدف آدم طاهر وشريف ويرغب في الزواج بابنتك.

تكلّم والد جميلة باللغة الكرديّة مرّة أخرى، فترجمها المختار إلى حدٍّ ما قائلاً:

ـ أيّ زواج هذا؟ أين والداك؟

فكذب آدم وهو يقول:

ـ أمّي وافتها المنيّة ووالدي مريض.

كان النصف الثاني من العبارة صحيحًا.

ـ ولي أخوان اثنان، الأكبر وهو طارق، ويقوم مقام أبي، وقد أرسلت له برقيّة قبل قليل.

استقرّ صمت ثقيل الوطأة، فرشف الزائران شايهما وتناولا تينهما. وأخيرًا قال والد جميلة:

ـ لا يمكنك الزواج بها، فقد طلب أحدهم يدها قبلك.

فقال آدم في حدّة:

ـ ماذا؟

لماذا لم تخبره؟ قالها ملتفتًا إلى المختار، الذي تحاشى نظراته. واسترسل بيرزو يتحدّث بلغة تركيّة غير سليمة مرّة أخرى:

ـ إنّها مخطوبة لأحد أقربائها، وسوف يتزوّجان في العام المقبل.

ـ ولكن...

ـ إذا أردت أن تتزوّج ببنت من بناتي، فعليك الزواج ببمبي.

إنّهما متشابهتان، وإذا ما راقت إحداهما في عينيك فسوف تروقك الأخرى أيضًا.

فهزّ آدم رأسه وعيناه تنطقان تحدّيًا:

ـ لا، أريد جميلة. إنّها في فؤادي. أمّا بمبي فيمكنك تزويجها إلى قريبك.

كاد آدم أن يتجاوز خطًّا ولكنّه لم يستطع.

رشف بيرزو ما تبقّى له من شاي وتلمّظ بشفتيه متذمّرًا إلى حدٍّ ما، وقال:

ـ لا يمكن. هذه كلمتي الأخيرة.

عندما خرج الزائران من المنزل وأصبحا في الحديقة، رفع آدم يديه إلى أعلى وانفجر في وجه المختار قائلاً:

ـ ما الذي يحدث هنا؟ لا بدّ لك من أن تفسّر لي. ما الذي تخفيه عنّي؟

أخرج المختار كيس تبغه وبدأ يلفّ سيكارة، وقال:

ـ في العام الماضي، كانت شقيقة جميلة الكبرى كميلة توشك على الزواج، ولكن قبل الزفاف بوقت قصير حدث شجار بين الأسرتين. لا أتذكّر اليوم سبب الشجار، ولكنّه انقلب إلى شجار مقرف وبذيء، فما كان من بيرزو إلّا أن ألغى الزواج، فانزعجت أسرة العريس انزعاجًا شديدًا دفعها إلى خطف جميلة انتقامًا.

شهق آدم متسائلاً:

ـ ماذا؟

ـ واحتفظوا بها بضعة أيّام، فاضطر بيرزو إلى أن يرسل في

أثرهم ويمنحهم موافقته على تزويج كميلة، فما كان منهم إلّا أن أعادوا جميلة مقابل ذلك.

ـ وهل... ألحقوا أيّ أذًى بها؟

ـ هه! لا أحد يعرف ذلك. قالوا حينئذٍ إنّهم لم يضعوا يدًا عليها، ولكنّهم ماكرون لا يُعتمد عليهم، كما أنّ الفتاة نفسها لم تقل شيئًا. وقد ضربها والدها مرّات ومرّات ولكنّها لم تنطق بكلمة. وفحصتها قابلة وقالت إنّها تفتقر إلى غشاء البكارة، ولكن بعض الفتيات يولدن بلا غشاء بكارة.

كان آدم يرتجف وهو يسمع هذا الكلام.

ـ لكنّ الخبر السارّ هو أنّ أسرة زوج كميلة قبلت أن تأخذ جميلة زوجة لقريب لهم، وكان أرملاً. وبهذا حافظت الفتاة على شرفها.

حدج آدم المختار بنظرة بعد أن استحوذ عليه هذا الخبر الجديد وقال:

ـ وكنت تعرف كلّ هذا منذ البداية.

ـ إنّ أيّ مختار يعرف كلّ ما يجري في قريته.

ـ ولماذا لم تخبرني؟

ـ كانت لا تزال أمامك فرصة للحصول عليها، وإلّا فعليك أن تكتشف ذلك بنفسك.

لم يكن آدم مصغيًا إصغاءً صحيحًا، فقد أعماه الغضب وقال:

ـ ظننتك صديقي، أيّها الحكيم!

قال المختار:

ـ لا يوجد من هو حكيم، فكلّنا نتّصف بالحكمة إلى حدٍّ ما وبالغباوة إلى حدٍّ آخر. لا حكمة بلا غباوة، ولا كبرياء بلا عار.

غير أنّ آدم كان قد انطلق مسرعًا، مبتعدًا كأنّ هناك من يطارده. في هذه الأثناء لم تكن ثمّة كلاب سائبة تطارده، ووجد جميلة في منزل أحد الجيران، تنسج سجّادة رفقةَ نساء من مختلف الأعمار. ولمّا وجدنه يحدّق إليهنّ من وراء النافذة، ضحكن وغطّين وجوههنّ، أمّا جميلة فوثبت واقفة على قدميها واندفعت خارجة وقالت:

ـ ماذا تفعل هنا؟ إنّك تُلحق العار بي!

قال آدم في حدّة:

ـ عار! نعم، تمامًا. إنّها الكلمة التي أبحث عنها.

ـ ماذا تقول؟

ـ حسنًا، قولي أنت. الواضح أنّك مدينة لي بتفسير.

وسرعان ما ازدادت حدّة نظرات جميلة وقالت:

ـ لا بأس. لنتكلّم إذًا.

سارا إلى مؤخَّر المنزل حيث شاهدا امرأة تصنع أرغفة الخبز في التنّور. وعلى الرّغم من أنّ النار كانت قد خبت، إلّا أنّ ثمّة جمرات متّقدة كانت تحت الرماد. وكانت من حول التنّور ساحات من الأرض مزروعة بالحشائش والخضرة، كأنّها بشائر الربيع.

ـ يقول والدك إنّك ربّما لستِ عذراء.

لم يرغب آدم في أن يقول عبارته في حدّة بالغة، ولكنّه تفوّه بها على ذلك النحو.

قالت جميلة متفادية النظر إلى عينيه:

ـ أهو الذي أخبرك بذلك؟

كان آدم يتوقّع أن يكون ردّ فعلها أشدَّ قوّة وتأثيرًا، وأن تحتجّ وتعترض على مثل هذه الإهانة وأن تبكي من أعماق قلبها. ولكنّها كانت، ويا للغرابة، رابطة الجأش عندما رفعت بصرها ونظرت إليه، وقالت:

ـ وأنت؟

ـ ماذا عنّي؟

ـ ماذا قلت أنت؟

لم يكن يتوقّع مثل هذا السؤال، فأجاب:

ـ أريد معرفة الحقيقة.

ـ الحقيقة هي ما تفهم من ذلك.

هاج وماج، وقال:

ـ اخرسي! توقّفي عن خداعي!

فقالت جميلة وبانت على ملامحها نظرة أسى:

ـ ولكنّني لم أخدعك. هل تحبّني كما أنا؟

لم يقل شيئًا. أراد أن يقول «نعم»، ولكنّ الكلمة لم تصل إلى شفتيه. وبينما هو يختلس نظرة خاطفة إلى الجبال سمعها تتمتم قبل أن تنصرف مبتعدة:

ـ حسنًا، أعتقد أنّني لن أشاهد حجارة إسطنبول الذهبيّة بعد الآن.

أمضى آدم بقيّة عصر ذلك اليوم في القرية الكرديّة، هائمًا على وجهه فيها، مصارعًا نفسه، تسحق قدماه أكوام القاذورات في صوت مسموع، دائرًا من حول هضبة تطلّ على منزل جميلة. في استطاعته مشاهدة الحديقة التي التقاها فيها أوّل مرّة. لقد مرّت خمسة أيّام منذ أن وطأت قدماه أرض هذه القرية المنسيّة. في غضون خمسة أيّام تغيّرت حياته وتبدّلت أحواله على نحو لم يعد يظنّ فيه أنّ حياته ستعود إلى سابق عهدها.

كان تارة يريد الذهاب إلى والد جميلة ويخبره أنّه غير مكترث. الحقّ أنّه كان يتحرّق شوقًا إلى ذلك، فهو يحبّها، وهي تحبّه، وهذا ما لاحظه منها. هذا هو الأهمّ، أمّا بقيّة الأشياء فلا قيمة لها، وسوف يتزوّجها ويأخذها بعيدًا عن هذا المكان كما وعدها.

لكنّه كان تارة أخرى كثير الشكوك والوساوس، مضطربًا، فجميلة ـ كما يظنّ ـ لم تدافع عن نفسها ولم تقسم على طهارتها، فضلاً على أنّ صمتها كان مقلقًا. ماذا يحدث إن كانت غير عذراء؟ كيف يمكنه أن يحيا حياته مع هذا الشكّ بقيّة حياته؟ ماذا سيقول شقيقه طارق عندما يعرف أنّ أخاه وجد له زوجة تشوب سمعتها شائبة؟

طارق! بماذا سيخبره؟ لا بدّ أنّه قرأ الآن البرقيّة. وكانت فكرة مواجهة شقيقه الأكبر تكفي وحدها لأن تربكه الإرباك كلّه. إنّه لا يستطيع العودة إلى إسطنبول ويقول إنّ كلّ ما حدث ناجم عن سوء فهم فظيع. وبعد مرور ساعات دخل منزل المختار فوجده يدخّن النارجيلة، منتظرًا إيّاه.

ـ ها قد رجعت يا ابن المدينة! لا توجد قرويّة لك. هه؟

فقال آدم عن عزم وتصميم:

ـ هذا غير صحيح، فأنا لم أغيّر من رأيي، وأريد الزواج.

ـ حقًّا؟

وهنا التمعت عينا المختار معجبًا بقراره:

ـ أنت تدهشني أيّها الفتى. حسبتك لا تريد جميلة.

قال آدم بعد هنيهة:

ـ لا أريدها! سآخذ البنت الأخرى.

ـ ماذا؟

ـ التوأم الأخرى. سوف آخذها.

أدرك آدم أنّه لا بدّ أن يشعر بالهول للمسلك الذي سلكته الأحداث، أن يشعر بذلك من صميم فؤاده وبسبب الجرأة التي أبداها بوصفها شخصيّته. ولكنّه، ويا للغرابة، لم يساوره مثل ذلك الشعور. الحقّ أنّه لم يشعر بأيّ شعور، فهل في وسع قطعة من الخشب أن تتألّم عندما يحملها نهر هائج؟ هل ستشعر ريشة بالقلق عندما تتقاذفها الرياح؟ هكذا كان حاله في ذلك اليوم، ولأيّام طويلة أخرى سوف يمرّ بها.

سجن شروزبيري ١٩٩١

كان يوم تريبي مزعجًا. ثمّة أيّام مزعجة هنا وأيّام ليست مزعجة جدًّا، كما أنّ ثمّة أيّامًا تجعلك تشعر وكأنّك سيّارة محطمّة. وعلى الرّغم من الاسم، فإنّ الأيّام الأخيرة ليست هي أسوأ الأيّام، فهي تشبه إلى حدٍّ ما تلك الليالي التي تشعر فيها وكأنّك لا تستطيع النوم، ففي مثل ذلك الوقت تصبح في حالة بلادة وخمول، لا تفعل شيئًا، ولا تفكّر بأيّ شيء، فاقدًا الحسّ. في مثل هذه الأيّام يكون القنوط قد بلغ بك حدًّا لا تعرف معه أنّك في أقصى درجات الانقباض والكآبة. شخص ما يهتمّ بك، أو لا أحد يهتمّ، ولكنّك لا تكترث في كلتا الحالتين. أمّا الأيّام التي ليست مزعجة جدًّا فهي، كما هو متوقّع، أيّام يمكن اجتيازها، أمّا الأيّام المزعجة فهي أسوأ الأيّام ـ هي التي تنال منك وتحطّم روحك.

التقويم الزمني ابتكار غبي. فإذا كان الوقت يطير، كما يقول القائلون، فإنّه لا يطير في سرعة متساوية في كلّ لحظة. يا ليت ثمّة

وسيلة لتقويم كلّ يوم من أيّام الأسبوع على حدة. لنقُلْ إنّ اليوم غير المزعج أبيض اللون ويعادل نقطة واحدة، أمّا اليوم الممنطق إلى مناطق، فسوف يكون أحمر اللون ويعادل نقطتين، في حين أنّ اليوم المزعج أسود وله ثلاث نقاط.

الرجل الذي عاش ثلاثين يومًا مزعجًا سوف يكبر بسرعة تزيد ثلاث مرّات عن سرعة نموّ الرجل الذي يعيش شهرًا برمّته أيامًا غير مزعجة. قم بعمليّة حسابيّة وعندئذٍ سوف تدرك السبب الذي يجعل الناس يكبرون في سرعة أكبر. أمّا أنا، فمنذ وصولي إلى هذا المكان، مررت بأيّام مزعجة كثيرة، يومًا بعد يوم. تقويم الزمن خاصّتي أسود اللون، يذكّرني بالكحل الذي كانت أمّي تستعمله في تحديد عيونها.

طلبت زوجة تريبي الطلاق، وكنت أعلم وهو يعلم وكلّ واحد في هذا المكان القذر يعلم أنّ الطلاق سيحدث عاجلاً أم آجلاً، ولكنّنا على الرّغم من ذلك صُدمنا ورُوِّعنا، لا لأنّ ثمّة ما يبعث على الصدمة أو الرعب في الأمر، إذْ إنّ الطلاقات والتفكّك الأسري شأن عادي في هذا المكان، بيد أنّنا صُعقنا شفقةً بتريبي، فعندما يتناهى إلى سمعك نبأ انفصال زوجة عن صديق من أصدقائك، فإنّك لا تقول: «نعم، كنت أعلم أنّ هذا سوف يحدث»، لأنّ ذلك القول سوف يجعله يشعر وكأنّه رأس قضيب، فاشل أمام الناس.

لكنّك إن قلت له: «متى حدث هذا؟ أنت لا تعرف طبع النساء. صحيح؟» أو ما يشبه هذا القول، فعندئذٍ سوف تشاطر الرجل ألمه وحزنه. نعم، سيظلّ فاشلاً ولكن بينه وبين نفسه.

كانت تأتي إلى تريبي حاملةً قوالب حلوى بالكسترد، لكنْ قلّما كان الأوغاد يسمحون له بأكلها، ولكنّها واصلت إعدادها له. كانت امرأة رشيقة، نحاسيّة الشعر، طباشيريّة البشرة، يغزو النمش ذراعيها وتلوح على وجهها علامات صبر طويل. وهُمٌ بطبيعة الحال، إذْ ما من شخص صبور على ذلك النحو.

وجاءت اليوم لتخبره بنفسها. كان في وسعها أن ترسل ملاحظة، أو لا ترسلها أصلاً، شأنها شأن بعض الزوجات، غير أنّها جاءت وأوضحت له، بأسلوبها المميّز، وبصوتها المبحوح من فرط التدخين، وبكلمات مذاقها يشبه الرماد، أنّها التقت شخصًا آخر، يتصرّف تصرّفًا رائعًا إزاء الأطفال، الذين كانوا في مسيس الحاجة إلى قدوة ذَكَرٍ أمامهم، وبخاصّة ولدهما الذي بلغ الآن الخامسة من عمره. وأخبرته أنّ الأطفال سيأتون لزيارة تريبي لأنّه والدهم، وأنّ ما من شيء يمكن أن يغيّر من تلك الحقيقة. ثم قبّلته قبلة أخيرة وتركت قالب الحلوى ومضت في سبيلها.

غالبًا ما أفكّر كيف يمكن أن يكون شعور المرء إذا ما كانت لديه زوجة، امرأة تعرف نقاط ضعفك ومواطن فشلك أكثر ممّا تعرفها أنت، وتعرف كلَّ بقاعك القاحلة، وتملك خارطة روحك مرسومة على كفّ يدها، وتهيم بك حبًّا على الرّغم من كلّ شيء. امرأة تزرع في قلبك طول العمر ما يبعث الفرح والسرور، أمورًا صغيرة لا تدرك إلى أيّ حدٍّ تعتمد عليها إلى أن تفقدها كلّها. الله وحده يعلم شدّة ندمي لأنّني لم أعرف ذلك.

لكنّني لست نادمًا لأنّ ولدي توم يطلق على رجل آخر كلمة «أبي»، ففي كلّ الأحوال أنا قدوة سيّئة، وأبٌ يدعو إلى الشفقة

والرثاء، والأب الذي يبعث على الشفقة والرثاء أشبه بعظم سمكة في البلعوم لا تعرف كيف استقرّ هناك، ولكن عندما تتخلّص منه يبقى شيء ما، ندبة دائميّة لا أحد يراها في الخارج، ولكنّك تحسّ على الدوام أنّها موجودة. لا أحد بحاجة إلى مثل هذه النفاية.

أتذكّر أنّني طرحت يومًا سؤالاً على أمّي عن سبب زواجها بأبي، وكان ذلك السؤال هو أقرب الأسئلة لمعرفة إن كانت تحبّه أم لا.

فاستدارت ورمقتني بنظرة انعكس فيها النور المتغلغل من الشبّاك على عينيها الخضراوين. عنبر وذهب، ورأيت كم هي جميلة. الواقع أنّك لا تتنبّه إلى جمال والدتك، ولكنّني رأيته في ذلك اليوم واضحًا وصافيًا، فانتابني قلق، وغمرني خوف غريب استبدّ بي في تلك اللحظة، فلم يَرُقْني.

وقالت:

ـ كانت الدنيا يومئذٍ غير هذه الدنيا، ولم يكن فيها شيء ممّا يشبه حياتك هنا في لندن. أنتم الشبّان أوتيتم حظًّا عظيمًا.

لم يكن ذلك الجواب هو الجواب الذي كنت أتوق لسماعه، ففي ماضي والديَّ ما من مناديل منقوشة بالحروف الأولى لكلّ منهما، وما من خفقات توحي برغبة حلوة، وما من وعود غراميّة يهمس بها أحدهما للآخر في ظلمة الليل. كان الحبّ احتمالاً بعيدًا، حتى إنّهما لم يتظاهرا به. كانت أختي تعرف ذلك، وكانت تُدرك أنّ وجودنا نحن الثلاثة هنا إنّما هو بدافع الواجب والطاعة واللامبالاة وليس بدافع الحبّ. لهذا السبب كنت عاصيًا، بينما كانت هي متمرّدة وكان يونس فطنًا، حادَّ الملاحظة.

كنت أنا وأسماء نتجاذب أطراف الحديث باستمرار.

وكانت أمّي تقول:

ـ أنتما تتكلّمان كثيرًا مثل هطول المطر، مطر خارج البيت ومطر داخل البيت!

لا بدَّ أنّني أخبرت أسماء عن أمور لم أشاطر أحدًا غيرها فيها، ولا حتى الصبيان أو كاتي. أطلعتها على أسراري لأنّ لديها من القول ما يبعث على الاهتمام دائمًا. كانت تجيد فنّ الكلام، ولكنّ ثمّة سببًا آخر، وهو أنّني كنت أعرف من صميم قلبي أنّها الوحيدة من بين أفراد أسرتنا التي تكفي القريب كي يطّلع على أحوالنا، وتكفي الغريب كي يتنحّى عنها، أحببت ذلك حتى خريف العام ١٩٧٨، فقد حدث لي ما لم يكن في الإمكان إصلاحه بعد ذلك.

يُنفق تريبي بقيّة العصر في حجرة الزوّار، صامتًا صمتًا مطبقًا، وجهه بلون بول عمره أيّامًا، لكنّه يظهر بمظهر الشجاع، قائلاً إنّه أخبر زوجته بأنّه يفهم وضعها ويقدّره، وأنّه يتمنّى لها التوفيق كلّه في حياتها. لا مشكلة! وعبَّر لها عن شكره لمساندتها إيّاه ولكرمها طوال تلك السنين، ثم أشار إلى الحارس أنّ الزيارة انتهت، وودّعها عند الباب وقبّلها قبلة الوداع، ومازحها قائلاً إنّه سوف يشتاق إلى قوالب حلواها.

الآن هو جالس موليًا الجدارَ ظهرَه، مُطْبِقَ الفكّين، جامد العينين. وباتت الحقيقة واضحة أمام عينيه: إنّها عاهرة لا قلب لها، سدّدت له طعنة في ظهره. ولمّا كانت الطبيعة البشريّة على ما هي عليه، فإنّنا نكره الكراهيَةَ كلَّها أولئك الذين نحبّهم أشدّ الحبّ.

يقول تريبي محركًا يده إلى الأمام وإلى الخلف كأنّه يقتلع حزمة من أعشاب متخيَّلة:

ـ نلتُ ما يكفي من هذا كلّه.

ـ تجاهلِ الأمرَ.

ـ تبًّا! سوف أتجاهله.

ثم أحاول محاولة جديدة:

ـ غالبًا ما تقول لي إنّ ثمّة أطنانًا من الناس التعساء خارج هذا السجن. لكلّ امرئ بلواه.

لم يصغ تريبي إليَّ وقال:

ـ لا بدّ أنّ وراءها شيئًا ما.

ـ وكيف تعرف؟

فصاح:

ـ أعرف تمامًا.

يثب على قدميه واقفًا ويذرع الغرفة، فتقع عيناه على ملصق هوديني، فيحصل لديّ الانطباع لحظة واحدة أنّه سوف يجذبه ويمزّقه، ولكنّه لم يفعل ذلك، بل تكسو وجهه نظرة مخيّبة للآمال. ثم يتقدّم إلى أمام ويضرب الجدار بقبضة يده وبكلّ ما يمتلك من قوّة.

الضربة مدوّية وعميقة ومثيرة للامتعاض. وأتذكّر على حين بغتة لحظةً من لحظات الزمان: أنا وأبي كنّا في الشارع نتشاجر والغضب الجامح والوميض اللامع في عينيه، أم تراني أنا الذي كنت غاضبًا؟ نعم، قلبت جفن عيني وانطلقت في أقصى سرعتي في

متّجه الجدار وصدمته برأسي مرّات ومرّات، فجاء الأهالي مسرعين، وجنّ جنون حارس النادي.

أعادني صوت الضربة الثانية إلى رشدي، أحاول أن أتدخّل، ولكنّه يدفعني جانبًا دفعة قويّة توقعني على ظهري، وقبل أن أفلح في التشبّث بذراعيه والدفع به نحو الأرض، يضرب الجدار مرّات ومرّات.

ـ استمِرَّ أنت في هذا الضرب وسوف يأتي كلّ الناس إلى هذا المكان. أتسمعني؟

براجم أصابعه تنزف دمًا، وفي أنفاسه شهقات قصيرة، فأمسك برأسه بين مرفقي، منتظرًا مرور تلك اللحظة.

أقول له:

ـ أنت لست مضطرًّا إلى هذا.

ـ أودّ لو عرفت.

ـ بل أعرف.

فيحتجّ قائلاً:

ـ إنّني مضطرّ إلى أن أصبّ جامّ غضبي على شيء ما.

ـ علينا أن نأتيك بكرة ملاكمة إذاً.

ويسكت تريبي، فأُدرك ما الذي يجول في خاطره. فكرة الملاكمة لا تنفع، لأنّها بلا حياة، مثيرة للسأم وصامتة. أمّا هو، فإنّه يريد أن يتحسّس بطراوة اللحم من تحت براجمه، وأن يسمع العظام تتكسّر. لو أنّه رجل حرّ في هذه الليلة لذهب إلى حانة ليشرب حتى الثمالة ويتشاجر مشاجرة حامية. ولمّا كان رجلاً نحيْلاً

شديد الهزال، فسوف يعاملونه معاملة خشنة، غير أنّ هذا الأمر سيمنحه شيئًا ما كي يتحدّث عنه مازحًا في اليوم المقبل، شيئًا ما يركّز فيه.

أدفع رأسي إلى الوراء وأنا ما زلت ممسكًا به وأرمقه بنظرة، وأقول:

ـ اضربني.

فيسألني في صوت محطّم:

ـ ماذا؟

فأقول له:

ـ صه! اهدأ. فأنا ملاكم مدرّب. أنسيت ذلك؟

أراقب الارتباك الذي يطفح به وجهه وأقول ضاحكًا وكلانا يدرك معنى كلامي:

ـ أنت مخبول.

تستبدّ بي حالة من التوتّر، فأخلع قميصي وأقذف به بعيدًا. ثم أتنفّس تنفّسًا عميقًا وأتنهّد. أهتمّ بأنفاسي بعض الوقت، لكنّني لا أحبسها وقتًا أطول ممّا ينبغي. شهيق، زفير، شهيق، زفير...

أخفض كتفي وأدفع بطني إلى أعلى وأشبك يديَّ وأُحكم شدَّ عضلاتي. لا بدّ لك من مسافة وافية بينك وبين العدوّ، القبضة والأعضاء الداخليّة، الفرد والمجتمع، الماضي والحاضر، الذكريات والقلب. أنت بحاجة إلى مسافة كافية في كلّ شيء تفعله أو يحدث لك في الحياة. المسافة تحميك، الحيلة في تلقّي كلمة قويّة هي أن تعرف كيفيّة إيجاد مسافة إضافيّة.

تريبي يراقبني طوال الوقت مندهشًا، كدأبه عندما يواجه شيئًا لا يفهمه.

فأبادره القول:

ـ ماذا تنتظر إذًا يا حثالة؟

وتجيء الضربة الأولى غير مستقرّة قليلاً، منحرفة إلى الجانب. لا بدّ أنّها آذته أكثر ممّا آذتني. أطلق صفيرًا طويلاً وخافتًا.

ويسأل تريبي منزعجًا:

ـ ماذا؟

أردّ عليه، تاركًا ابتسامة تعلو وجهي:

ـ لا شيء.

يكره تريبي الناس الذين يضحكون عليه. لا يطيق ذلك، ويغلي دمه بسببها. في الحقّ، لا أحد في هذا المكان يحبّ الابتسامات.

بطني صلبة بسبب سنوات من العمل في الخارج، ولكن قوّة الضربة المقبلة أخذتني على حين غرّة، فأشعر بألم حادّ من تحت القفص الصدري، ألم يتردّد من وقت إلى وقت، فيتوقّف تريبي ويرمقني بنظرة، مندهشًا من قوّته.

وتراودني ذكرى أخرى، فأتذكّر اليوم الذي أخذتني فيه أمّي إلى حمّام في إسطنبول. أعتقد أنّني كنت في السادسة أو نحو ذلك من العمر ـ بخار الماء والحرارة والصدى وأجساد النساء العاريات المنفرجات السيقان وجَدَّة بنهدين متهدّلين. أُصبتُ بالذعر والهلع فهربت إلى الخارج، ولكن أمّي أمسكت بي وهزّتني في عنف قائلة:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

ـ لا يروقني هذا المكان.

فقالت:

ـ لا تكن سخيفًا. إنّني لا أسمّيك «سلطان» عبثًا. تصرّف مثل السلطان وإلّا سمّيتك مهرّجًا بدلاً من ذلك.

مسافة. إنّني محتاج إلى فسحة أكبر من ذاكرتها. إنّها تدفعني إلى الجنون.

وابتسم من جديد.

ـ تعال أيّها المهرّج. إنّني أملأ حذائي هنا.

كلمات تريبي المقبلة أقوى وأشدّ تركيزًا. ليس هو بالرجل متين البنيان، ولكنّه ليس بالشخص الضعيف أو الجبان. يذكّرني بكلب صيد: مخيف، هزيل، من دون أونصة واحدة من الشحم في بدنه، ولكنّه عنيد، لا يستسلم.

يمضي الحال بنا هكذا برهة من الزمان. أحيانًا يشرد بال تريبي فيرسل لكمة تصيب ذقني، أمّا بخلاف ذلك، فإنّه يظلّ يسدّد إلى تلك المنطقة. في مكان ما وراء تلك العضلة تكمن الزائدة الدوديّة ـ غافية، مكوّرة مثل دودة، عضو غير ضروري من أعضاء البدن، وعلى الرّغم من عدم فائدته لأيّ شيء، إلّا أنّه قضى على هوديني.

تُفتح الأبواب الحديديّة في نهاية الممرّ بعد بضع دقائق، وتُضاء الأنوار. أحدهم في زنزانة قريبة يُهلّس كأنّه فَرِحٌ بالجلبة، ويأتي ثلاثة سجّانين مسرعين. يقتحمون المكان معتقدين أنّنا في شجار، فيضع تريبي ذراعه من حولي ليبرهن لهم أنّهم مخطئون في

اعتقادهم، وأنّنا صديقان ودودان، ويبتسم ابتسامة فخر واعتزاز، على أمل أن تفعل الابتسامة فعلها. الابتسامة؟!! كما قلت، لا أحد هنا يحبّ الابتسام.

وقبل أن ندرك ما يحدث، صياح وسباب وتهديد وتدافع: مسرح سلطة وعرض للقوّة وضياء أشدّ من اللازم، حادّ ونافذ مسلّط علينا. نتكوّر أنا وتريبي مثل بعوضتين وجدتا نفسيهما في المطبخ ليلاً.

ويصيح تريبي:

ـ ألا تفهمون؟ إنّنا لا نتشاجر.

فيقول أحد السجّانين:

ـ ماذا كنتما تفعلان إذاً؟ ترقصان؟

فينظر تريبي إليَّ مرتبكًا في لحظة، كأنّه يسأل: «نعم، ماذا كنّا نفعل؟ بماذا تورّطنا؟».

* * *

يأتي الضابط أندرو ماك لوخلين في صباح اليوم التالي ومن ورائه زهوه، كأنّه كلب جائع. لقد اعتاد وظيفته ولكنّه لم يعتدني. يقرأ تقارير الليلة الماضية ويقول إنّنا لا بدّ كنّا نتعاطى المخدّرات لأنّ ما من رجل عاقل يبدأ شجارًا كالذي بدأناه. ويتذرّع بالبحث عن الأشياء المخبّأة، فيأمر رجاله ألّا يتركوا مكانًا إلّا ونقّبوا فيه تنقيبًا دقيقًا ـ الكتب والبطّانيّات وصور أطفال تريبي ودفتر ملاحظاتي. . . وحتى في ثنيات حُصُر أسرتنا.

يقضم تريبي داخلَ فمه ليكبت ابتسامة. أنا وهو منشغلان في

فكرة بعينها، أنا وهو نظيفان نظافة تامّة: لو جرى هذا التفتيش قبل بضعة أيّام، لعثروا على قدر قليل ممّا لذّ لنا وطاب، ولكن كلّ ذلك اختفى الآن، وليس لدينا ما يثير قلقنا.

وفي اللحظة التي يبدون فيها وكأنّهم يوشكون على الانصراف، يتوقّف الضابط ماك لوخلين وفي يده شيء ما، ويسأل:

ـ ما هذا؟

إنّها بطاقة بريديّة وفيها صورة مدينة ألعاب، جياد من خشب وأضواء في الجهة الخلفيّة من الصورة. لا أحد في الصورة، سوى منطاد أحمر اللون يندفع بعيدًا، والإيحاء بوجود قوّة غير مرئيّة، قد تكون الريح.

يقول ماك لوخلين:

ـ لا أتمكّن من سماعك.

لم يجب تريبي ولم أجب بدوري. فيبدأ ماك لوخلين بالقراءة في صوت عالٍ، مغيّرًا من صوته، مقلّدًا تقليدًا ساخرًا صوتَ امرأة:

أخي العزيز... أم تريدني ألّا أخاطبك بهذه الكلمة بعد الآن؟

ماذا في وسعي أن أسمّيك إذًا؟ إسكندر؟ أليكس؟ سلطان؟ قاتل؟ هل تتذكّر الجياد الخشبيّة التي اصطحبتنا والدتنا إليها عندما وصلنا أوّل مرّة إلى لندن؟ أليست شيئًا رائعًا؟ لم يكن يونس قد وُلد بعد، والله يعلم أين كان أبي. أنا وأنت وأمّنا لا غير.

لن أغفر لك ما اقترفَتْه يداك. قد تتعفّن في السجن أو تحترق

في نار جهنّم، ولكن لا عقاب الملكة ولا عقاب الله سيمحو هذا الإثم في نظري. لن أدافع عنك في المحكمة، ومهما يقل العمّ طارق، فإنّني سوف أقدّم إفادتي ضدّك. ومنذ اليوم، سوف أعلن الحداد على ميتتين اثنتين: ميتة أمّ وميتة أخ...

أسماء

يقول الضابط ماك لوخلين واضعًا يده على قلبه وكأنّه متألّم:

ـ أختك باردة الأعصاب. جميل أن نرى أحد أفراد عشيرتك يميّز الحقّ عن الباطل.

لا ينظر ماك لوخلين إلى أحد وهو يتفوّه بهذه العبارة، ولكن ما أن يفرغ من الحديث حتى تستقرّ عيناه على عينيَّ. أمدّ يدي لآخذ البطاقة البريديّة منه، ولكنّه يرفعها إلى أعلى في الهواء ويهزّها مازحًا ويقول:

ـ لا، لا.

ثم يزمّ شفتيه ويستأنف الكلام:

ـ لا بدّ لك أوّلاً من الإجابة عن سؤالي: لماذا سمحت لتربيبي أن يضربك؟

يهزّ الضابط ماك لوخلين كتفيه بسبب التزامي الصمت، ويُنْعِم النظر إلى أظافر أصابعه، ليقول أخيرًا:

ـ لا بأس. سأترككما الآن ولكنّني سآخذ هذه البطاقة الجميلة يا أليكس، وعندما تشعر أنّك تريد أن تخبرني بالحقيقة، فتعال إليَّ وقابلني وسوف أعيدها لك.

لست مضطرًّا إلى الإمساك بالبطاقة البريديّة بيدي لأرى ما هو مكتوب عليها. إنّه لا يعرف أنّني حفظت عن ظهر قلب كلّ كلمة من كلماتها، كلّ «لا» وكلّ فاصلة وكلّ «أمّ».

أجلس بعد انصراف الضابط ماك لوخلين متّكئًا، دامع العينين. أحاول قدر ما أستطيع البقاء هادئًا، سليم العقل، لكنّني لا أستطيع. أصفع نفسي. لا فائدة. أصفع ثانية. يمكنني القول إنّ اليوم سيكون يومًا عصيبًا.

إسكندر طبرق

العنصريّة والمهلّبيّة

لندن، كانون الأوّل، ١٩٧٧

ظلّت بمبي، منذ اليوم الذي وُلدت فيه ابنةً تاسعة لامرأة تحنّ لولد ذكر، ترى هذا العالم بوصفه مرتعًا للمحاباة والتفاوت، التي قبلت بعضهما على أنه متعذّر التغيير لأنّه من عادات البشر، ولكنّها لم تخضع طوال حياتها لعداء صريح وعلني لما آلت إليه. كان ذلك حتى اليوم الذي التقته في بواكير شهر كانون الأوّل ١٩٧٧.

لم يكن هناك سوى زبونة واحدة في محلّ المقصّ البلّوري لتصفيف الشعر، وهي أمينة المكتبة المتقاعدة، التي لم يبدُ عليها أنّها كانت مستعجلةً كي تصل مكانًا ما، فطلبت بمبي من صاحبة المحلّ ريتا رخصة للخروج والتبضّع. كان يونس يعشق حلواه المفضّلة، وهي طبق المهلّبيّة بزهر البرتقال، وكانت هي قد عزمت على مفاجأته في ذلك المساء.

ـ هل تمانعين يا ريتّا إن ذهبت ساعة واحدة؟

لم تكن ريتّا مديرتها فحسب، بل كانت صديقة عزيزة، امرأة

سوداء فارعة القدّ، هائلة الصدر، مشوّهة الأسنان، وكانت أضخم أفريقيّة في البلدة، ابتسامتها مشرقة شروقَ سماوات فصل الصيف، دائمة الحديث عن البلد الذي تحدّرت منه، وهو جامايكا، وكان للاسم وقعه المؤثّر على أذني بمبي، ينساب إلى المسامع انسياب طعم المكسّرات أو ما هو مقرمش في الفم، انسياب البلاذر الأميركي المحمّص.

وقالت ريتّا:

ـ اذهبي يا عزيزتي. سوف أهتمّ بأمينة المكتبة، وأنا أراهن على أنّها تريد أن تخبرني عن كلّ ما يخصّ إجازتها التي أمضتها في إيطاليا.

غادرت بمبي المحلّ يساورها إحساس بالخفّة والنشاط من جهة والهمّ والغمّ من جهة أخرى: الخفّة والنشاط لأنّ لديها ساعة كاملة تخلو فيها لنفسها وحدها، ومهمومة لأنّ الأمور لم تسر سيرًا طبيعيًّا في الآونة الأخيرة، إذْ كانت أسماء كثيرةَ الوجوم على الدوام، تمسك بيدها كتابًا وتمرّ بمرحلة جديدة. أمّا إسكندر، فكان أسوأ منها، إذْ كان يعود أدراجه إلى البيت متأخّرًا مساء كلّ يوم، فكانت تقلق عليه خشية أن يصاحب الأشرار. أمّا زوجها... حسنًا، لم ترغب في أن تعرف كيف ورّط نفسه في هذه المرّة، فكان يتوارى عن الأنظار أسابيع متواصلة، ليعود معطّرًا بعطر امرأة أخرى، هذا إن عاد في كلّ الأحوال.

كان آدم رجلاً مهمومًا، كثير الأحزان، دائم الحديث عن طفولته، منوّهًا على الدوام بذكرياته الحزينة نفسها مرّات ومرّات، عاجزًا عن نسيانها أو طردها، وكان ذلك أشبه بوجبة طعام سريعة

وخفيفة تعرف جيّدًا أنّها مضرّة للصحّة ولكنّك لا تستطيع التوقّف عن قضمها وإنْ كنت شبعان. كان يبدأ الحديث عن الماضي عن غير عمد، ومن دون وعي. أمّا بخصوص بمبي، التي كانت واثقة من أنّ الأيّام، أو حتى صلاتها سوف تصلح من الأمور، فقد تحمّلت كلّ ذلك من دون تذمّر أو احتجاج، مُطَمْئِنَةً نفسها إلى أنّ الأحوال في خير، أو أنّها ستنتهي نهاية حسنة يومًا ما، إذْ كانت ترى في المستقبل أرضًا مفعمة بالوعود. صحيح أنّها لم تذهب إليها، ولكنّها آمنت بوجودها وبأنّها جميلة تبعث على التفاؤل. إنّها أرض ذات طاقات لا تُستنفَد، خليط من بلاط متغيّر، تارة تجده منتظمًا وتارة أخرى تجده في فوضى، يُعيد خلق نفسه باستمرار.

الماضي في رأي آدم مقدّس، موثوق وثابت، لا يتغيّر، والأهمّ من هذا كلّه، متواصل، يوفّر له رؤية في بداية كلّ شيء، يمنحه الإحساس بالمركزيّة والتماسك والاستمرار. فكان يزوره زيارات متكرّرة تنمّ عن تفانٍ وإخلاص، مبعثها الإحساس بالواجب وليس الحاجة، كأنّه يخضع لإرادة أسمى. وإذا كان آدم يتفانى في حبّ الماضي وعبادته، فإنّ بمبي كانت مخلصة للمستقبل.

بخلاف شمس الصباح اللطيفة، اكتسب الطقس بعد الظهر شيئًا من البرودة وازدادت فيه الريح. كانت بمبي قد ارتدت معطفًا رمادي اللون مزرَّرًا إلى أعلى، فبدت أكبر سنًّا، وكأنّها فتاة من فتيات زمن الحرب، مضطرّة إلى العناية عناية تامّة بكلّ قرش تصرفه، وهو ما كانت تفعله حقًّا. واشترت في عجالة ما تحتاج إليه من متجر تيسكو. وبينما كانت تمرّ من أمام المخبز من حول الناصية، لمحت ضربًا من إصبعيّات حلوى الشوكولا في الواجهة.

لم تكن سميكة ولا كبيرة أو محشوّة بالقشدة المخفوقة، بل كانت صغيرة برّاقة، كما تحبّها وتهواها تمامًا.

وعلى الرّغم من أنّها نادرًا ما كانت تستسلم للمغريات، إلّا أنّها سلكت أقصر الطرق ودخلت المحلّ، فرنّت الأجراس رنينًا بهيجًا من وراء الباب. وفي داخل المخبز كانت الخبّازة، وهي امرأة بدينة، تكسو سيقانها الدوالي، رقيقة الحاجبين، اللذين لا يكادان يبدوان للناظر، تتجاذب أطراف حديث مفعم بالحماسة مع واحدة من معارفها. في هذه الأثناء، كان مساعدها يتولّى خدمة زبائن آخرين، وكان هذا رجلاً نحيل القامة، لا يتجاوز عمره سنّ العشرين، أزرق العينين، متورّد الخدّين على نحو يشير إلى شدّة حساسيّة بشرته، ذا شعر قصير وتصعب معرفة لونه. كان جبينه مكسوًّا بالبقع، وبراجمه وذراعاه مغطّاة بالوشم، ومنها وشم كبير يمثّل الصليب المعقوف.

واضطرّت بمبي إلى الانتظار لأنّ ثمّة زبونة أخرى، وهي امرأة متقدّمة في السنّ، حسنة الهندام. وبعد مرور دقيقة واحدة، رنّت الأجراس من جديد، ودلف إلى المكان رجل في خريف العمر، ولكن بمبي لم تكلّف نفسها عناء النظر إليه.

كانت المرأة المسنّة صعبة الإرضاء، ميّالة إلى تغيير رأيها كلّ بضع ثوان، فقد كانت تريد كعكات صغيرة مدوّرة خالية من الدسم، ثلاث قطع، أو ربّما أربعًا، ولكن. . . لم لا تشتري بضع كعكات من نوع إيكلس؟ بيد أنّها فكّرت قليلاً وطلبت كعكات صغيرة مدوّرة بالفاكهة. ورأت قوالب الحلوى بالفراولة جديرة بالتأمّل أيضًا، ولكن هل هي طازجة يا تُرى؟ وهل المعجّنات مقرمشة؟ فكّرت في هذا كلّه

لأنّها قد تشتري قوالب الحلوى ـ إن اشترت ـ بدلاً من الكعك المدوّر الذي يؤكل يوميًّا تقريبًا، وهكذا . . . استمرّت على هذا الحال.

وفي كلّ مرّة كانت تغيّر من رأيها كان المساعد يعيد وضع الكعك في مكانه من فوق الصينيّة ليأخذ كعكة غيرها تطلبها العجوز، فيريها إيّاها منتظرًا موافقتها. ولمّا حسمت أمرها في نهاية المطاف، وقرَّ قرارها على مجموعة من الكعك المحلّى المثلّج، بدأت تجادل في كيفيّة تغليفها: هل الأفضل وضعها في كيس من ورق، وبذلك تكون سهلة الحمل وخفيفة، وإنْ كان ثمّة احتمال في تعرّض الكيس إلى التمزّق في الطريق، أم وضعها في علبة، وهو الحلّ الأسلم بطبيعة الحال، وإنْ كان حملها أصعب في هذه الحالة؟ ورفع المساعد رأسه من وراء النضد الزجاجي ورمق الزبائن المنتظرين بنظرة عجلى، وركّز بعد ذلك على بمبي، التي لم تتنبّه إلى المرارة البادية على عيني الشابّ، ولكنّ المتبضّع الواقف من ورائها تنبّه لذلك.

وأخيرًا مضت المرأة العجوز في سبيلها، وسارت في بطء شديد لم يتسبّب حتى في رنين الأجراس عندما فتحت الباب. وجاء الآن دور بمبي، فأومأت برأسها إلى المساعد، لكنّه تجاهلها وواصل عمله في ترتيب المعجّنات، ثم انتقل لترتيب الصواني المعدنيّة، وأمسك بالعلب وأعادها إلى مكانها الأوّلي.

وقالت بمبي مشيرة إلى إصبعيّات الشوكولا.

ـ عفوًا. . . هل يمكنك أن تناولني قطعتين من هذه الإصبعيّات، من فضلك.

فتمتم المساعد وهو يمسح كمّاشة:

ـ انتظري حتى يحين دورك.

انزعجت بمبي من نبرة صوته أكثر ممّا انزعجت من قوله، وتردّدت لحظة، لكن زبونًا آخر قال معترضًا:

ـ الدور دورها.

كان لهذا الكلام تأثيره، إذْ وضع المساعد الكمّاشة جانبًا واقترب وعيناه شاخصتان نحو بمبي:

ـ ماذا تريدين إذًا؟

لم تواجه بمبي عنصريًا من قبل، وكانت فكرة وجود شخص يكره شخصًا آخر بسبب لون البشرة أو الدين أو الطبقة، غريبةً تمامًا عنها غرابةَ سقوط الثلج في شهر آب. لكن هذا لا يعني أنّ الغرباء من الأشخاص لم يعاملوها معاملة سيّئة أو يقلّلوا من شأنها، إلّا أنّ تلك الحالات كان سببها يرجع إلى نوبات غضب وقتيّة، أو هكذا بدت، ولم تكن أحكامًا مسبقة لا تملك القدرة على السيطرة عليها. وكانت تدرك إدركًا جيّدًا مدى اختلاف أسرة طبرق عن جيرانها من الإنكليز، ولكن بالرّغم من ذلك كان الأكراد والأتراك يختلف أحدهم عن الآخر، كما أنّ بعض الأكراد لم يكونوا مشابهين لغيرهم من الأكراد تمامًا، وكانت لكلّ أسرة من أسر قريتها الصغيرة على ضفاف نهر الفرات قصّة أخرى، وفي كلّ أسرة من تلك الأسر لم يوجَد طفلان متشابهان. لو أراد الله أن يخلق الناس متشابهين لخلقهم كذلك، ولم تكن لدى بمبي أيّة فكرة عن السبب في خلق الله كلّ هذا التنوّع والتباين بين خلقه، ولكنّها كانت تؤمن بأهدافه. إنّ قبول بني البشر لما وُلدوا عليه يرقى إلى احترام المشروع الإلٰهي.

الحقّ أنّها كانت متسامحة تمامًا عندما كانت الأمور تخصّ

الفروق الموروثة، وإذا كانت ثمّة أشياء لا تستطيع التكيّف وإيّاها، فإنّها تتحدّد في تلك الاختلافات الحاصلة بعدئذٍ: فالمراهق الذي يشبه شعره شعر قنفذ، أو الذي يتزيّن بثقوب في حاجبيه، والمغنّي الذي يغطّي الوشمُ كلَّ أجزاء جسده، أو عشقُ أسماء وولعُها بلبس البنطالات والتحلّي بالأساور... هذه كلّها أشياء رأت أنها عسيرة الهضم. لقد وضعها منطقها هذا في محنة أحيانًا، فعلى سبيل المثال، كانت إذا ما التقت أحد المثليّين تريد أن تعرف إن كان قد ولد على ذلك النحو أو أنّه تحوّل إلى مثلي بمرور الزمان. إذا كانت لله إرادة في ذلك، فلا بأس، أمّا إذا كان ذلك من صنع الفرد نفسه، فإنّها لم توافق عليه. لكن ما دام أنّ كلّ الأمور من صنع الله وحده، فإنّها لم تستطع تعزيز مشاعر الحظّ من قدْر الآخرين زمنًا طويلاً.

لهذا السبب، عندما سألها المساعد عمّا تريد، فإنّها سمعت السؤال ولم تسمع نبرة التأنيب التي كان ينطوي عليها. فما كان منها إلّا أن أجابت إجابة وافية مفعمة بروح المسؤوليّة:

ـ أريد هذه وتلك من فضلك.

فما كان من المساعد إلّا أن حملق بعيدًا، من فوق رأسها ومن ورائه كأنّه لا يراها، وقال:

ـ أليست لها أسماء؟

ظنّت بمبي أنّ الرجل لم يفهمها، فاقتربت من صواني المعجّنات وأشارت بيدها إلى ما تريد من دون أن تدرك أنّ حافّة معطفها كانت تلامس الأقراص المغمّسة بالقرفة.

وهتف بها:

ـ هيه! لا تلمسي هذه!

ثم رفع قرصًا ورمقه بنظرة فاحصة وأضاف:

ـ تبًّا! لن أستطيع بيع هذه الأقراص بعد الآن.

ـ ماذا؟

فقال متذمّرًا:

ـ هل ترين هذه القطعة من الصوف؟ إنّها من معطفك. يجب أن تشتري الآن كلّ محتويات الصينيّة.

ـ صوف؟

ثم زمَّت شفتيها كأنّ الكلمة تركت أثرًا كريهًا في فمها، وأضافت:

ـ لا، لا. لا أريد الصينيّة.

وفي غمرة ارتباكها رفعت يديها إلى أعلى، فارتطمت سلّة المشتريات التي كانت تحملها بسلّة تحوي على قطع حلوى فتساقطت على الأرض.

هزّ المساعد رأسه وقال:

ـ أنت كارثة متنقّلة.

في هذه اللحظة كانت الجلبة قد جذبت أنظار صاحبة المحلّ، التي هرعت إليهما للتأكّد ممّا يحدث.

ـ لقد أفسدت هذه المرأة الأقراص وأسقطت الحلوى، فطلبت منها أن تشتريها ولكنّها رفضت.

احمرّت وجنتا بمبي من تحت أنظار صاحبة المحلّ.

وهنا استرسل المساعد قائلاً:

ـ لا أظنّها تتكلّم الإنكليزيّة.

فردّت بمبي بحدّة:

ـ بل أتكلّمها.

فقالت صاحبة المحلّ في بطء ولكن في صوت مرتفع لم يكن ضروريًا. كأنّ بمبي صمّاء:

ـ إذًا لا بدّ أنّك فهمت ما سمعت.

ـ لكنّه طلب منّي أن أشتري محتويات الصينيّة كلّها وأنا لا أملك مالاً كثيرًا.

وضع المساعد ذراعيه من على صدره وقال:

ـ في هذه الحالة سوف نستدعي الشرطة.

أخذ الهلع ينتاب بمبي وهي تقول:

ـ لا شرطة. لماذا؟

وسعل الزبون التالي سعالاً مصطنعًا، وكان متفرّجًا صامتًا فالتفتت الرؤوس، وقال:

ـ لقد كنت أراقب هذا المشهد، وأجدني مضطرًّا إلى قول بضع كلمات، فإذا ما تدخّلت الشرطة فسوف أكون الشاهد الوحيد هنا.

قال المساعد:

ـ وإنْ يكن؟

ـ عندئذٍ سأخبركم بالجانب الآخر من القصّة.

ـ أيّ جانب؟

ـ أنّك أسأت معاملة زبونتك، وأنّك لم تخدمها خدمة لائقة، وأنّك كنت بطيئًا مفتقرًا إلى الأدب، وغيرَ متعاون، وصعب المراس، وعدوانيًّا.

قالت صاحبة المحلّ:

ـ أيّها السادة، أيّها السادة!

وارتسمت على شفتيها ابتسامة استرضاء مدركة أنّ الموقف بدأ يخرج عن سيطرتها، وأضافت:

ـ دعونا لا نهوّل الأمر. لم يحصل أيّ ضرر، ولا ضرورة لاستدعاء الشرطة.

والتفتت بمبي في هدوء كأنّها تخوض في ماء، إلى الزبون الآخر ونظرت إليه، رأته حقًّا أوّل مرّة. كان يرتدي سترة بنّيّة من القطن المخملي المضلّع مزيّنة بقطعتين من الجلد عند المرفقين، وكنزة صوفيّة بلون بنّي فاتح وقبّة واقفة ضيّقة. كان طويل الوجه، بارز الأنف ذا شعر بنّي فاتح يلمع لمعانًا ذهبيًّا تحت النور ويرتدّ إلى الوراء من الجانبين، وكانت عيناه رقيقتين وإن لاح عليهما التعب والإرهاق، لونهما بلون الطقس العاصف، رماديّتين، صارمتي النظرات من خلف نظّارة جعلته يبدو أشبه بأستاذ جامعي ـ أو هذا ما ظنّته.

وكان المساعد يتأمّل فيه بدوره وإن كان تأمُّلاً ينطوي على الامتعاض. وقال في صوت يشوبه هسيس:

ـ حسنًا. كيف تمكنني مساعدتك إذًا؟

فقال الزبون.

ـ ساعد السيّدة أوّلاً، فأنت لم تساعدها حتى هذي اللحظة.

* * *

غادرا المخبز معًا ـ غريبان جمعتهما المصادفة. وبدا أمرًا طبيعيًّا سيرَهما معًا بضع دقائق، يستذكر كلّ واحد منهما ما مرَّ به من أحداث، فيجدّدا الألفة والمودّة. وأصرَّ هو على حمل أكياسها، فبدا ذلك شيئًا حسنًا لا بأس به، وإن لم تكن لتسمح بذلك أبدًا لو كانا في حيّها السكني.

سارا حتى وصلا ساحة اللعب القريبة، التي كانت خاوية ربّما بسبب الطقس العاصف. في هذه اللحظات اشتدّت الريح هنا وهناك اشتدادًا دفع أوراق الشجر إلى التساقط ضاربة الأرض وكأنّها أسيرة دوّامة. وعلى الرّغم من ذلك، فكّرت بمبي للمرّة الأولى منذ وصولها إنكلترا أنّ الطقس رائع، إذْ يكتسب الجوّ من وراء المطر والسحاب قدرًا من الهدوء اعتادته وبدأت تحبّه من دون أن تدرك ذلك. لقد تحوّلت إلى امرأة كثيرة التأمّل.

كان يراقبها من طرف عينه، وتنبّه إلى أنّ وجهها يخلو من مساحيق التجميل، وأنّ شعرها الذي تعبث فيه الريح من دون وشاح كان بلون الخريف، كستنائيًّا، لمّاعًا بخطوط تميل إلى الاحمرار لا تكاد تتضح معالمها، حتى إنّها تبدو غير متنبهة إلى وجودها. ووجد شفتيها المكتنزتين وغمّازتها المنفردة جذّابة جدًّا، ولكنّه احتفظ بأفكاره لنفسه. غريب هو الحظّ في الطبيعة، إذْ لو قُيّض لهذه المرأة أن ترتدي ثيابًا مختلفة وأن تبدو هيأتها مختلفة، فسوف تصيب رجالاً كثيرين بالذهول في الشارع، ولكن ربّما كان الأفضل أن

يكون جمالها متواريًا إلى حدٍّ ما.

وقالت بمبي وهي لا تزال تفكّر في الأحداث التي جرت في المخبز:

ـ كان ذلك الفتى معتوهًا.

فاعترض الرجل قائلاً:

ـ لا، ليس معتوهًا. إنّه عنصري.

فتوقّفت ذاهلة، فالعنصريّون هم الذين لا يروقهم السود، والذين يقفون ضدّ ريتّا، وقالت:

ـ أنا لست سوداء.

ضحك لهذه النكتة، ولمّا فهم أنّها لم تكن تمزح، رمقها بنظرة تنمّ عن دهشته وقال:

ـ لستِ مضطرة إلى أن تكوني سوداء كي يقف من هو عنصري موقفًا مضادًّا لك. ثمّة أنواع عديدة من العنصريّة وإن كانت كلّها متشابهة.

أصغت إليه محاولة أن تتبيّن لكنتَه، التي كانت مختلفة الاختلاف كلّه عن كلّ ما سمعته من لكنات منذ وصولها إلى هذا البلد.

ومضى يقول مساعدًا إيّاها كي تفهم:

ـ ثمّة بيض يكرهون السود، ثم هناك بيض يكرهون السمر، وزيادةً في تعقيد الأمور ثمّة بعض السود ممّن يكره السمر، وبعض السمر الذين يكرهون السود، ناهيك عن أولئك السود والسمر والبيض الذين يبغضون أنفسهم، والسود والسمر والبيض الذين

يكرهون كلّ فرد. ثم هناك الدين، ذلك المفرّق الكبير، فبعض المسلمين يكره كلّ اليهود، وبعض اليهود يكره كلّ المسلمين، كما أنّ بعض النصارى يكرهون كلّ من عداهم.

فسألت:

ـ لكن لم هذه الكراهية والبغضاء؟

وجفل هو لبساطة السؤال وبراءته وطفولته، للأسلوب الذي طرحته به، ولم يجفل للسؤال في ذاته. ولاحظ أنّها كانت جادّة. نسبة البطالة المتزايدة، الفقر ورهاب الأجانب، الخلافات الأيديولوجيّة، أزمة النفط... في تلك اللحظة لم تكن أيٌّ من هذه القضايا إجابةً كافية عن سؤال غاية في الوضوح والبساطة. أمّا هو، ذلك المتشكّك المخضرم، الذي نذر نفسه ألّا يكون مؤمنًا بأيّ شيء، والمتشائم دائمًا وأبدًا، والذي لا يثق بالأخبار ولا بالصحف، ولا يصدّق ما يُقال له حرفيًّا، وبضمن ذلك حقائقه نفسها، ولا يعلّق أيّ آمال تذكر على مستقبل البشريّة... فردّد كأنّه صدى بعيد:

ـ هذا كلام لا يجانب الصواب. لكن لم هذه الكراهية والبغضاء؟

وبعد مرور مدّة من الوقت، لم يعرف أيّ واحد منهما مَن الذي طرح فكرة الجلوس في الملعب، وقالت له بمبي بلغة إنكليزيّة غير سليمة إنّها تشتغل في محلّ تصفيف شعر، وإنّها طلبت استراحة قصيرة لتشتري بعض مستلزمات صنع طبق المهلّبيّة، ومضت تقول إنّها لم تستطع العثور على بندق يشبه البندق الذي كانت تستعمله في إسطنبول، وإنّها مضطرّة لذلك إلى استخدم اللوز بدلاً عنه.

ولدهشتها البالغة وجدته يصغي لها في تعاطف، ولم يخطر ببالها يومًا ما أنّ رجلاً ما، أيّ رجل، سوف يُظهر اهتمامًا كبيرًا بالطبخ.

وسألها:

ـ أنت تركيّة إذًا؟

ولم يتراءَ لها أن تقول إنّها كرديّة، لأنّ هذا لم يعنّ على خاطرها قطّ، وكانت تستغرق بعض الوقت دائمًا للكشف عن كرديّتها، وكأنّ ذلك فكرة تراودها بعدئذٍ. لهذا أومأت برأسها.

فقال لها في صوت يماثل صوت الفتاة:

ـ سيّدتي، لديَّ حلوى تركيّة، وحمّص...

فرمقته بنظرة من عينيها الواسعتين ولم تستوعب ما قال. لكنّه ضحك، لدهشتها البالغة، وقال:

ـ أعتقد أنّ هذا كلّ ما لديّ، فأنا لا أعرف سوى كلمات قليلة.

ـ وكيف؟

فردّ:

ـ كانت جدّتي يونانيّة، وهي من إسطنبول، ولم تعلّمني سوى كلمة أو كلمتين. آه، كم كانت تعشق تلك المدينة. ولكنّه لم يخبرها أنّ جدّته كانت قد هاجرت من إسطنبول في أواخر أيّام الإمبراطوريّة العثمانيّة وتزوّجت تاجرًا من أبناء المشرق، وأنّها ظلّت تشتاق إلى جيرانها وإلى بيتها المطلّ على خليج البوسفور حتى وافتها المنيّة. وحاول أن يتذكّر كلمات أخرى شائعة بين اللغتين التركيّة واليونانيّة، فكانت لكنته مبعثَ ضحكها، فخفضت

من رأسها وأغلقت فمها ـ وتلك إشارة عامّة يكرّرها الناس عندما لا يكونون راضين عن أسنانهم أو يعربون عن سعادتهم.

راقبها لحظة بدت له طويلة جدًّا، وقال:

ـ إنّني لا أعرف حتى اسمك؟

دفعت بمبي ببضع خصلات من شعرها من فوق عينيها، وعلى الرّغم من أنّها لم تذكر إلّا نادرًا أسماءها المتعدّدة، وأنّها لم تترجمها إلى الإنكليزيّة، فإنّها سمعت نفسها تردّد:

ـ اسمي بمبي قدر. وهذا معناه بمبي بخت.

لكنّه لم يعقد حاجبيه ولم يقهقه، على النحو الذي توقّعته، بل رمقها بدلاً من ذلك بنظرة وكأنّها كشفت عن سرّ من أكثر الأسرار مدعاة للهمّ والغم. وقال بعدئذٍ:

ـ اسمك شعر.

كانت بمبي تعرف معنى كلمة «شعر» بالإنكليزيّة، نعم، كانت تعرفها. فافترّ ثغرها عن ابتسامة هي الأولى منذ زمن.

فتحت الكيس الذي أخذته من المخبز وأخرجت منه إصبع شوكولا ناولته إيّاه واحتفظت بإصبع آخر لها. أمّا هو، فقد شاركها بخبز الفاكهة. مرّت لحظات ساد فيها الصمت بينهما، ولكنّهما بادرا بكلمات مثل: «إذًا» و«ربّما» و«لست متأكّدًا ولكنّني...»، وشيئًا فشيئًا، نسجا من حولهما حديثًا بدأ بالعنصريّة وطبق حلوى الرزّ.

كان اسمه الياس، وكان ـ شأنه شأنها ـ قد جاء إلى لندن منذ ثمانية أعوام، واستهوته المدينة، ولم تكن لديه أيّة مشكلة فيها، لأنّه غريب عنها، لأنّه هكذا في صميمه: غريب في كلّ مكان.

وتمنّت بمبي وهي تصغي إليه أن تكون إنكليزيّتها أفضل ممّا هي عليه، ولكنّ المرء لا يحتاج إلى طلاقة في لغة ما كي يتمكّن من التكلّم بها، صحيح؟ فهي وزوجها يتكلّمان لغة واحدة، ولكنّ التواصل بينهما بات نادرًا، هذا إن كان ثمّة أيّ تواصل.

فسألته:

ـ أنت يوناني إذًا؟

لم تخبره برأي أخي زوجها طارق باليونانيّين أو بكلّ السلبيّات التي سمعتها عنهم.

ـ حسنًا، ليس تمامًا. فأنا أتحدّر من أربعة أصول: يونانيّة ولبنانيّة وإيرانيّة وكنديّة.

ـ ولكن كيف؟

ـ حسنًا. تزوّجت جدّتي بلبناني، فرزقت بأمّي، ثم التقت أبي، الذي كان والداه مواطنَيْن كنديين أصلهما من طهران. أمّا أنا، فولدت في بيروت، ولكنّني نشأت وترعرعت في مونتريال، وأنا الآن لندني. فمن أنا إذًا؟

كم من الرحلات الكثيرة والبهجات المتعدّدة والبدايات الجيّدة في أماكن غير مألوفة! ألا يحسّ بشيء من الخوف والوجل وهو يحمل كلّ هذه الشكوك من حوله؟ وتذكّرت بمبي كيف أنّها حلمت بأنّها بحار يسافر إلى مرافئ نائية في سبع قارّات، لكن ذلك الحلم من أحلام الماضي البعيد.

وبدا وكأنّه قرأ ما يدور في ذهنها من شكوك، فابتسم لها وقال:

ـ ليس الأمر بذلك السوء، فبعض الناس ينتمون إلى كلّ مكان.

حوّل أنظاره من على خاتم الزفاف الذي تنبّه له على حين بغتة، ولم تلحظ بدورها ذلك الأثر الباهت الذي تركه الخاتم عليه، ظِلَّ زوجة لم تعد حاضرة ولكنّها لم تختفِ عن الأنظار تمامًا.

فسألته:

ـ وماذا تشتغل؟

ـ رئيس طهاة.

وهنا أشرق وجهها، وقالت:

ـ حقًّا؟

فردّ:

ـ نعم. أراهنك أنّ في إمكاني أن أصنع لك طبقًا من المهلّبيّة يستوي في جودته والطبقَ الذي تعدّين.

وتخيّلته بمبي وهو يقطّع البصل إلى مكعّبات أو يقلّب قطع الكوسا في مقلاة. وكانت فكرة إطلاق ضحكة غريبةً عنها، فما كان منها إلّا أن التزمت الهدوء قلقةً، لا تريد جرح مشاعره، فالرجال الذين عرفتهم نادرًا ما كانوا يدلفون إلى المطبخ لتناول قدح من الماء بأنفسهم، وهذا أسلوب فكّرت فيه الآن، وهو أسلوب تنشئتها ولديها، بخاصّة إسكندر.

وقالت:

ـ زوجتك محظوظة.

فقال إلياس مشيرًا وكأنّه يقتطع قطعة من الخبز:

ـ أنا وزوجتي منفصلان.

فما كان من بمبي إلّا أن حوّلت الحديث إلى اتّجاه آخر:

ـ وما رأي والدك؟ هل يستحسن قيامك بالطبخ؟

كان سؤالاً غريبًا، ولكنّه سؤال صحيح، فأوضح لها أنّ والده لم يكلّمه منذ سنين طويلة، وبدأ يشرح لها في صوت يعلو ويهبط، أنّ الأمور باتت على ما يرام في السنوات الأخيرة، وأخبرها أنّ اهتمامه بالطبخ يرجع إلى أيّام صباه عندما كان يبحث عن أشياء ترفع من معنويّات شقيقته كليو.

فسألته:

ـ وهل كانت شقيقتك مريضة؟

ـ لا، بل كانت فريدة من نوعها.

وأخبرها أنّ الأطفال في الحيّ كانوا يستعملون كلمة أخرى: متخلّفة عقليًا. كانت كليو قد ولدت مصابة إصابة حادّة بأعراض مرض داون، وعانت عوقًا بدنيًّا وعقليًا. وفي حين كان هو قد التحق بمدرسة من مدارس الحيّ وفي صفّ يتميّز تلاميذه بالموهبة، كانت كليو مضطرّة إلى قطع مسافة طويلة في كلّ يوم لتلتحق بمعهد متخصّص خارج البلدة. وكانت في غالب الأحيان متذمّرة، تعيسة، ترمي لعبها في كلّ مكان، وتنتف شعرها وتلتهم التراب. واكتشف إلياس الصغير أنّ الشيء الوحيد الذي كان يهدّئ من روعها هو الطعام اللذيذ. كانت فطيرة التفّاح الطازجة ترسم ابتسامة على وجهها وتساعدها على أن ترجع إلى حالتها السويَّة من جديد. وهكذا، ورويدًا رويدًا، تعلّم كيفيّة إعداد الطعام الشهي لكليو، وأدرك في الوقت المحدّد أنّه لم يكن يساعد أخته بل إنّها هي التي

كانت تساعده في طاعة قلبه.

عندما تعجن الطحين، تتسلّل الأرض إلى أوردتك، صلبة وقويّة، وعندما تشوي اللحم، تكلّمك روح الحيوان، ممّا يضطرك إلى تعلّم احترامها، وعندما تنظّف السمكة، فإنّك تسمع صوت تدفّق الماء الذي كانت تسبح فيه يومًا ما، ممّا يضطرك إلى وضع الخلّ عليها في رفق كي تمحو ذاكرة النهر من زعانفها...

أصغت بمبي ذاهلة، ولدهشتها فهمته، وإن كانت كلمات كثيرة قد فاتها سماعها.

* * *

قالت بمبي واثبة على قدميها ولم تدرك إلّا الآن مدى الوقت الطويل الذي انقضى:

ـ آه، يا الله! ينبغي لي أن أذهب.

ـ هل أساعدك في حمل أكياسك إلى محلّ تصفيف الشعر؟

فقالت في قوّة:

ـ لا، لا... سأكون في خير.

وخطر ببالها أنّ أحد المارّة ربّما يشاهدهما معًا فيخبر شخصًا آخر، وسوف يتجاذب الناس القيل والقال، ومن هناك سوف تصل الكلمة إلى مسامع أفراد أسرتها. وأدركت بقلب مفعم بالهموم أنّ السبيل معدوم لرؤية هذا الرجل من جديد، ولم يكن هو مدركًا ما يدور في ذهنها من أفكار، فأخرج من جيبه بطاقته:

الياس ستيفانوس روبرت غروغان

طاه

نظرت إلى الكلمات واستبدّت بها الدهشة لمرأى هذا العدد الكبير من الأسماء، تمامًا كالبلدان التي يتحدّر منها، وكان اسم المطعم واضحًا على قفا البطاقة.

ـ إن حضرتِ مساءً، فلن يكون في وسعي مغادرة المطبخ. كما أنّ أوقات الغداء لا تصلح أيضًا، لكن إن جئت بعد الساعة الرابعة، فسوف يسرّني أن اصطحبك في نزهة وأن أطهو لك.

أمّا هي، فلم تقدّم له أيّ شيء مقابل ذلك، لا بطاقة ولا عنوان ولا وعد.

ومال إلى أمام ليقبّلها على وجنتها ولكنّها تراجعت إلى الوراء، ممّا أربكه وأحرجه، فانتابها الذهول لذلك، فمدّت يدها ولكنّه كان لا يزال مفكّرًا في السبب الذي دفعها إلى عدم السماح له بتقبيل وجنتها. وفي غمرة ارتباكهما، انتهى به المطاف إلى مسح رسغها بينما ربتت هي على كتفه. كان من شأن الحرج الذي سيطر عليهما في تلك اللحظة أن يجعل أيّ عابر سبيل يضحك، ولكنّ الأمر كان بالنسبة إليهما مزعجًا، لهذا ابتعد أحدهما عن الآخر كأنّهما لمسا سلكًا مشحونًا بتيّار كهربائي، وبأسرع ما يستطيعان مضى كلّ منهما في سبيله.

* * *

الحسناء والوحش

لندن، كانون الأوّل، ١٩٧٧

كان يوم مولد توبيكو. قبل أقلّ من سنة، كانت حياة أسرة طبرق قد تعرّضت للتشوّش والاضطراب، إذْ بات يونس البالغ من العمر سبع سنوات، غارقًا في الحبّ ولوعته، وهو في البيت المحتلّ من الشبّان.

كانت توبيكو قد بلغت سنّ العشرين، وسمعها يونس تقول: «إنّني مولودة نموذجيّة من مواليد برج القوس» وإن لم تكن لديه فكرة عمّا إذا كان ذلك فَأْلاً حسنًا أو لا. وكان يونس من مواليد برج الأسد، غير أنّ هذا لم يكن يعني له أيّ شيء أيضًا. الشيء الوحيد الذي كان يهمّه هو أنّ فارق السنّ بينه وبين توبيكو ازداد واتّسع وباتت آماله في اللحاق بها الآن أضعف من أيّ وقت مضى.

لهذا، جلس في مكانه عابسًا، مقطّبًا، يأكل حبّ الذرة المشوي في طاس من مادّة بلاستيكيّة، ويراقب الشبّان المحتلّين

يفيضون حيويّة ونشاطًا وهم يناولون الهدايا للفتاة المحتفلة بعيد ميلادها: أقراط فضّيّة، دبابيس أمان إفرنجيّة، ياقة مدبّبة، أساور مضفورة، حزام مرصّع بأزرار زينة، جوارب شبكيّة، زوج أحذية طويلة قتاليّة، وثمّة لحاف مرقّع بقطع من قماش مختلفة الأشكال والألوان وعليه عبارة «ماريجوانا طيّبة» منقوشة على الحافّة، فضلاً على عدد من القلائد وعليها رموز، ملصق لباتي سميث كتب عليه (الشروق لستيفن كنغ وجنوب اللاشمال لتشارلز باكوفسكي)، خوذة شرطي (سرقت من ضابط شرطة تركها لحظة واحدة على منضدة في مقهًى محلّي)، ملصق عليه عبارة «السأم ثوري»، قميص تي شيرت أسود اللون وعليه صورة فريق غنائي يدعى فريق الملعونين.

نأى يونس بنفسه بعيدًا عن الضجّة لأنّه كان يريد أن يكون آخر من يقدّم الهديّة لتوبيكو. سببان لهذا القرار: الأوّل أنّه كان يأمل في أن يختلي بها وإن لبضع دقائق، ولكنّه كان أيضًا غير متأكّد إن كانت ستعجبها الهديّة التي اختارها لها أم لا، وتعمّقت هذه الشكوك بعد أن رأى ذلك الخليط من الهدايا التي أعطاها إيّاها الآخرون.

كان الصبي واجمًا، مثقلاً بالشكوك، متّخذًا مجلسه في ركن من الأركان عندما دخل الزعيم مرتديًا أضيق بنطال جينز يشاهده يونس في حياته، وسترة جلديّة بدت صغيرة جدًّا قياسًا إلى حجمه، ويضع حذاءً خاصًّا بركوب الدرّاجات الناريّة. جاء ولم يجلب أيّة هديّة لتوبيكو، بل اكتفى بقبلة نديّة ووعد: «هديّتي في وقت لاحق أيّتها الحبيبة».

مرّت برهة وجيزة من الزمان فكّر فيها يونس مهمومًا أن يفعل

الشيء نفسه، ففي إمكانه أن ينهض من مجلسه ويذهب إلى توبيكو على مهل ببنطاله المدرسي الرمادي وكنزته الزرقاء التي حاكتها له أمّه ويقول بالنبرة الغامضة والقويّة نفسها: «هديّتي في وقت لاحق أيّتها الحبيبة».

ماذا ستفعل توبيكو بعدئذٍ؟ هل سيفترّ ثغرها عن ابتسامة له كابتسامتها للزعيم؟ ارتاب يونس في ذلك، وأغمض عينيه عندما شعر بالتوتّر يتصاعد في معدته. طالما حذّرته والدته: حذارِ من البنات. الصبيان بسطاء، أمّا البنات فلسن كذلك، وسوف يعزفن عليك عزفهنّ على آلة الساز الموسيقيّة.

وإذا كان الأمر كذلك، وإذا كانت توبيكو تعامله معاملتها الآلة الموسيقيّة، فإنّ المعزوفة الصادرة عن يونس في ذلك اليوم كانت كئيبة وحزينة.

ـ هه! أيّها الرفيق، أتريد نَفَسًا؟

فتح يونس عينيه، فشاهد شابًّا ذا شعر كثيف وطويل مستلقيًا عند قدميه، وكانت عيناه جاحظتين في اتّجاه السقف، ويحمل بيده سيكارة ماريجوانا أشعلها قبل قليل، وكان على ذراعه وشم من هذه العبارة: عندما يقاتل الأغنياء، فإنّ الفقراء هم الذين يلقون حتفهم. لم يستطع الصبي منع نفسه من التفكير في نفسه، وبأنّ أمّه ستصاب بالهلع لو رأته على هذه الحال، ولكن بمبي سوف تطرح السؤال: لكن كيف يغسلون شعرهم؟ وسوف تضيف في قلق بعد أن اتّضح لها موقف جديد: إنّهم يغسلون شعرهم. صحيح؟

كان يونس قد احتسى الجعة من قبلُ ودخّن السكائر، ولكنّه لم يقترب من تعاطي المخدّرات. ذلكم موضوع مثير للجدال في

المنزل الذي احتلّه الصبيان، فهناك أولئك الذين يعارضون المخدّرات معارضة تامّة ويحتقرون الذين يُقْدِمون على تعاطيها (مؤيّدو الفهد الأسود وأنصار النسويّة الراديكاليّون والماركسيّون والتروتسكيّون)، وهناك الهيبيّون والهيبيّون السابقون، الذين كانوا يفضّلون أنواعًا بعينها من المخدّرات ـ الحشيش ـ من دون غيرها، كما أنّ هناك البانك والعدميّين والمأزومين، الذين يمتصّون الأعشاب بدلاً من تناول الحبوب والموادّ الكيمياويّة التي تمنحك طاقة هائلة وغضبًا هائلاً، ومع هذا، فإنّ الاختلاف المتواصل في المنزل لم يكن هو السبب الذي حال دون تعاطي يونس المخدّرات طوال الوقت، بل كان خوفه من ثورة أمّه.

ولكن بعد أن عُرض عليه أخْذُ نَفَس واحد، فإنّه لم يجد سببًا يدفعه إلى الرفض، لهذا السبب أمسك السيكارة وأخذ نفسًا بلغ من العمق حدًّا جعله يسعل من فوره ويخرجه من فمه.

وقال الرجل صاحب الشعر المرعب:

ـ هل علّموك هذه الأغنية؟

ثم أطلق عقيرته في الغناء:

ـ هيّا، هيّا، خذ سيكارة، في لطف وهدوء.

فما كان من يونس إلّا أن قهقه وأخذ نَفَسًا.

ـ خذ نَفَسًا من سيكارتي، وفجِّرْ دماغك اللعين.

أخذ يونس نفسًا وقهقه، ثم تسبّبا في جلبة كبيرة، فتنبّه الآخرون لهما، بضمنهم توبيكو، التي تقدّمت نحوهما ترمقهما بنظرة حزينة، وجلة.

وقالت وهي تخطف السيكارة من يد الصبي وتضعها بين شفتيها:

ـ لا تدخّن يا عزيزي. لماذا تحاول أن تتشبّه بالآخرين؟ أنت مختلف عنهم، لهذا فأنت مميّز.

ازدرد يونس ريقه في صعوبة وهو يرى نظراتها اللعوب ويسمع التوجّس في صوتها. وبدلاً من أن يتفوّه بالكلمات المقتضبة التي خطّط لقولها قبل الآن، هتف بها:

ـ لكن لديّ هديّة لك.

قالت توبيكو متظاهرة بالدهشة:

ـ صحيح؟ هل لي أن أسألك ما هي أيّها الطفل المدلّل؟

وقف يونس على قدميه، رافعًا رأسه إلى أعلى، دافعًا صدره إلى أمام كأنّه جندي على استعداد لتلقّي الأوامر، ثم ناولها الرزمة التي كان يحتفظ بها طوال المساء، وكانت تتألّف من علبة ذهبيّة وغلاف ذهبي وشريط ذهبي أيضًا، وفي داخل العلبة آلة موسيقيّة ورديّة وأرجوانيّة ورائعة، تمثّل شخصين ـ أميرة وغول ـ يقفان أمام قلعة ساحرة، يمسك أحدهما بالآخر، وكانت الأميرة ترتدي ثوبًا رائع الجمال، أمّا الوحش الهائل، فكان يقف بجانبها وقفة مرتبكة، والحياء ظاهر على محيَّاه، وعندما يُدار المفتاح، يبدأ الاثنان الرقص على إيقاع نغم يبدو صوته مثل صوت عربة مثلّجات تمرّ قريبًا من المكان. وما إن شاهد يونس هذا حتى أدرك أنّها مأخوذة عن قصّة الحسناء والوحش، وتذكّر أنّ توبيكو كانت مولعة بأغنية المغنّي ديفيد باوي التي تحمل العنوان نفسه، وإذا ما كانت قد

استمتعت بالأغنية، فإنّها سوف تستمتع بهذه أيضًا.

الحقّ أنّ يونس كان فكّر أوّل مرّة في شراء هديّة أخرى، يتساقط فيها نثار الأرزّ على العروسة والعريس وهما يتبادلان القبلات أمام إحدى الكنائس، ولكنّه ارتاب بعدئذٍ، خشية ألّا تروق توبيكو، فهي ضدّ الزواج وضدّ الدين، وفق معلوماته، وربّما تكون مناهضة لرمي الأرز في الهواء على ذلك النحو، ولهذا اختار هديّة أخرى ـ وإن كانت أغلى ثمنًا واستنزفت كلّ مدّخراته.

كان يونس يرى أنّ توبيكو لا تختلف عن الأميرة من حيث نقائها وروعتها، في حين كان هو أشبه بالوحش. كان وحشًا في ثيابه الأنيقة يقودها إلى حلبة الرقص، فهو البطل غير المحتمل في القصّة، وهو الفتى الذي لم يصبح رجلاً بعد، ولكنّه يملك من الطاقة ما يجعله قادرًا على أن يغدو يومًا ما رجلاً. كان الصبي يحمل طفولته وكأنّها سحر مشؤوم، مؤملاً أن يتخلّص منه عمّا قريب.

أدهشت سذاجة الهديّة توبيكو، فأمسكت بها في راحتي كفّيها وكأنّها طائر صغير وهتفت في بهجة:

ـ آه، يا لروعتها!

فابتسم يونس، فهو سوف يتزوّجها.

وسأل الزعيم، من الجانب الآخر من الغرفة:

ـ ما الشيء الرائع؟

إلّا أنّ توبيكو لم تجب.

اتّسعت ابتسامة يونس أكثر فأكثر حتى أضحت غطاءً يخيّم على المنزل، مُخْفِيًا من تحته بيوتَ العناكب، والبعوضَ الذي يحوم

حول وهج الشموع، والأَرَضَةَ التي تنخر في الكراسي الخشبيّة، وكلَّ شيء كان يتمنّى أن يجعله متواريًا عن الأنظار، وبضمن ذلك كلّ منافسيه الأقوياء.

* * *

انساب المساء مفعمًا بالموسيقى من «ذا كلاش» و«ذا كوكني ريجيكتس» و«ذا سكس بيستولز»، وبقالب حلوى عيد الميلاد المطعَّم بالشوكولا والموز والحشيش. وكان قالب الحلوى يخلو من الشموع المخصَّصة لإطفائها، ولكن القناديل النحاسيّة/ القصديريّة، المسروقة من أحد المحلّات في اليوم نفسه، وفّرت الجوّ الاحتفالي المطلوب.

كان يونس قد احتسى الآن أكثر من بضع رشفات من الجعة وأكل عددًا من قطع قالب الحلوى المشكوك في أمرها. لم يكن مصابًا بدوار تامّ، ولكن معدته كانت متقلّبة، فبذل قصارى جهده كي لا يتقيّأ، وجلس متّكئًا إلى الوراء، تدور عيناه من على الجدران. وتنبّه من تحت الضوء المتراقص، إلى صورة لم يسبق له أن لاحظها، تمثّل رجلاً ضخم الكتفين ذا أنف بارز ولحية بلون الملح وشعر في حاجة ماسّة إلى أن يؤدّي المشط دوره فيه. ولمّا كان اليوم هو يوم عيد مولد توبيكو، فقد افترض أنّ للرجل صلة ما بها، فسألها مشيرًا إلى الصورة:

ـ أهذا هو جدّك؟

ولكن قبل أن تتبيّن توبيكو فحوى كلامه، ناهيك عن الإجابة عنه، كان الرجل ذو الشعر الفظيع اسْتَرَقَ السمع، فالتفت إلى الآخرين وهتف بمرح:

ـ هه! الفتى يسأل إن كان كارل ماركس جدّها!

فأعقب كلامه ضحكة، بينما قال أحد الجالسين ببهجة:

ـ إنّه جدّنا كلّنا.

وأضاف الزعيم مسرورًا على ما يبدو:

ـ سوف يغيّر جدّنا من العالم.

أدرك يونس أنّه تفوّه بكلام ينمّ عن غباء وسذاجة، فاحمرّ وجهه حتى أذنيه، ولكنّه كان لا يزال مضطرًّا إلى مواجهة الزعيم، ولهذا بادره متسائلاً:

ـ ألا تجده أكبر من ذلك؟

فجاء الردّ:

ـ إنّه كبير السنّ وحكيم.

لكن يونس ألحَّ:

ـ وهو بدين أكثر ممّا ينبغي.

فصدرت عن الحاضرين قهقهة أخرى، غير أنّ الزعيم بدا جادًّا وضاقت عيناه إلى حدٍّ كبير، وقال:

ـ ألا يجدر بك أن تبدي قليلاً من الاحترام أيّها الصديق؟ لقد كان ذلك الرجل يدافع عنك، وكان يناضل من أجل حقوق أمثالك من الناس.

غير أنّ يونس اضطر إلى أن يسأل:

ـ هل كان تركيًّا؟

فضحك محتلّو المنزل ضحكًا مدوّيًا، بل سقط أحدهم من

فوق الأريكة، ثم جفّفوا الدموع من مآقيهم وهم ما زالوا يضحكون وأصغوا متعطّشين إلى ما هو أكثر.

وقال الزعيم موضحًا:

ـ أمثالك من الناس عبارة معناها الذين لا يملكون.

فسأل يونس:

ـ وما معنى الذين لا يملكون.

ـ الذين لا يملكون هم الناس الذين حُرموا من حقّ التملّك كي يتمكّن الذين يملكون من امتلاك أكثر ممّا ينبغي لهم امتلاكه.

وقف يونس يعضّ على شفته السفلى مقطّبًا.

واسترسل الزعيم في كلامه:

ـ ليس على وجه الأرض من يوازي الإنسان في قسوته وجشعه. وقد شُيّد النظام الرأسمالي برمّته على استغلال الذين يملكون للذين لا يملكون استغلالاً منظّمًا. أنت وأنا وصديقنا الفتى هنا وأسرته، كلّنا من عامّة الناس! خيار البشر! الرعاع العظام!

ضحكوا، ولكن ضحكهم كان مختلفًا في هذه المرّة، إذْ كانت تشوبه مسحة من الرقّة تمتزج فيها الشفقة بالعطف.

إلّا أنّ الزعيم أخفق في غمرة إحساسه بالصواب، أن يلاحظ أنّ مزاج الحاضرين قد تبدّل. فقال:

ـ استيقظوا على الحقيقة أيّها الشبّان. إنّ الناس من أمثال آبائكم مُستغَلّون طوال الوقت كي يتمكّن الآخرون من ملء جيوبهم.

كبت يونس شهقةً وقفز على قدميه مرتبكًا إلى حدٍّ ما، وقال:

ـ لم يستغلّ أحد والديَّ ولسنا من الرعاع. كما أنّ والدتي ملاكمة.

لم تكن الكبرياء وحدها هي التي دفعته إلى التفوّه بمثل هذا الكلام، إذْ إنّه لم يفكّر يومًا ما في أسرته على أنّها أسرة فقيرة. صحيح أنّ والدته كانت تتذمّر أحيانًا بشأن تدبير المصاريف، ولكن لم يشر أحد من أفراد الأسرة إلى أنّه معوز أو محروم أو من الطبقة الدنيا أو ممّن لا يملكون شيئًا.

في هذه المرّة لم يضحك أحد. ازدادت حلكة الظلام في الخارج، وفي مكان ما لا يبعد كثيرًا، وتحت أنوار مصابيح الشارع الخافتة، كانت بمبي تنتظر قرب نافذة المطبخ وقد خيّم عليها صمت مطبق ووحدة هائلة وكأنّها شكل من أشكال الدمى.

وقال الزعيم ضاحكًا كي لا تؤخذ كلماته على محمل النهر والتأنيب:

ـ هه! إنّني لا أعني توجيه الإهانة، فأنت صغير لا تحتملها.

كانت هذه الكلمات الختاميّة أكثرَ الأشياء التي كان يكرهها يونس: عمره وتناقضه واستحالة الحبّ، وهنا تهاوى على كرسي واجمًا، حزينًا.

وهمست توبيكو:

ـ لا تعارضه، فالوقت بات متأخّرًا وربّما ينبغي لك الذهاب.

قال يونس مُقرًّا، مقطِّبَ الوجه، متقلِّبَ المعدة:

ـ صحيح. ينبغي لي الانصراف.

ـ طابت ليلتك أيّها العزيز.

ودّعهم يونس ملوّحًا، لا بوضْع يده على صدره كما علّمه والده وعمّه، بل برفع السبّابة والإصبع الوسطى، وهو أسلوب يلجأ إليه محتلّو المنزل. وما أن تقدّم خطوة حتى بدأت الغرفة تمور به، وتحوّلت الأنوار إلى لون لؤلؤي رقيق، فانسلّ إلى عالم آخر، ومن دون سابق إنذار وأمام الحاضرين كلّهم، تقيّأ الفتى على ثوب عيد ميلاد المرأة التي أحبّها وليس على الأرض، وقال متأوّهًا:

ـ آه، لا.

وناح قبل أن يغمض عينيه، مدركًا الإدراك كلّه أنّها لن تحبّه أبدًا بعد الآن.

في تلك الليلة، حمل محتلّو المنزل يونس إلى بيته وقرعوا الجرس وأطلقوا سيقانهم للريح قبل أن تفتح بمبي الباب بثوانٍ قليلة وتجد ولدها وقد تعالى شخيره ببهجة من فوق عتبة الباب.

* * *

سترة صوفيّة منفوشة

لندن، ١٨ كانون الأوّل، ١٩٧٧

منذ أن بدأ الفصل الدراسي، تولّهت كاتي إيفانز بإسكندر ولهًا يكاد يكون خارجًا عن سيطرتها: أليكس، ألكسندر، فتحة شرج، مغرور، رفقة أصدقائه دومًا، يظنّ نفسه زعيم عصابة. . . لكن عليها أن تعترف أنّه رجل قوي ذو سحنة زيتونيّة فاتحة اللون وعينين متّقدتين. وأخيرًا لمّت أطراف شجاعتها لتسأله إن كان يرغب في الخروج وإيّاها، فردَّ عليها إسكندر ردًّا مقتضبًا: «لا بأس»، وقال إنّه مضطرّ في يوم الأحد إلى مساعدة أمّه صباحًا وإلى أن يتدرّب على الملاكمة من الساعة الحادية عشرة حتى الثانية من بعد الظهر، أمّا بعد ذلك فإنّه مستعدّ للقائها إن كانت تلك هي رغبتها.

قبل ساعات من حلول موعد اللقاء، كانت كاتي في حجرتها تجرّب الثياب واحدًا تلو الآخر، واجمةً أمام المرآة ـ الكنزات الصوفيّة من الموهير فاتحة الألوان: أرجواني فاتح ضارب إلى الحمرة، قرنفلي ضارب إلى الصفرة، خزامي، أو مثل زبد البحر،

التي اشترتها رفقة والدتها. بدت مفتقرة إلى الأناقة والذوق الرفيع. وينطبق الأمر كذلك على تنّورات من علامة لورا آشلي وثياب الصنف الممتاز وأحذية من علامة ماري ـ جين. كانت ترنو إلى خزانة ثيابها بعيني إسكندر، فانتابها الذعر من المسحة البنّاتيّة. وبعد بحث شاقّ وإحباط كبير، استقرّت على المظهر الاعتيادي غير الرسمي، وارتدت بنطالاً من الجينز واحتذت حذاءً خفيفًا من قماش ونعل مطّاطي وكنزة فضفاضة كحليّة اللون. ومشّطت شعرها بهيئة ذيل الحصان ولم تضع على وجهها إلّا مقدارًا ضئيلاً من مساحيق التجميل، مؤملة منه أن ينظر إلى أسلوبها على أنّه علامة من علامات الثقة بالنفس أو التواضع، أو كليهما، وهذا هو الأفضل.

وصلت كاتي المقهى قبل الموعد المحدّد بخمس دقائق بعد أن تفحّصت مظهرها أمام كلّ واجهة زجاجيّة من واجهات المحلّات والمتاجر التي مرّت من أمامها. مرّت أربعون دقيقة ولم يصل إسكندر بعد، وفي غمرة إحساسها بالكبرياء وعدم تقبّل الهزيمة، استدعت النادل وطلبت كوكاكولا من جديد. الحقّ أنّها كانت ترغب في بادئ الأمر أن تحتسي شرابًا مخفوقًا باللبن ـ كالفراولة والموز ـ وهو الشراب الذي تفضّله كثيرًا، ولكن بعد برهة وجيزة من التفكير، غيّرت من رأيها، معتقدة أنّ مثل ذلك الشراب يبدو من مميّزات البنات.

فرغت كاتي تقريبًا من احتساء الكوكاكولا الثانية وكاد صبرها أن ينفد عندما انفتح الباب بقوّة ودخل إسكندر يمضغ علكة ويحمل حقيبته الرياضيّة وشعره لا يزال مبلّلاً على أثر استحمامه. وكان في

وسعها أن تلاحظ أنّه قد تصرّف على هواه من حيث الوقت، ومشّط شعره كما يريد للحاق بموعد لقائهما.

وقال:

ـ كيف حالك يا حبيبتي؟

كانت تلك الكلمة البسيطة والساذجة، حبيبتي، قد دفعت بهياجها وسَوْرتها خارج النافذة، وتورّدت وجنتاها قليلاً. وأضاف:

ـ هل انتظرت طويلاً؟

ـ لا بأس.

لم تفطن إلى عينيه السوداوين وهما ترنوان إلى شعرها وإلى شفتيها والجزء الأعلى المنتفخ الذي يخفي نهديها. وتساءل عن السبب الذي حال بينها وبين ارتداء ثياب أكثر أناقة.

ـ كيف سار تمرينك مع الملاكمة؟

فقال إسكندر:

ـ مدرّبي عظيم، مفتول العضلات شديد التحمّل، أحد المظليّين سابقًا، شارك في القتال في إيرلندا الشماليّة. رجل مصنوع من عجينة مذهلة.

ـ وهل استخدم بندقيّة يومًا ما؟

ضحك إسكندر هازئًا. هل استخدم بندقيّة يومًا ما؟ لا بدّ أنّه قتل في الأقلّ عشرة أشخاص، وعانى من ألم الجراح بسبب الانفجارات. لقد تعلّم هذا الرجل الملاكمة بأسلوب صعب.

وعلى حين غرّة، امتقع وجه كاتي وشعرت بالسعادة لأنّها لم تلبس أيّ كنزة من كنزاتها الصوفيّة المنفوشة.

وسأل إسكندر مشيرًا إلى قدحها الفارغ:

ـ ماذا تشربين؟

ـ شربت الكوكاكولا مرّتين. أتريد مشاركتي؟

فقال إسكندر:

ـ لا، إنّني أكره الكوكاكولا لأنّها تجعلني أشعر بالترهّل والانتفاخ. ثمّة شيء غير مفهوم في تلك التركيبة السرّيّة. إنّني أفضّل الشراب المخفوق باللبن.

لم تندّ عن كاتي أيّ حركة وهي تنظر إلى إسكندر وهو ينادي على النادل ويطلب مشروبين ـ كوكا لها ومخفوق اللبن له، بالموز والفراولة. وثرثرا طويلاً: في موضوع المدرسة، والأطفال القذرين الذين لا يستحمّون أبدًا، والمعلّمين الذين لا يطيقونهم... وكانت كاتي قد بدأت تبتهج وإذ بها تفاجأ بوجهه وقد انقلب كالحًا، واجمًا:

ـ ماذا تفعلين هنا معي يا كاتي؟

تذبذت نظرتها لحظة واحدة، قبل أن تستقرّ عليه من جديد، وفكّرت إن كان في وسعها أن تعترف له أنّها أنفقت الليلة الماضية حاضنةً جهاز التسجيل الخاصّ بها وتصغي مرارًا وتكرارًا إلى الفريق الغنائي «بي جيز» وهو يغنّي أغنية.

ـ حسنًا... إنّنا نتجاذب أطراف الحديث لا غير.

ـ انظري إليَّ! ولا تسيئي الظنّ بي. أعتقد أنّك فتاة رائعة، ولكنّنا لا ينسجم أحدنا مع الآخر. أنا وأنت نعرف هذا الشيء. أعني... أعني أنّني لست الرجل المناسب لك. فعالمي مختلف

عن عالمك.

عضّت على شفتها السفلى، توشك أن تنفجر بكاءً، كأنّ شيئًا لا يقدّر بثمن سُرق من عندها. ولمّا وجدت أنّه رفضها مثل هذا الرفض الواضح، ولأنّه ظنّ أنّهما غير منسجمين، ولأنّه صعب المنال، إذا بالفوز بقلبه يصبح على حين بغتة أهمّ هدف في حياتها، فقالت وهي تخطو خطواتها من على خطّ يفصل بين الحبّ والمواجهة:

ـ ولكنّك لا تعرفني حقّ المعرفة.

فقال إسكندر من دون أن يبدو عليه أسف أو اعتذار بعد أن استبدّت به دهشة محبّبة وهو يرى كاتي إيفانز بمثل هذه الهشاشة وهذا الضعف، بهذه العذوبة التي خالها واضحة عليها:

ـ آه، لم أكن أنوي مضايقتك، لكن دعيني أقول لك إنّنا بدأنا بداية سيّئة. لم لا نحاول من جديد؟

ثم مال إلى أمام وأمسك يدها، وقال:

ـ مرحبًا. كيف حالك؟ اسمي إسكندر، وفي وسعك مناداتي أليكس.

فافترقت شفتاها قليلاً وهو تقول:

ـ يسرّني اللقاء بك.

وقبل أن يغادرا المكان استأذن إسكندر وذهب إلى المرافق الصحّيّة، وفي منتصف المسافة على السلالم التقى رجلاً شابًّا وضامرًا، حليق الرأس، أزرق العينين، تكسو البقع وجهه. نظر الرجل، الذي كان يعمل مساعدًا في مخبز في أحد الأحياء، مليًّا

إلى إسكندر برهة وجيزة، وافترّ ثغره عن ابتسامة خافتة.

وعندما دلف إسكندر إلى المرفق الصحّي، رأى رجلاً يتبوّل، متأنّقًا في مظهره ويصفّر لحنًا بهيجًا. أغلق الباب، وتوقّف منذهلاً ممّا رأى، فعلى ظهر الباب رُسم صليب معقوف بطول قدمين وبجانبه عدد من الشعارات العنصريّة والبذيئة، ومن تحت الصليب عبارة: قوّة البِيض. وكانت بعض الكلمات الأخرى المكتوبة قد أزيلت أجزاء منها بأداة معدنيّة، في حين أزيلت أجزاء أخرى بمادّة صبغيّة. نظر إسكندر إلى الصبغ نظرة فاحصة وفكّر أنّ من ارتكب هذا العمل إنّما ارتكبه قبل وقت قصير لأنّه لم يمض على وجوده في المكان زمن طويل.

غادر المكان في عجالة من أمره وأومأ برأسه إلى الرجل الذي كان يغسل يديه وجلاً. وفي طريق عودته إلى كاتي تمنّى لو أنّه دخل المرفق الصحّي قبل دقيقة واحدة لا أكثر، كي يرى الفاعل.

* * *

خرجا للتنزّه، فارتاحت كاتي، التي احتست ثلاث زجاجات من الكوكا. سارا على غير هدًى، ومرًّا ببائعي الخضروات والصيادلة ومحلّات الرهان، فيما لاحقتهما البقيّة الباقية من أشعّة الشمس. وعلى الرّغم من ضجيج النهار وكآبة السماء، فإنّ عددًا كبيرًا من الناس خرجوا لقضاء أشغالهم.

ولمّا وصلا حديقة ڤيكتوريا توقّفا بالقرب من بركة الماء يراقبان الحَمَام، وشعرا بلذّة العشب من تحت أقدامهما نقيًّا، واعدًا بالنماء، فوضع ذراعه من حولها وجذبها إليه وقبّلها. راقتها الرائحة المنبعثة منه وراقها طعم شفتيه، وارتاحت لأنّه لم يحاول أن يمدّ

يده من تحت ثيابها لملامسة نهديها، وهو ما يفعله غيره من الصبيان مؤمِّلين الاندفاع والمضي إلى ما هو أبعد من ذلك. ولاحظت الحماسة في صوته والجرأة في عينيه والجوع في روحه.

تشابكت أيديهما وجلسا على مصطبة يراقبان المارّة، ويهمس أحدهما في أذن الآخر بكلمات عابثة ضدّ كلّ من يمرّ من أمامهما. وابتسم بعض المارّة لهما، سعداء لأنّهم كانوا يشاهدون شابّين آخرين مولعَيْن أحدهما بالآخر. أمّا البعض الآخر، فأشاح بوجهه بعيدًا متفاديًا النظر إليهما.

وسألت كاتي:

ـ ما رأيك في ذلك الرجل؟ ألا يبدو محتلًّا؟

لاحقت عينا إسكندر عينيها إلى أن وقعتا على رجل نحيل البنية، أسود الشعر يقترب منهما، وسرعان ما تصلّب ظهره وارتخت ذراعاه من حولها.

ـ ماذا؟ أتعرفه؟

ولّى إسكندر ظهرَه الطريق من دون أن ينبس بكلمة، ورفع قبّة سترته إلى أعلى ليخفي وجهه، ومرَّ بهما الرجل الذي يطلق عليه الناس صفة «الخطيب» بعد مرور بضع ثوان من دون أن ينظر اليهما إلّا نظرة خاطفة وهما جالسان على المصطبة.

وسألت كاتي:

ـ ماذا يجري؟ أهو شخص لا تريد أن تراه؟

ـ لا بأس. لكنّني لا أريده أن يراني في رفقتك.

أثار اهتمامَ كاتي السلوكُ الذي سلكه، كان وكأنّ فخًّا من

فولاذ نُصِبَ له كلّما طرحت عليه سؤالاً لا يرغب في الإجابة عنه، وبضمن ذلك الأسئلة الخاصّة عن أسرته وطفولته. ثمّة جوانب في شخصيّته لم تستطع فهمها، فهو شابّ بارد الأعصاب، كما ظنّت، ولكنّه سهل التعرّض إلى نوبات من الغضب. كانت كاتي واثقة أنّه في لقائهما في المرّة القادمة ـ وكانت كاتي تدرك أنّ ثمّة مرّة قادمة ـ سوف يعاملها معاملة أفضل. كانت واثقة من هذا.

عجائب

لندن، ٢٤ كانون الأوّل، ١٩٧٧

في مطبخ فسيح، حَسَنِ الإضاءة يحتشد بالطهاة والمساعدين، وقف إلياس المالك ورئيس الطهاة في منزل كليو مثقَلاً من فوق موقد كبير الحجم كانت تئزّ من عليه مختلف المقالي. وحرَّك في بطء صلصة فطر كثيفة بالقشدة، وكانت جاهزة إلى حدٍّ ما ولكنّها لم تكتمل بعد، وكان يضع عليها دائمًا مقدارًا من جوزة الطيب قبل أن يرفعها من على النار. ذلكم هو سرّه الصغير. واليوم لا بدّ أن يكون كلّ شيء على ما يرام لأنّ اليوم هو عشيّة الكريسمس.

وكان إلياس النصراني الأرثوذكسي بالولادة، والذي اختار أن يكون بلا دين، يهيم بروح الكريسمس: الغناء ولمّ شمل الأسرة والمشاركة وتقديم الهدايا، وعلى وجه الخصوص الإيمان بالمعجزات. ذلك هو الجانب الذي يمكنه أن يتكلّم فيه على أحسن ما يكون الكلام، ففي صباه كان قدّيسه المفضّل هو القدّيس أندرو الكريتي، لا لأنّ هذا القدّيس أشدّ ورعًا وتقوى من بقيّة القدّيسين،

بل لأنّه ـ بخلافهم ـ كان في ذاته أعجوبة من الأعاجيب المتنقّلة، فقد كان القدّيس أندرو مُصابًا بالخرس منذ ولادته، وبقي على ذلك الحال إلى أن بدأ يتكلّم في يوم من الأيّام وهو لم يتجاوز سنّ السابعة، عن حقائق تتجاوز عمره الصغير يومذاك. كان إلياس يهوى تلك الحكاية ويستلذّ أيّما استلذاذ في تخيّل الصدمة التي ارتسمت على وجوه الناس من حول الطفل عندما نطق بكلماته الأولى، واستمتع كثيرًا لأنّ القدّيس خلّده التاريخ بوصفه خطيبًا مُفَوَّهًا ومؤلِّف تراتيل دينيّة، فإذا كان صبي أخرس قادرًا على هذا العمل، فإنّ الحياة قد لا تكون بتلك المرارة التي يمكن أن تبدو بها أحيانًا.

بعد أن وضع إلياس جوز الطيب في المقلاة، حرَّك محتويات الصلصة مرّة أخرى وأطفأ الموقد، وهنا وقف مساعده إلى جانبه وأفرغ الصلصة في وعاء من الخزف لتبرُدَ قبل أن تُسكب في خمس وخمسين قطعة من شرائح لحم البقر قبل تقديمها.

ورنا إلياس إلى ساعته ليعرف الوقت قبل أن يبدأ في إعداد الطبق التالي، وهو قالب حلوى بالكمثري وبصلصة الجوز. لم يستخدم إلياس أيّة أدوات طبخ معدنيّة في إعداد أيّ طبق من أطباقه، وذلك سرّ آخر من أسراره. لا بدّ لكلّ شيء أن يكون مصنوعًا من الخشب، فالمعدن بارد وصقيل ومكتمل أكثر ممّا ينبغي، كما أنّه لا يربط بين الأشياء، بل يسيطر عليها. أمّا الخشب، فإنّه مربك وخشن لكنّه وفيّ.

لم تبق سوى سبع ساعات على حلول الكريسمس، وبقدر ما يخصّ الأمر قضيّة العدّ، فإنّ عام ١٩٧٨ لم يبق على حلوله سوى

أيّام قليلة. ولكن إلياس لم يأمل كثيرًا بحلول العام الجديد، ربّما راوده أمل واحد، وهو ألّا يكون عامًا فظيعًا كالعام الذي يقترب من نهايته.

كانت الأشهر الماضية من السنة هي الأشدّ على مدى العقود الخمسة المنصرمة من حياته، فقد بدأ العام وحياته الوظيفيّة في ازدهار، وبزوجة جذّابة ومنزل مترامي الأطراف في حيّ إيزلنغتون، وأعماله في المطعم أكبر من طاقته على السيطرة عليها، لكنّه بعد مرور سبعة أشهر، بات عازبًا، يقطن شقّة صغيرة لا تكاد تحتوي على أثاث جدير بالذكر. وباستثناء عدد قليل من الأصدقاء، لم تعد له صلات اجتماعيّة تُذكر مع الآخرين، وبات منكفئًا من محنة طلاق لم يكن على استعداد له. أمّا من الناحية العاطفيّة، فقد شبَّه إلياس حالته بحالة نموذج مصغّر لقطار انتهت صلاحيّة بطّاريّاته في وقت كان يرتقي إحدى التلال. وفي المرحلة الأخيرة من زواجه، ظلّ يحاول ويبذل قصارى جهد لم يعد يمتلكه، إلى أن انحرف عن مساره. كان الطلاق شيئًا بغيضًا، ولم يتصرّف لا هو ولا زوجته تصرّفًا طبيعيًا كعهدهما في سابق الأيّام.

وطالما وجد نفسه يجادل في أمور ماليّة أكثر من الأمور العاطفيّة، إلى أن صرفها من ذهنه وصرف وإيّاها نفقة الطلاق والذكريات.

كان قد هام حبًّا بزوجته، وما زال يهيم بها على نحوٍ ما أحيانًا، فقد كانت أنابيل، ذات القوام الممشوق والكتفين الهزيلتين والسحنة الشاحبة واللكنة البريطانيّة الواضحة والأفكار القليلة، هي السبب في انتقاله إلى هذا البلد، ولمّا كانت إنكليزيّة أكثر من

الملكة نفسها ومرتبطة ارتباطًا وثيقًا بأسرتها في مقاطعة غلوسترشاير، ولمّا كان عمله أكثر مرونة من عملها ـ حيث كانت مؤسِّسة مركز نسائي قانوني رائد، فقد بدا أمرًا طبيعيًّا استقرارُهما في لندن بعد قضاء شهر عسل قصير في جزيرة إيبيزا الإسبانيّة.

لم يعترض إلياس على هذه اللحظة في أيّ مرحلة، إلّا أنّ الانتقال لم يكن سهلاً، فقد كانت لندن في بداية السبعينيّات بعيدة البعد كلّه عن جنّة الطبخ، ولم يكن فيها سوى عدد قليل لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة من مطاعم الدرجة الأولى، وكان الناس ينظرون إلى الأطباق الجديدة والأطعمة المنتمية إلى ثقافات متعدّدة نظرة ملؤها الشكّ والريبة. صحيح أنّ الطعام الهندي كان يحظى بسمعة طيّبة نسبيًّا، ولكن نكهته لم تكن لتشبه النكهات التي كان إلياس يريد أن يقدّمها. على أيّة حال، وجد الطعامَ الإنكليزي ثقيلاً وخاصًّا بالإنكليز وحدهم، وكان الزبائن يقاومون الأطعمة الجديدة التي كان يرغب في إعدادها.

وفي نهاية المطاف، انتهى زواجهما على النحو الذي بدأ تمامًا، انتهى بإحساس بضرورة التحدّي، وما أن وُقّعت أوراق الطلاق حتى لم يعد لدى إلياس من سنوات الزواج السبع والنصف سوى قطّ فارسي هرم وكسول يُدعى ماغنوليا وألبوم صور فَقَدَ الرغبة في النظر إليه مع مرارة في ذاكرته، وفي أحلامه أحيانًا.

وفي منتصف فصل الصيف تلقّى مكالمة هاتفيّة من أمّه تخبره أنّ والده أُصيب بنوبة قلبيّة ثانية، وأنّه لم ينج منها هذه المرّة. ولم يكن إلياس يعرف شيئًا عن النوبة القلبيّة الأولى.

وقالت:

ـ كان دائم الحديث عنك في كلّ يوم. كان والدك يكنّ لك ولما أنجزْتَه هناك الاحترامَ كلّه. وكانت كبرياؤه تحول بينه وبين التعبير عن ذلك أمامك مباشرة.

كان الاتّصال الهاتفي ضعيفًا جدًّا جعله غير متأكّد من سماعها على نحو صحيح، وقال:

ـ إنّني عائد إليك يا أمّاه!

فقالت له:

ـ ليس الآن يا عزيزي. سوف تأتي لزيارتي ولزيارة كليو عندما تتحسّن حالك وحالي، أمّا الآن فلا فائدة من ذلك لكلينا. ابق حيث أنت وافعل ما أنت مضطرّ إلى فعله، لأنّ والدك كان يفضّل ذلك.

ولكن حتى من دون كلماتها، كان إلياس يدرك أنّه قرّر عدم الرحيل عن لندن، وسوف يعمل من دون كلل، ملتهمًا ماضيه، عنيدًا وجائعًا مثل دعسوقة تلتهم كلّ ورقة من أوراق الشجر تقع أنظارها عليها، ومن ثم سينتظر شخصًا ما ليخلّصه من هذه الشرنقة وقد انتقل إلى طور آخر. أمّا الشيء الوحيد الذي ظلّ من دون أن يمسّه أيّ تغيير طوال العام ١٩٧٧، فهو عمله.

كان المطعم في حالة من الازدهار الكبير، وكان يخطّط لفتح مطعم ثانٍ في ريتشموند ـ كأنّه يريد بذلك أن يعوّض عن الفوضى الضاربة أطنابها في كلّ مكان.

أصبح إلياس الآن معتادًا ألمًا بدأ أوّل الأمر في معدته وانتقل من بعد ذلك إلى قفصه الصدري ليستقرّ فيه، فزاد من صعوبة ضحكه، بل حتى التنفّس أحيانًا. وواصل أصدقاؤه الاتّصال به

هاتفيًّا، وألحّوا عليه أن يلتقيهم من جديد، وتركوا له رسائل على الهاتف، ورتّبوا له مواعيد لقاءات أوّليّة مع نساء كنّ معجبات بذواتهنّ أو يحتقرنها.

الحقّ أنّ إلياس وجد نفسه رويدًا رويدًا يبحث عن مسوّغات وذرائع لكي يخلو إلى نفسه. لقد أصبحت الوحدة ذلك الإحساسَ المثير لضجره وهلعه طوال حياته تقريبًا، الواضحَ وضوحًا ملموسًا وماديًّا الآن، وكأنّه سائل من السوائل اندفع إلى مسامات جسمه مبلِّلاً كلّ أوعية جسده وأنسجته الدمويّة، مثل ماء يبلّل قطعة جافّة من الإسفنج. وممّا يبعث على الاستغراب أنّه لم يجد في ذلك أيّ خير.

بخت بمبي هو اسمها الذي ذكرته. لم يستطع إلياس منع نفسه من ملاحظة الفرق الهائل بينها وبين أنابيل. ولو أنّ زوجته السابقة التقت بمبي لابتسمت ابتسامة تنمّ عن معرفة، لوجدتها بسيطة تفتقر إلى التعقيدات، ولتساءلت إن لم يكن الرجال كلّهم يتمنّون من صميم قلوبهم الزواج بمثل هذه المرأة: امرأة غير معقّدة، امرأة لا تطرح أسئلة عليهم ولا تناكدهم أو تنتقدهم أو تتحدّاهم. بل وسوف تضيف أنابيل قائلة إنّ تلك فانتازيّا وهميّة، لأن لا وجود لشيء اسمه امرأة غير معقّدة، وأنّه لا وجود إلّا لأولئك المعقّدات صراحة أو أولئك اللواتي يخفين عقدهنّ.

وعلى الرّغم من وجود أنابيل في ذهن إلياس، إلّا أنّه كان يفكّر في بمبي، ففي البدء تمنّى لو أنّها زارته وأن يتحدّثا عن أشياء

تروقهما، وربّما يطهو أحدهما للآخر طعامًا ـ تبادلٌ ينمّ عن صداقة ودِّيّة، لا شيء غير ذلك. اهتمّ اهتمامًا أكثر ممّا ينبغي بمظهره، ولكن بمرور الأسابيع، حلَّ الإدراك بأنّها لن تحضر محلّ ذلك الأمل. ولماذا تأتي؟ ففي كلّ الأحوال كان يعيش والاعتقاد يساوره منذ زمن بعيد أنّ قبضته على ما كان يبدو حقيقيًّا أو ممكنًا قد ارتخت.

العمل هدَّأ من أعصابه، مثلما هدَّأه على الدوام. وفي هذه الليلة، وعلاوة على حجم زبائن الكريسمس في المطعم، فإنّهم سوف يرعون احتفالين مهمّين، فقد كان الملاك كلّه منهمكًا في العمل الانهماكَ كلّه، وشعر بالسعادة لأنّ أحدًا ما لم تسنح له فرصة ليسأله عن السبب الذي دفعه إلى إدراج مادّة على قائمة المأكولات في اللحظة الأخيرة: المهلّبيّة بزهر البرتقال.

وبعد مضي نصف ساعة، وفي حين كانت شرائح اللحم لا تزال مخلَّلة في صلصة حادّة، تقدّم منه أحد مساعديه الجدد وقال:

ـ لديك زائر أيّها الرئيس.

رفع إلياس من حاجبيه وقال مبتعدًا عن أفكاره:

ـ هه!

ـ ثمّة شخص يسأل عنك.

وقال إلياس:

ـ ليس الآن، فأنا لا أستطيع حتى الذهاب للتبوّل.

وعندما لاحظ إلياس المساعد يهزّ كتفيه ويستدير على عقبيه راجعًا من حيث أتى، خامره شكّ، فقال:

ـ انتظر لحظة. أليست هي امرأة ذات شعر محمرّ؟

ـ ما هو الشعر المحمرّ أيّها الشيف؟

فغمغم إلياس مقرّرًا أن يذهب بنفسه:

ـ لا عليك.

بعد سنوات على عشيّة ذلك الكريسمس، سوف يتذكّر إلياس تلك اللحظة: كيف خرج من المطبخ ومسح يديه بمنشفة وتوقّف في اللحظة التي رآها واقفة في المدخل تعدّل من تنّورتها في المنطقة الواقعة بين ساقيها، وكأنّها وجدت على حين بغتة أنّها أقصر ممّا ينبغي، وكانت تحمل حقيبة يد خمريّة اللون تحت إبطها ومسحةٌ من الشعور بالإثم تكسو وجهها، وكأنّها كانت لا تزال غير مصدّقة أنها جاءت إلى هذا المكان.

وجلسا من وراء طاولة في المطعم الخالي من الزبائن، وهو أمر غريب، بينما كان فريق العمل كلّه منهمكًا، هنا وهناك، فبدا الأمر أكثر غرابة. وكان أحد المساعدين يأتي إليه بين حين وحين ليسأل عن شيء ما، وفي كلّ مرّة كان إلياس يجيب إجابة هي مزيج من القلق والهدوء.

وبعد هنيهة قالت بمبي:

ـ اذهب إلى المطبخ.

فكذب إلياس قائلاً:

ـ لا، لا. لا تقلقي، فلديّ وقت كثير.

ولكنّها هزّت رأسها في عناد وقالت:

ـ اذهب أنت، ولكن هل في إمكاني المجيء أيضًا؟

فسألها:

ـ أأنت واثقة ممّا تقولين؟ إنّه بيت دجاج، وفيه ثعلب طليق وجائع، فقبل ساعتين من تناول العشاء سيجنّ جنونهم.

فابتسمت من غير انزعاج، فمحلّ الحلاقة مغلق اليوم ولمّا كانت أسرتها لا تحتفل بالكريسمس، فقد أخبرته أنّها تملك الوقت، فضلاً على أنّها تهوى بيت الدجاج. فقادها إلياس إلى المطبخ وهو لا يزال متردّدًا، وكان العاملون منشغلين انشغالاً جعلهم لا يملكون وقتًا للنظر إليها، فأعطاها زيّ الطهاة، وبناءً على رغبتها أعطاها أيضًا الفلفل لتقطّعه إلى مكعّبات والكرفس لتثرمه والزنجبيل لتقشّره. فما كان منها إلّا أن أكبّت على العمل من دون أن تنبس بحرف، ومن دون توقّف.

ولمّا حان موعد انصراف بمبي، ودّعها إلياس حتى الباب، ووقفا تحت لوحة تمثّل امرأة بيضاء عارية تحدّق إليهما بعينين غير مكترثتين ـ وهي لوحة منسوخة عن لوحة المحظيّة العظيمة للفرنسي جان أوغست دومينيك أنغرس. ولأسباب متباينة، لم يشعر الاثنان بالارتياح، وارتبكا، وحوّلا من أنظارهما عن اللوحة، وأحدهما عن الآخر.

وقال:

ـ إنّني مدين لك.

ولكنّه أدرك أنّها لم تفهمه، فمضى يقول:

ـ شكرًا لك.

فقالت:

ـ بل أنا أشكرك، فقد ساعدتني في ذلك اليوم.

كان الخوف قد بلغ منه كلّ مبلغ، لا يقوى على الإفصاح أو على عمل أيّ شيء قد يكون خطأً بالغًا، أو يتجاوز النواميس أو الأعراف الثقافيّة، فمدّ يده ليصافحها مصافحة قويّة. أمّا هي، فتجاهلت الإشارة وتقدّمت منه وطبعت قبلة رقيقة على وجنته.

* * *

سجن شروزبيري ١٩٩١

ذهبتُ في عصر هذا اليوم لزيارة الضابط أندرو ماك لوخلين واسترجاع بطاقة أختي البريديّة، وهو ما كان يتوقّعه.

تركني أنتظر ثلاثين دقيقة، ولم يكن السبب متمثّلاً في أنّ لديه مشاغل كثيرة تتطلّب منه النظر فيها، بل لأنّه أرادني أن أتذكّر من هو الرئيس. ووجدت قادمًا جديدًا ينتظر كي يلتقيه، وبدا في بيئة لا تليق به. كان يهزّ ساقيه متوتّرًا، ممسكًا ببعض الأوراق، ويبدو أنّه جاء ليقدّم شكوى. نظرة واحدة إلى هذا الرجل وستجد أنّه غرّ، يفتقر إلى التجربة ولم يلحق به أذًى.

أردت أن أقول له:

ـ لا تكن ساذجًا، ووفّر على نفسك عناء الكلام.

الوشاية في السجن ليست فكرة صائبة، لا سيّما في الأسابيع الأولى، عندما يراقبك الآخرون مراقبة النسور ولا تعرف أنت هذا من ذاك. وثمّة من لا يتعيّن جرح مشاعره، وإذا ما جرحت

مشاعره، فعليك أن تستجمع قواك لذلك.

ثمّة لوح مثبّت على الجدار قبالتي وعليه ملصقات ونشرات إعلانيّة عن التبرّع بأعضاء الجسد، والعلاج الطبّي ببديل عن عقار الميثادون المخدِّر ومجموعة لأصدقاء السجناء وأسرهم، والكبد «ب» و«ج»، وبرنامج إسناد السجناء السامريّين. قد يوحي هذا كلّه لمن هو طليق بأحزان الحياة في أروقة السجن، لكنّني لا أرى هذا الرأي، فبعد محكوميّة زاد أمدها عن عشر سنوات، فإنّني أخشى العالم الخارجي.

كنت في الثامنة وكانت أسماء في نحو السابعة عندما جئنا إلى إنكلترا وشاهدنا من فوق الحافلة ساعة الملكة القارعة، وهو الاسم الذي كنّا نطلقه على ساعة بيغ بن. وتعلّمنا اللغة في سرعة، على العكس من والدينا، ولا سيّما والدتنا، التي لم يكن النحو هو الذي شقَّ عليها فهمه وإدراكه وإنّما كانت هي لا تثق بالإنكليز عمومًا. ولم يكن السبب متمثّلاً أيضًا في أنّها ترتاح إلى الحديث بالتركيّة أو حتى بلغتها الأمّ الكرديّة، بل كانت تظنّ أنّ الكلمات تسبّب المتاعب، وتجعل الناس لا يفهم بعضهم بعضًا. كما أنّها لم تثق بأولئك الذين يعتمدون في كلامهم على الرطانة باللغة، كالصحافيين والمحامين والأدباء. كانت أمّي تحبّ الأغاني والتهويدات ووصفات مقادير الطعام والأدعية، حيث لا تؤدّي الكلمات إلّا دورًا ثانويًّا، هذا إن كان لها دور.

كانت والدتي تتكلّم في البيت معنا، نحن الأطفالَ، بلغة تركيّة مطعّمة بكلمات كرديّة، وكنّا نجيب عنها بلغة إنكليزيّة، ولا نتكلّم إلّا بالإنكليزيّة بيننا. ولطالما ساورني الاعتقاد في أنّها تفهم أكثر ممّا يبدو عليها.

ربّما ينكمش كلّ المهاجرين من لغة جديدة إلى حدٍّ ما. خذ مثلاً معجم أوكسفورد السميك جدًّا وأظهر لقادم جديد صفحتين واسأله عن بعض الكلمات: الاصطلاحات والاستعارات هي الأسوأ. حاولْ أن تفهم معنى عبارة «kicking the bucket»[1]. لقد تعلّمتَ معنى الفعل «to kick» وتعلم جيّدًا معنى كلمة «bucket»، لكن مهما بذلت من جهد فإنّك لن تفهم معنى العبارة، فالبلاغة أشبه بشريط أحمر يجعلك تشعر بالضآلة والضعف.

أمّا أختي أسماء فكانت مختلفة، فقد أحبّت اللغة مثل حبّ البطّ للماء. وإذا ما استخدم شخص ما عبارة لم تألفها من قبل، فإنّها تبذل قصارى جهدها لتجعل منها عبارة خاصّة بها، وكأنّها جامع نقود معدنيّة عثر على قطعة نقد نادرة. كانت تعشق الكلمات وأصواتها ومعانيها المستترة، وكانت والدتي كثيرة القلق على بصرها ـ وخياراتها في الزواج ـ الذي سوف يلحق به الضرر بسبب كثرة القراءة. أمّا أنا، فلم يكن لديّ وقت للكبت، وحظّي الآخر يكمن في الكلام العامّي الذي له قوّة المال. كان ذلك صحيحًا إلى أن بدأت أتلعثم في الكلام.

هنا تغيّرتُ، ولم يكن التغيّر بين ليلة وأخرى، بل كان شيئًا فشيئًا. وعلى الرّغم من أنّني لم أكن «نزيلاً» موثوقًا به، إلّا أنّ مارتن مَنَحَني امتياز استخدام المكتبة بعد الساعات المقرّرة. إنّني أقرأ وأبحث وأتأمّل ـ هذه هي الأشياء الثلاثة الكبرى التي يمكن أن تجعل من الحياة في السجن قريبة من الجحيم أو النعيم، اعتمادًا على رؤيتك لها.

---

(١) مصطلح بالعاميّة معناه الحرفي «يرفس الدلو»، لكنّه يعني «يموت». (المترجم).

قد تتخيّل أنّ كلّ شخص قد يكره إنسانًا مثلي، لكنّ الغريب في الأمر كلّه هو أن الحالة ليست كذلك. فأنا أتلقّى رسائل وبطاقات وهدايا من أماكن هي ليست سوى نقاط على الخارطة. ثمّة صبيان يعتقدون أنّني بطل، ولا يعرفون شيئًا عن حياتي، وثمّة نساء يرغبن في الزواج بي وأن يعالجنني بحبّهنّ. جنون.

ثم هناك الإخوة بالله الذين يريدون «إصلاحي». هم ينتمون إلى كلّ الأديان وليس إلى دين بعينه. يبدو أنّني جذّاب جدًّا. وأحيانًا أتلقّى شيئًا من الكلام الفارغ الذي يميّز ذلك العصر الجديد، فتراهم يرسلون إليّ منشورات وكراريس وأشرطة. «النساعد روحك الجريحة بإلقاء الضوء على أشدّ ساعاتك حلكة». كلمات رنّانة! يتظاهرون أنّ رسائلهم موجّهة إلى البشريّة جمعاء ولكنّهم على استعداد لحرق كلّ من لا يسير في ركابهم ووضعه على الخازوق. ولكنّهم على الرّغم من ذلك يشعرون بالمودّة تجاه من هم من أمثالي، فهم لا يملكون عددًا كافيًا منّا. كانت تحدوهم رغبة شديدة في إصلاح الآثمين ويسجّلون أهدافًا في نظر الله، وما نحن سوى تذاكر لدخولهم الجنّة ـ نحن حثالةَ المجتمع من الأشرار والساقطين.

في يوم من الأيّام جاءت صحافيّة لزيارتي، نحيفة مثل عصا ولكنّها حسنة الهندام، قصيرة التنّورة، جذّابة الساقين، طويلتهما، وما إلى ذلك. زارتني عددًا من المرّات وبدت واقفة إلى جانبي: أرجوك أن تطمئن يا أليكس. كلّ ما أبغيه هو فهم الحكاية وزيادة الوعي في المجتمع بالكتابة عنها.

يا لنبل الهدف! ثم تذهب وتكتب أسوأ مقالة. أمّا أنا، فكنت

أتسكّع بلا هدف، كأيّ طفل. الخطأ خطأ والدتي: فقد أفسدتني لأنّني كنت الولد البكر. هذه حالة نموذجيّة في التراث الأبوي في الشرق الأوسط. هراء! هراء! هراء! كنت بالغ الاستياء والانزعاج، حتى إنّني لم أكلّم أيّ صحافي ثانية. الصحافيّون ليسوا مهتمّين بالحقيقة، بل إنّ كلّ ما يسعون إليه ويفعلونه هو وضعك في إطار حكاية موجودة أصلاً في أدمغتهم.

وثمّة تقارير كُتبت أيضًا، بل أطروحة في جامعة من جامعات لندن. وفي يوم ما، كان ثمّة سياسي استخدمني مثالاً ليلوّث سمعة كلّ المهاجرين المسلمين وقال: «هذا الرجل نموذج للمهاجر الذي لا ينسجم انسجامًا واضحًا مع مفاهيم الحضارة الأوروبيّة». أنا غير مرئي في نظر كلّ هؤلاء الناس. وكذلك أمّي. إنّنا لسنا سوى وسيلة لتحقيق غاياتهم.

يُفتح الباب المؤدّي إلى المكتب ويطلّ الضابط ماك لوخلين برأسه:

ـ حسنًا، من لدينا هنا؟

يتنحّى جانبًا ويسمح لي بالدخول. لقد تغيّر مكتبه تغيّرًا كبيرًا، فعندما كان مارتن يشغل هذا المكان، فإنّه كان مكانًا مختلفًا. كان مارتن رجلاً يختلف عن هذا الضابط. كنّا نكنّ له الاحترام كلّه.

يجلس ماك لوخلين من حول مكتبه ويفتح ملفًّا. الواضح أنّه ملفّي. ويقول:

ـ أرى أنّك ولدت في العام ١٩٦٢. أنا وأنت في العمر نفسه. مولودان في الشهر نفسه. أتصدّق ذلك؟

كان يونس من مواليد برج الأسد، وكانت أسماء من مواليد

برج العذراء. أمّا أنا فمن مواليد برج العقرب، وهذا هو برج الضابط ماك لوخلين.

يواصل كلامه:

ـ يقولون إن ثمّة نوعين مختلفين من العقرب. أتعرف ذلك؟ العقارب التي تلدغ الآخرين والعقارب التي تلدغ نفسها.

يحدّق إليَّ، كأنّه يفكّر إن كنت شاذًّا وينطبق عليَّ كِلاَ النوعين.

ـ يشير التقرير إلى أنّك سُجنت مرارًا في الحبس الانفرادي، وأنّك تشاجرت كثيرًا. يا لك من مشاغب! دعنا نقرأ: كسرتَ أنف أحد النزلاء وهاجمت ضابطًا معيّنًا لمراقبة سلوك النزلاء. آه، وكسرت أصابع سجين آخر أربعتها... ثم يتوقّف عن القراءة ليخبرني قبل أن يستأنف:

ـ آخ. لا بدّ أنّ تلك التصرفات مؤذية.

تقلّصت معدتي.

ـ كيف فعلت ذلك يا أليكس؟ هل وضعت أصابعه فوق سطح صلب وكسرتها كلّها دفعة واحدة، أم أنّك لويتها واحدة تلو الأخرى؟

أعرف غايته. إنّه يذكّرني بما كنت عليه ـ وبما يمكن أن أكون عليه أيضًا. حياتي في السجن تتألّف من مرحلتين. الأولى: عندما كنت مشاغبًا يثير الاضطراب. ليس ثمّة كلمات لتوضيح ذلك تغيّر هذا الوصف. كنت هائجًا وساخطًا وضائعًا تمامًا. ثم هناك المرحلة الثانية، وهي المرحلة التي أمرُّ بها هنا بشكل أو آخر. ما

زلت غاضبًا ومجنونًا، ولكنّني منسجم مع نفسي أكثر ممّا أنا منسجم مع الآخرين من حولي.

فأقول:

ـ سحقْتُ يدَه بكتلة من الخرسانة المسلّحة.

ويقول ماك لوخلين مومئًا برأسه كأنّه يثمّن إجابتي:

ـ حسنًا. والضابط؟ ماذا حدث له؟

تشاجرت وإيّاه مشاجرة بسيطة.

هو الذي تسبّب في المشاجرة، إذْ دفعني في قوّة ليتأكّد من مدى قدرته على إيذائي من غير أن يتعرّض لعواقب وخيمة.

يحاول أن يجعلني أنحني أثناء التفتيش، يشتمني، ويستفزّني. كنت أخفي شفرة في فرشاة أسناني، فجرحت نصف وجهه، وبعد ذلك جرى إرساله إلى سجن آخر. أسمع أنّ ندبته لم تندمل.

ـ التقرير يفيد أنّك تتعرّض إلى نوبات فجائيّة، نوبات صرع، نوبات شقيقة، نوبات ذعر، نوبات قلق، ذهان، محاولات انتحار... آه...

يتوقّف عن القراءة. لقد عثر على شيء مثير للاهتمام:

ـ عوق في الكلام! ما هذا؟

فأجيب:

ـ إنّني أتلعثم في الكلام أحيانًا.

شفيت من ذلك وإن لم يكن الشفاء تامًّا، فعندما أتوتّر يتلعثم لساني، ولكنّني لن أمنحه متعة معرفة هذا الأمر.

يعود ماك لوخلين إلى القراءة:

ـ تستخدم الأدوية استخدامًا مفرطًا: ترازودون، زيميلدين، ليثيوم، باكسيل، فاليوم، زاناكس...

ليس لبعض هذه الأدوية أيّ تأثير يذكر، ولكنّ البقيّة ذات مفعول موقّت ولبعضها الآخر آثار جانبيّة كثيرة، حتى إنّ حالتي الصحّيّة تفاقمت أكثر من ذي قبل، فالليثيوم زاد من وزني والزيميلدين سبّب لي غثيانًا شديدًا جعلني أشعر كأنّني سوف أتقيّأ رئتيَّ الاثنتين، وفي إحدى المرّات تسبّب دواء الترازودون بحدوث انتصاب فظيع استمرّ ثلاثة أيّام. أفكّر في نفسي إن كانت هذه الأشياء مدوّنة في ملفّي أو أنّه اقتحم سجلّاتي الطبّيّة. وإذا كان الأمر كذلك، فهل هو قانوني؟

وعلى حين بغتة ضحك ضحكًا خفيفًا مكتومًا لمّا قرأ عبارة ما، واهتزّت كتفاه.

ـ آه، أنت لا تأكل اللحوم!

أومأت برأسي.

ضحكة أخرى.

ـ آسف. لا يمكنني كبت ضحكي، فمن كان مستأسدًا مثلك... أعني أنّ شخصًا قتل والدته ويملك تاريخًا حافلاً ومنظّمًا بالعنف، إنّما يثير الاستغراب عندما نعرف أنّه قلق بشأن بعض الحيوانات!

عندما أخفقتُ في الردّ عليه، خيّم علينا صمت مضطرب.

ـ هل يمكنني أن آخذ بطاقتي البريديّة؟

فيقول في لهجة جادّة مفاجئة:

ـ بالتأكيد، ولكن بعد أن تخبرني عن السبب الذي جعلت فيه رفيقك في السجن يضربك.

ـ إنّه يكاد يفقد كلّ شيء، فزوجته طلبت الطلاق وكان مضطرًّا إلى أن يضرب شخصًا ما.

ـ وأنت، السامري الرحيم[1]، قدّمتَ له صدرك. صحيح؟

ويفتح أحد الأدراج ويخرج منه بطاقة أسماء البريديّة. ولدهشتي لا يبدّد وقته من دون طائل، بل يناولني إيّاها مباشرة ثم يقول:

ـ ثمّة حمقى يظنّون أنّ هوديني توفّي على أثر الضربات التي تلقّاها في منطقة معدته، ويزعمون أنّ إحدى اللكمات مزّقت زائدته الدوديّة.

لا أتفوّه بكلمة. لا ضرورة لأن أخبره أنّني قد أكون أحد أولئك الحمقى، فإذا ما ضربت الزائدة الدوديّة ضربات متواصلة وبقوّة كافية فقد تحقّق نتيجة بذلك. القضيّة هي أن تعثر على الزاوية الصحيحة. في الأقلّ، الأمر يستأهل المحاولة. ماذا لديّ كي أخسره؟ إنّني أجري تدريبات على الموت.

(١) إشارة إلى رواية السامري الوارد ذكرها في إنجيل لوقا (الفصل العاشر: ٣٠ ـ ٣٥) التي تقول إنّ عيسى المسيح قال: كان رجل منحدر من أورشليم الى أريحا فوقع بين لصوص فعرّوه وجرحوه ثم مضوا وقد تركوه بين حيّ وميت فاتّفق أنّ كاهنًا كان منحدرًا في ذلك الطريق فأبصره وجاز، وكذلك لاوي، وافى المكان فأبصره وجاز، ثم إنّ سامريًّا مسافرًا مرّ به فلمّا رآه تحنّن إليه وضمّد جراحاته وصبّ عليها زيتًا وخمرًا وحمله على دابّته وأتى به إلى فندق واعتنى بأمره. وفي الغد أخرج دينارين وأعطاهما لصاحب الفندق وقال اعتن بأمره ومهما تنفق فوق هذا فأنا أدفعه لك عند عودتي. (المترجم).

ـ لديّ ما يكفي من الأدلّة يا أليكس لأقترح أنّك كنت تحول اللقاء لمصلحتك، أعني إن كنت عقرباً ميّالاً إلى لدغ نفسه.

فكّرت أنّه أذكى ممّا كنت أتخيّل، ولكنّني سوف أنكر ذلك في كلّ الأحوال.

ـ لماذا أريد قتل نفسي؟ فعمّا قريب سأصبح طليقًا.

كان ذلك عندما وجدت الضابط ماك لوخلين يميل من فوق مكتبه وينظر إليَّ ويتفوّه بالكلام الصحيح للمرّة الأولى.

ـ أنا وأنت نعرف يا أليكس أنّك لن تصبح طليقًا وإنْ خرجتَ من هنا، وإنْ أضحيت في الشارع، وأنّك ستظلّ أسيرَ الذنب الذي اقترفته.

ثم يجلس ثانية.

ـ كما تعلم، فإنّ موت هوديني لا صلة له باللكمات التي سدّدت إليه، وزائدته الدوديّة معطّلة ومحطّمة أصلاً.

ـ لماذا تخبرني بكلّ هذه التفاصيل؟

ـ لأنّ البحّار الذي يتّجه إلى المرفأ عند هبوب العاصفة هو بحّار حكيم.

فأقول له وأنا أقف على قدميّ:

ـ وإذا لم تكن هناك أيّة عاصفة وأنت تتّجه إلى المرفأ من دون سبب، فستفوتك أشعّة الشمس.

أعرف أنّ كلامي هذا ينطوي على مغالطة، إذْ لا ينبغي لي التفوّه بمثل هذا الكلام، غير أنّ غروري في حالة يقظة ـ هذا إن كان قد نام أصلاً.

ويقول ماك لوخلين:

ـ اجلس.

فأمتثل. ننتظر في صمت. وتمضي دقيقة كاملة.

ويقول ماك لوخلين:

ـ يمكنك الانصراف الآن.

وفي الوقت الذي أتوجّه فيه إلى الباب، أسمعه يغمغم، كأنّه يخاطب نفسه.

ـ لماذا تأتون إلى إنكلترا أيّها القوم حاملين وإيّاكم كلّ قذاراتكم.

تفاجئني في بريطانيا على الدوام كراهية الأجانب، فالناس لا يقولون لك صراحة أنت أميركي من أصل إسباني، أو إيطالي، وإن كانوا يلقون مثل هذه العبارات بين حين وحين، فالعنصريّة ليست جزءًا من الحياة اليوميّة كما هو الحال في بعض البلدان الأخرى التي أسمع عنها. القضيّة غاية في الحساسيّة، وغالبًا ما تكون مغلّفة بغلاف لمّاع، كما أنّها لا تخصّ لون بشرتك أو دينك على وجه التوكيد، بل تخصّ مدى تحضّرك.

أسير عائدًا إلى زنزانتي، محيّيًا في الطريق عددًا من زملائي، ومعظمهم من الإنكليز تحت هذا السقف، ولكنْ ثمّة عدد من الإسبان والروس والبلغار والعرب والأفارقة، ففي كلّ أمّة من الأمم تجد الصالحين والأشرار. ذلكم هو نصيبي. لبعض الرجال رؤوس مشوّشة بفعل المخدّرات والمشاجرات، أمّا رأسي أنا فربّما تشوّش أيضًا تمامًا، لأنّ فيه كمّيّات كبيرة من المخدّرات. البعض

لا يفتُرُ أو يضعف إلّا بعد أن يتحطّم تمامًا أو يتشوّش نهائيًّا، أمّا اللوطيّون فهذا صعب عليهم، فعندما وصلت إلى هذا المكان لم ترقني أيّة عصابة فيه، فقرّرت أن أؤلّف عصابة خاصّة بي. ولم يكن الأمر سهلاً، ولكنّني بذلت جهدي. وكانت لدينا قوانين صارمة غير مكتوبة يطيعها الكلّ: لا تسامح مع المغتصبين والمتحرّشين بالأطفال. لا فاكهة ولا مخادعين بين ظهرانينا. لا حشّاشين ولا مراهنين ولا مسكّرات.

وبغتة لم يعد في مقدوري المجابهة. صحيح أنّني كنت الزعيم، لكنّني تخلّيت عن العصابة لأنّ رأسي يحتشد بأمور لا بدّ لي من وضع حلّ لها. كنت أتعاطى المسكّنات في إفراط لمنعي من إلحاق الأذى بنفسي. كنت تحت المراقبة خشية إقدامي على الانتحار على مدار الساعة والأسبوع. كنت أنهار انهيارًا طويلاً، أكتئب أكثر ممّا أنا مكتئب الآن.

وفي إحدى الليالي جاءتني أمّي، شبحها، طيف... سمّه ما شئت. كان في وسعي أن أشمّ رائحة شعرها، شعرها الحقيقي فعلاً. ولبثَتْ معي طوال الليل، وجهها، عيناها. أجهشْتُ بالبكاء كما لم أجهش من قبل. وبعد ذلك بدأت أتغيّر، وأنا اليوم رجل مختلف. ربّما لست أفضل، ولكنّني مختلف. تلك معلومة لن يجدها الضابط ماك لوخلين في ملفّي أبدًا.

* * *

عندما أدخل الزنزانة، أجد تريبي جالسًا على سريره تحت بطّانيّات كثيرة العدد. شاحب الوجه كشحوب الموتى، مغمض العينين.

ويسألني:

ـ كيف جرت الأمور؟

ـ على ما يرام! لم يخنق أحدنا الآخر.

فيقول:

ـ جميل.

ثم يرجع إلى حالته من الحذر والتلبّد، إذْ كان يتعاطى عدداً أكبر من الحبوب منذ أن وصله نبأ الطلاق الوشيك.

بدايةً، أريد أن يأخذ الأمر ببساطة، ولكنّني أجد أنّ كلّ ما يبغيه هو أن يُترك وشأنه، فأحترم قراره، وأذهب وأستلقي على سريري، مستغرقاً في التفكير.

ثمّة جسر في الآخرة، أوهى من الشعرة وأشدّ انزلاقاً من ثعبان الماء، وعندما يحين يوم الحساب، فإنّ على كلّ شخص أن يعبره وحده. وسوف ينساب إلى مسامعك صراخ الآثمين عندما تحترق أبدانهم وتفور عظامهم، فإذا كنتَ آثمًا، فسوف تسقط فوق ألسنة اللهيب من تحتك، وإذا كنت قد فعلت ما يكفي من العمل الصالح، فإنّ الأضحيات التي ضحّيت بها في العيد سوف تُبعث من موتها وتقودك إلى برّ الأمان على الجانب الآخر. من علّمني هذا كلّه؟ لا بدَّ أنّه العمّ طارق، ولكنّني لست متأكّدًا.

كنت في سنّ السابعة عندما توقّفت عن تناول اللحوم. كنّا في كلّ عيد نطلب من الله أن يغفر لنا لأنّنا لم نكن قادرين على ذبح أُضْحِيَة. كان الجيران يأتون إلينا باللحم، وهذا أمر جيّد. ولكن

أمّي حثّت أبي ونحن في عامنا الأخير في إسطنبول أن يشتري كبشًا، ليس أيّ كبش، بل كبش كبير، فنحن سنغادر إلى إنكلترا على أيّة حال بعد أن عثر أبي على وظيفة له في أحد المصانع هناك. لقد فتح لنا بابًا جديدًا وينبغي لنا أن نحمده ونشكره على النحو اللائق به.

غير أنّ أبي ظلّ يشكو ويتذمّر من غلاء الثمن وعدم ضرورة الشراء. وعلى الرّغم من ذلك، فقد استيقظت يومًا على صوت ثغاء ينبعث من البستان، فوجدت كبشًا يرعى ما فيها من كلأ شحيح. كان حيوانًا له أثره البالغ في النفس، تزيّن الأشرطة القرمزيّة اللون قرنيه، وسمحوا لي أن أرعاه وأن أطعمه وأسقيه. ولطّخت أنا وأمّي بالحنّة الوتد الموثوق به، فظهرت عليه بقع قرمزيّة اللون. أمضيت اليومين المقبلين إلى جواره. لقد كان حيواني الصغير الأوّل والوحيد.

وقال العمّ طارق:

ـ لا تغرم بذلك الكبش أكثر ممّا ينبغي.

فسألت:

ـ لماذا؟

فقطّب جبينه وقال:

ـ ألم يخبروك؟ فعمّا قريب سوف نذبحه.

هرعت إلى أبي باكيًا، وكان يبدو في جذل وحبور، ووعدني ألّا يلمس الحيوان. وقال:

ـ لديّ ولد واحد، وسأدعك تمتلك هذا الكبش.

يا الله! طرت فرحًا، وشعرت بالفخر والكبرياء لأنّني صبي وليس صبيّة شديدة الهزال مثل أسماء. وفي اليوم التالي أرسلوني في مهمّة، ولمّا قفلت راجعًا كانت جثّة الكبش المنتفخة متدلّية من على الشجرة.

لم أستطع أن أوضح أيَّ أذًى أصابني أكثر: موت حيواني أم كذبة أبي. هل علمت أنّ أمّي كانت متواطئة؟ أم أنّني لست مفضّلاً كما كنت أظنّ؟ ولطّخت أمّي جبهتي ببقعة من دم الكبش، وقبّلتني وقالت إنّني أبدو مثل سلطان، ثم انصرفت لتطهو اللحم. وفاحت في الدار رائحة لاذعة، بغيضة، وفي المساء رفضت تناول اللحم عندما وضعوه في طبق أمامي.

وسألني أبي:

ـ أتدري كم من المال كلّفني شراء ذلك الكبش؟ ألديك أيّة فكرة أيّها الطفل المزعج الجاحد؟

في تلك اللحظة، لم أعرف ما الذي اعتراني، ولكنّني أعرف الآن. إنّه الغضب، إفراز غدّة الأدرينالين، الإحساس بالهبوط والصعود في الوقت نفسه. غضب يكتسحك مثل موجة. الشيء التالي الذي سوف تعرفه هو أنّك واقف على قمّة، وأنّ في وسعك أن تتحدّى كلّ شخص، حتى والدك نفسه. دفعت الطبق بيدي في خشونة أكبر ممّا تعمّدت، فانسكب الطعام من على الطاولة، وهنا طرفت عينا والدي، غيرَ مصدّق. أتراني أتحدّى سلطته أمام أمّي وأختي؟ فجنّ جنونه، ولم يسبق لي أن شاهدته ثائرًا هائجًا كما شاهدته في تلك اللحظة.

وصاح بي:

- كُلْ يا إسكندر. إنّني لا أضرب أطفالي!

لكنّني هززت كتفيَّ، فكانت تلك القشّةَ التي قصمت ظهر البعير، إذْ دفع برأسي في بركة اللحم، وعلى نحو غير متوقّع ارتطم ذقني بقعر الطبق وارتفع من جديد مثل كرة من مطّاط، لكنّ أنفي كان لا يزال غارقًا في المرق الكثيف بدهونه. وامتزج كلّ شيء ببكائي ومخاطي، وسمعت صوت شفط ومصّ، إنّه صوت صادر عنّي. لن أنسى ذلك الطعم ما حييت، طعم ضعفي، إذْ ظلّ والدي يدفع برأسي وأصابع يده ملتفّة من حول رقبتي في قوّة وبأس، فأخذت أمضغ الطعام رافعًا رأسي لأتنفّس الهواء بين مضغة وأخرى.

وأخيرًا سمح لي بالانصراف، ولمّا رفعت بصري رأيته خَجِلاً من ردّ فعله، فهو لم يكن رجلاً متعسّفًا، لا أدري ما الذي استبدّ به في ذلك اليوم. ولا أعتقد أنّه كان يدري.

وهرعت أمّي إلى جواري تمسح وجهي وهي تقول:

- يا أسدي! يا سلطاني! هل أنت على ما يرام؟

تجاهلت يد أمّي من على جبيني وحدجت أبي بنظرة أدركت معها مدى النفور والاستياء في عينيه، فضلاً على مسحة من التعاسة. ما الذي كنّا نفعله بأنفسنا؟ لماذا يصبّ أحدنا جام غضبه على الآخر دائمًا؟

وأدركت في ذلك الوقت وفي ذلك المكان أنّ من العبث الذي لا طائل من ورائه الارتعاش من قمّة الرأس إلى أخمص القدمين، ولو أظهرْتُ أيَّ قدر من الضعف لداس عليَّ، بل لداس العالم

اللعين كلّه عليّ. ولكن لو كنت قويًا، قويًا حقًا، لما استطاع أحد إلى ذلك سبيلاً. ومنذ ذلك اليوم لم أُظهر أيّ ضعف. صحيح أنّني أرتكب خطأً، أكون مخطئًا تمامًا، ولكن من دون ضعف. لا، أبدًا. ومنذ ذلك اليوم أيضًا، لم أتناول اللحم قطّ.

إسكندر طبرق

* * *

الشـارب

لندن، ١ كانون الثاني ١٩٧٨

الساعة هي الخامسة والدقيقة الأربعون، كان آدم قد استيقظ لتوّه، بعد أن أصبح مؤخّرًا يوقّت الساعة المنبّهة على ساعات مزعجة كي يخلو إلى نفسه قبل أن تستيقظ روكسانا. كان يروقه أن يراقبها وهي نائمة، فوجهها يبدو مختلفًا، أقلّ توتّرًا، خاليًا من الغضب عليه، بسبب ما هو عليه وما لا يستطيع أن يحقّقه. وكان فمها الخالي من قلم الشفاه الخوخي أصغر حجمًا، بلا مسحة من البرودة تمامًا. أمّا شعرها، فكان مفروشًا من فوق الوسادة وكأنّه كتلة من صوف تشير إلى كلّ الاتّجاهات، فتأسر قلبه.

الوله بروكسانا يشبه مراقبة قارب يمرّ من على مسافة بعيدة. كان آدم يجلس على الشاطئ ساكنًا من دون حراك، يخفي عينيه عن الشمس. وكانت السفينة تمرق من تحت أنظاره مروقًا ليس سريعًا، بل لا يكاد يحسّ به أحد. كان يعرف أنّ أيّامهما معًا باتت

معدودة، تنسلّ بعيدة عنه شيئًا فشيئًا، وكلّ ما في وسعه أن يفعله هو الانتظار إلى أن تصبح نقطة في الأفق، فلمّا اكتشفت أنّه لا يملك مالاً بعد الآن، سوف تنتهي صحبتها وإيّاه. كان يدرك هذا كلّه، لأنّها سبق أن أوضحت له كلّ شيء منذ البداية. «للمرأة متطلّباتها»، هذا ما كانت تردّده. إنّ ما يثير الدهشة والألم معًا أنّ روكسانا كانت صريحة ومباشِرة دومًا.

شاهدته يخسر ماله في لعبة الروليت، ولكنّها ظلّت تعتقد أنّه يخبّئ مالاً لوقت الحاجة: مدّخرات في مصرف، قرض أقرضه ومن شأنه أن يُسدَّد له في قوت لاحق، أو عقار في لندن... لا بدَّ أنّه يملك شيئًا من المال، فقد مضى على وجوده في هذا البلد زمن طويل. وتوقّعت أن يكشف آدم عن هذا الكنز الدفين في أيّ وقت. ولم تكن توقّعاتها مبنيّة على فراغ، فقد بذل قصارى جهده كي يمنحها ذلك الانطباع.

لكنّ الواقع هو أنّ آدم فقد وظيفته في المصنع قبل بضعة أيّام، بعد أن تكبّد المصنع خسائر كبيرة بسبب من عدم إتقانه عمله. ولم يعد له من مصدر للدخل سوى النقود التي اقترضها من أصدقائه، وكانت الممتلكات الوحيدة الباقية هي المنزل الذي تقطن فيه أسرته. سبق له أن حصل على رهن قبل ستّ سنوات ولكنّه لم يوفّ سوى ربعه.

تنهّدت روكسانا وهي تتقلّب في الفراش، والتوت عضلات وجهها، وانتفخ أنفها قليلاً وقالت: «لا». ثم غمغمت بكلمات غير

مفهومة، ثم كرّرت ثانية: «لا، لا».

حبس آدم أنفاسه محاولاً أن يسمع ما هو أكثر من ذلك. وفكّر في الحلم الذي يراودها. جسدها هنا فوق السرير، معه، ولكن روحها بعيدة عنه، مع رجل آخر. وإذا كان الأمر كذلك، فهل تحبّ ذلك الرجل؟ لم يعرف آدم أيّهما الأسوأ: ألّا تكون قد أحبّته ولا تستطيع أن تفتح قلبها لتصارحه، أم أنّها أحبّت مرّة واحدة ولن تهب نفسها لأيّ شخص آخر على هذا النحو ثانية.

وانسلّ من الفراش في هدوء، فانزلقت البطّانيّة إلى الجانب كاشفةً عن فَخِذَيْ روكسانا العاريتين. في وسعها أن تنام عارية تمامًا، صيفًا أو شتاءً، مرتاحة تمامًا من دون ثياب. أمّا هو، فلا يقدر على ذلك، ففي كلّ مرّة كان يخلع ثيابه لممارسة الحبّ وإيّاها يعود إلى ارتدائها بعد ذلك.

كانت روكسانا تقول له متذمّرة.

ـ اخلع جواربك في السرير، فأنت تبدو مثل رجل عجوز!

وكان يمتثل لأمرها وإن لم يكن يروقه ذلك، لأنّه يشعر بالبرودة دائمًا. التدفئة في الشقّة بائسة، فالأنابيب القديمة تحتاج إلى إصلاح، وفي بعض أجزائها تسرُّب، ولكنّه لم يتجرّأ على الشكوى. وثمّة شيء آخر كان لا يروق روكسانا، وهو شاربه، وغالبًا ما كانت تقول: «الإنكليز لا يملكون الشوارب. متى ستبادر إلى حلاقتها، فالشارب يجعلك تبدو شبيهًا بستالين».

جرجر خطاه في الظلمة وتوجّه إلى المطبخ وأشعل النور،

فهاله منظر الفوضى، حتى وإن كان يعتقد أنّه اعتادها. كانت روكسانا تكره أشغال البيت، وغالبًا ما كانت توبّخه لعدم مساعدته إيّاها: لا يمكنك أن تجعلني خادمتك، فأنا لست زوجتك. صحيح؟

كان يروقها التفوّه بمثل هذه العبارات ـ تلميحات جارحة مثل قدح زجاجي مكسور، وكانت مرارتها جزءًا لا يتجزّأ من شخصيّتها، فتجعلها شرسة، محبّة للانتقام في معظم الأحيان. ولم يكن آدم ليعترض على فظاظة ألفاظها وتعليقاتها قدْرَ اعتراضه على العموميّات التي تتّهمه بها. وفي كلّ مرّة كانت روكسانا تلقي درسًا عليه يولد لديه الانطباع أنّها توجّه كلامها إلى كلّ من عرفتهم من الرجال. شيء مؤلم. ولمّا كانت جزءًا من جمهور متشرّد ولا تنطوي عيناها على علامة فارقة، فقد ظلّ يشعر أنّه ليس سوى قصّة حبّ موقّتة. كان يريد أن يكون فريدًا، حبيبها الأوحد، ولم يكن يهمّه إن كان لديها عشّاق آخرون قبله. حسنًا، لا يهمّ، ولكن إن استطاع في الأقلّ أن يطمئنّ إلى أنّه مميّز، فمن شأن ذلك أن يخفّف من قلقه. وكانت روكسانا تضحك لمثل هذه الأفكار: أنا لم أقل لك قطّ إنّني أحبّك. صحيح؟ وكلّما اقترب من الكلام عن عواطفه ومشاعره، وهو شيء لم يسبق له أن فعله، لا مع زوجته ولا مع أطفاله، فإنّها تلوّح بيدها كأنّما تريد أن تبعد عنها دخان سيكارة يثير انزعاجها.

فتح آدم الخزانة، في محاولة لتجنُّب النظر إلى حوض غسيل الصحون، حيث تراكمت أكداس من المواعين والأكواب القذرة في ماء آسن. وتمكّن من العثور على وعاء نظيف وبدأ يعدّ قهوة تركيّة.

بدأت القهوة تفور على نار هادئة، وكان فورانها البطيء مهدِّئًا على نحو غريب. المطبخ مفعم برائحة كريهة، ولكنّه سرعان ما جلس إلى الطاولة وبيده كوب وبدأ يحتسي محتوياته في رشفات قليلة. ولكنّه على الرّغم من ذلك لم يشعر أنّه استيقظ تمامًا ـ ما زال يحمل الليل في داخله.

كان في الليلة الماضية قد ذهب إلى مدرسة ابنه الأصغر وانتظر خارج مبناها متواريًا من وراء الظلال، وفكّر في نفسه أنّه أشبه بمجرم. وعندما خرج يونس من المدرسة رفقة زملائه، لم يناد عليه، فقد تصلّب حلقه. ومرّت به هذه الحالة نفسها أكثر من مرّة عندما كان ينتظر على مقربة من مقهى علاء الدين مؤملاً أن يصادف إسكندر. وفي يوم من الأيّام وقعت عيناه عليه من مسافة بعيدة ممسكًا بيد فتاة شقراء نحيفة البنية. كان يعلم أنّ لإسكندر صديقة إنكليزيّة، لكنّ رؤيته لهما معًا مفعمَيْن بالحيويّة والنشاط، جعلته يشعر أنّه كبير السنّ، وكشفت له عن حيويّة لم يعد يمتلكها. وأثناء الأشهر التي لم يرجع فيها إلى البيت، كان ولده قد كبر كثيرًا وبات شابًّا وسيمًا جدًّا! وبقدر ما كان يريد الذهاب إليه ليكلّمه، فإنّه لم يقدر على ذلك.

عندما كان الناس ينظرون إليه، وهذا هو أصعب ما في الأمر، يتحدّث قليلاً عند مواجهة أعين الأصدقاء والجيران ويتظاهر بعدم الانتباه إلى ما يدور في أذهانهم: رجل شنيع تخلّى عن أسرته من أجل راقصة.

خطا داخل الردهة واتّجه إلى الحمّام وأشعل النور وتفحّص هيئته في المرآة: قطّب جبينه لمّا رأى عينيه الواجمتين والعلامات

التي تكسو وجنتيه نتيجة البقع القديمة، والخطوط البيض التي تشوب شعر رأسه ـ كيف يمكن لهذا الشعر أن يصبح أَشْيَبَ في حين ما زال شاربه أسود اللون؟ سوف يعمد إلى تشذيب لحيته على النحو الذي دأب عليه كلّ صباح طوال ما يزيد عن خمسة عشر عامًا، ولكنْ يبدو أنّ يده اليمنى لها خطّة أخرى. وعلى حين بغتة، جذب شفرة حلاقة.

عندما خرج آدم من الحمّام حليقًا، وجد روكسانا جالسة على السرير، تقلّب صفحات مجلّة نسائيّة، فلم يتعيّن عليه إلّا أن ينظر إليها نظرة خاطفة كي يعرف أنّها لم تنم نومًا كافيًا، وأنّ مزاجها لم يكن في أفضل حالاته.

قالت من دون أن ترفع بصرها:

ـ هل لديك قهوة لي؟

ـ بالتأكيد.

بدت نبرات صوته مختلفة قليلاً عندما كلّمها، وكأنّها صدًى.

ـ رقبتي تؤلمني من جديد.

بدأ يدلّك رقبتها، راسمًا دوائر عريضة من فوق كتفيها، حتى استقرّت يداه على أسفل ظهرها، فتأوّهت، وارتخى جسدها وكأنّها في حمّام مكسوٍّ بالرغوة، ولكنّه واصل التدليك بقوّة أكبر، حتى التقت أطراف أصابعه من الجهتين حول رقبتها، مصادَفةً بادئ الأمر، ولكن سرعان ما تحوّلت إلى لقاء متعمَّد. وخطر بباله، وإنْ ليس للمرّة الأولى، أنّ في وسعه قتل هذه المرأة، وقال:

ـ سأذهب وأعدُّ لك القهوة.

لكنّها نظرت إليه نظرة إمعان وقالت:

ـ انتظر! ماذا فعلت بوجهك؟

فقال:

ـ آه، شاربي. هل يروقك الآن؟

على الرّغم من أنّ روكسانا أومأت برأسها، ولكنّها تمنّت فجأة ومن دون معرفة السبب، لو أنّه لم يحلقه تمامًا وأنّه لم يحبّها كلّ هذا الحبّ وأن يكون كلّ شيء بهذا الاختلاف... وارتسمت على زاوية فمها ابتسامة حزينة، وبدت المرارة وكأنّها تفيض منها.

* * *

مفاجأة صامتة

لندن، ٢ كانون الثاني ١٩٧٨

في باكورة الأصيل، أضاء وهج ذهبي اللون نوافذ «المقصّ البلّوري»، حيث كانت مجموعة من زينة الكريسمس تتدلّى مثل حبّات عنب ناضجة، غامرةً المدخل بضوء متألّق، وكانت ريتّا لا تزال مترنّحة ومضطربة من آثار حفلة الليلة السابقة، تحتسي ثالث فنجان قهوة من غير حليب، عندما فُتح الباب ودخل رجل في خريف العمر. كان وجهه مفعمًا بالحيويّة والنشاط، مشرقًا، يسير في ثقة هادئة يمكن أن تعطي انطباعًا بالترفّع لولا ابتسامته الدافئة.

استبدّت الدهشة بريتّا وأنعمت النظر في الغريب من قمّة رأسه حتى قدميه. لم يبدُ عليه أنّه ممثّل إحدى شركات الشامبو أو ملتمس يحاول أن يجمع عددًا آخر من التواقيع، كما لم تبدُ عليه أيُّ مسحة تشير إلى أنّه مفتّش جاء ليطمئنّ إلى الظروف الصحّيّة في محلّ الحلاقة. كان حَسَنَ الهندام، متأنّقًا، وكريمًا ـ لكنّ المرء لا يحزر ما يجري في هذه الأيّام.

وسألت ريتّا:

ـ هل لي أن أساعدك؟

ـ نعم، من فضلك. إنّني أرغب في حلاقة شعر رأسي.

فضحكت ريتّا ضحكة قصيرة مكتومة وقالت:

ـ أعتقد أنّنا لم نفتح المحلّ بعد، ما زالت أمامنا خمس عشرة دقيقة على الافتتاح و...

ـ آه، يمكنني الانتظار خارج المحلّ. لا بأس.

ـ كنت أودّ أن أحيطك علمًا أنّ المحلّ ليس لكلا الجنسين. لماذا لا تذهب إلى دكّان الحلّاق عند ناصية الشارع؟

فقال إلياس:

ـ آه، سبق لي أن ذهبت إلى ذلك الحلّاق، وينبغي على الرجل أن يسمّي نفسه جزّارًا وليس حلّاقًا.

قالت ريتّا موافقة، يشوب صوتها شيء من السرور:

ـ حسنًا. إنّني واثقة من أنّنا نستطيع إرسالك إلى حلّاق جيّد.

فقال بلهجة أشدّ رقّة:

ـ إنّني أسألك إن كنتِ قد لاحظتِ مؤخّرًا عدد محلّات الحلاقة المشتركة لكلا الجنسين؟

فسألت ريتّا في دهشة مصطنعة:

ـ حقًّا؟

لم تكن ريتّا قد استبعدت تمامًا احتمال أن يكون الرجل مخبولاً.

كانت بمبي تشتغل في الغرفة الصغيرة في مؤخّرة المحلّ، فتوقّفت عن تنظيف فرش الشعر وبذلت جهدًا كبيرًا كي تسمع مَن هذا الذي تكلّمه ريتّا، وظنّت أنّها استدلّت على الصوت. ولكن من غير المحتمل أن يكون هو. ووثب فؤادها من صدرها وسارت على أطراف أصابعها إلى داخل الصالة، وهنا انتابتها دهشة بالغة عندما رأت إلياس يكلّم مديرتها، فاتّكأت على الجدار عاجزة عن القيام بأيّ حركة.

لم يشاهد إلياس بمبي وهي تدخل. وكان يقول:

ـ لقد أبقيت شعري طويلاً على مدى السنوات الأربع الماضية، لكنّني أعتقد أنّ الوقت حان للتغيير.

ـ طالما أخبرت زبائني من السيّدات أنّ الشعر الطويل للنساء. هكذا هي إرادة الله.

اقتنعت بمبي الآن أنّها يجب أن تتدخّل، وأن تطرده، ولكنّها فكّرت طويلاً فلم تجد وسيلة لتنفيذ ذلك، فما كان منها إلّا أن زمّت شفتيها وعضّت على نواجذها واستأنفت مراقبتهما.

قال إلياس:

ـ ربّما يمكنك مساعدتي عندئذٍ، فأنا رئيس طهاة، أتدرين؟ وفي كلّ يوم يتذمّر زبون من الزبائن من وجود شعرة في حسائه.

فضحكت ريتّا وقالت:

ـ إنّني أحبّ أن أساعدك أيّها العزيز، ولكنّني أنتظر موعد الساعة الثانية عشرة والنصف.

فتدخّلت بمبي قائلة:

ـ سوف أساعده أنا.

التفتت ريتّا وإلياس جانبًا محدّقَيْن إليها في دهشة، أيديهما على خاصرتيهما، واجمَيْن، كأنّهما نسيا من تكون. ثم أضافت بمبي باذلة أقصى ما لديها من جهد كي تبدو طبيعيّة.

ـ أنا سأقصّ شعره.

لم تكن المحاولةُ هي الأولى في قصّ الشعر، وإذا لم تكن بمبي قد تدرّبت لتصبح مصفّفة شعر، فإنّها راقبت ريتّا زمنًا طويلاً يكفيها لأن تتقن الحرفة، كما أنّ قصّ شعر أطفالها، لا سيّما الأبناء، على مدى سنوات طويلة، علّمها بعض الفنون.

فقالت ريتّا وهي تهزّ كتفيها:

ـ حسنًا، اتّفقنا إذًا.

وأرادت أن تضيف عبارة أخرى، ولكنّ الباب فُتح بقوّة على مصراعيه ودخلت زبونتها، فسارت ريتّا في متّجه المرأة باسطة ذراعيها وقالت:

ـ كم أنا مسرورة لرؤيتك يا مارغريت.

في هذه الأثناء، قادت بمبي إلياس إلى كرسي في نهاية الغرفة حيث همست متوتّرة:

ـ ما الذي جاء بك؟

ـ آسف. أنا مضطرّ لرؤيتك.

فقالت في صوت وكأنّها طفل وقح:

ـ لا، لستَ مضطرًّا.

ثم ثبّتت صدريّة في عنقه ووضعت أكثر من مقصّ على صينيّة

من البلاستيك وبدأت تبلّل شعره برذاذ ماء من زجاجة.

لاحظ إلياس أنّ بمبي كانت غاية في التوتّر بسبب مجيئه، وأنّ يديها ترتعشان، وشَعَرَ بدافع قوي لأن يمسك بها وأن يعتذر لها لما سبّبه لها من إزعاج، ولكنّه اضطرّ إلى أن يتنفّس تنفّسًا عميقًا كي يسيطر على نفسه، وكاد أن يندم على سوء صنيعه، غير أنّ متعة وجودها قريبة منه إلى هذا الحدّ طغت على إحساسه بالذنب، فراقب حركاتها في المرآة البيضويّة المثبتة على الجدار، وأغمض عينيه لمّا لمسته، ولمّا فتحهما رأى أنّها كانت تراقبه بدورها، لكن كلماتها التي تفوّهت بها بعد ذلك لم تنسجم مع المودّة التي لاحت في تحديقتها:

ـ سأحلق شعرك، ولكن لا تأتِ إلى هنا بعد الآن.

ـ حسنًا. لا تقلقي. أعدك بألّا أحضر إلى هنا ثانية.

شعرت بمبي بالارتياح وابتسمت لأوّل مرّة، وقالت:

ـ وكيف تريد أن أحلق لك.

ـ لا أدري.

كان إلياس يلتزم بنمط معيّن من قصّ الشعر دائمًا، ولكنّه أدرك الآن أنّه غير مستعدّ تمامًا لتغيير قصّته. ومع هذا، قال:

ـ اجعليني أبدو وسيمًا من فضلك، جميلاً.

فغمغمت ريتّا في صوت كان سماعه إيّاه معجزة:

ـ أنت جميل من قبل.

وهنا انساب إلى سمعهما صوت انطلاق ضحكة في الجهة الأخرى من الغرفة، فقد كانت ريتّا وزبونتها تتبادلان القيل والقال

في حيويّة وحماسة وانشغلتا في عالم خاصّ بهما.

وقال:

ـ أريد أن أطلب منك طلبًا.

ردَّت متوجّسةً:

ـ ما هو؟

ـ انظري. أودّ أن أتعرّف إليك معرفة أدقّ، وأن أقضي وإيّاك بعض الوقت، ولكن إذا فضّلْتِ أن أبقى بعيدًا عنك، فأرجو أن تخبريني.

جفلت بمبي، وامتقع وجهها قليلاً وتمتمت بعد لحظة بدت بلا نهاية:

ـ لا تبق بعيدًا.

رفع إلياس يده اليمنى ـ اليد الأقرب إلى الجدار والمتوارية عن أنظار الآخرين ـ وأمسك بيد بمبي اليمنى.. كانت تلك هي المرّة الأولى التي يلمسها فيها على نحو لم يكن عفويًا أو مصحوبًا بالخجل، بل كان مصحوبًا بالإثم والذعر. أمسك بيدها وكأنّه إنسان يسقط ويمدّ يده إلى حبل، وضغط عليها في قوّة آذتها، ولكنّها لم تعترض، لأنّ الشعور نفسه ساورها ـ القوّة والتأخّر والاستحالة، وتضاءلت يدها في يده حتى باتت مثل عصفور.

ظلّا على تلك الحالة ثانية أخرى، إلى أن جذبتها وهي تقول:

ـ كيف تريدني أن أقصّ شعرك؟

فسمع إلياس نفسه وهو يقول:

ـ مثل شعره، من فضلك!

تابعت بمبي نظرته إلى المنضدة القريبة التي كانت عليها مجلّة مفتوحة على صورة رجل في حفل تكريم ـ نجم رياضي البنية من نجوم هوليوود، خزفي الأسنان، برونزي البشرة.

ـ مثله؟ لا، نعم... متأكّد؟

لم تستطع بمبي منع الضحكة التي انطلقت منها.

ـ تمامًا. طالما أردت أن أبدو مثل نجم من النجوم.

أمسكت بالمجلّة، ودرست الصورة في عناية، وإن كانت تعلم أنّه لا يهتمّ كثيرًا بالممثّل وأنّه يضيّع الوقت سدًى كي يظلّ قريبًا منها. بقيت على مدى نصف الساعة التالية تعمل في صمت، عاقدة حاجبيها في تأمّل. لم يتبادلا الكلمات، ومرّةً بعد أخرى كانت ريتّا تختلس نظرة إليهما لتتأكّد ممّا يدور، فإذا بها لا ترى إلّا بمبي وهي تعمل بجدّ والزبون الغريب يقرأ المجلّات الفاخرة واحدة تلو الأخرى.

ولمّا فرغت بمبي من عملها أمسكت بمرآة وجعلته ينظر إلى مؤخّر رأسه. تنهّد إلياس محاولاً ألّا تنهار معنويّاته، بسبب قصّة شعره القصيرة وشكل مؤخّر عنقه، وعندما خلعت عنه الصدريّة طرح عليها سؤالاً أراده أن يكون عابرًا:

ـ هل تهوين الأشرطة السينمائيّة يا بمبي؟

ـ ماذا؟

ـ أعني السينما. هل تحبّين الذهاب إلى السينما؟

أومأت بمبي برأسها مبتسمة، ففي السنوات الأولى من العيش في إنكلترا كانت بمبي تطلب من أطفالها أن يصحبوها إلى السينما

مرّات ومرّات، وكانوا يمتثلون لمطلبها. لكنّ اللغة كانت تمثّل عائقًا على الدوام، ووجدت صعوبة في متابعة الحوار.

وسألت:

ـ لماذا تسأل؟

اقترب إلياس الآن وعيناه مسمّرتان على عينيها:

ـ تركتُ شيئًا تحت مرشّة الشعر. أرجوك، انظري إليه.

ثم رفع صوته إلى درجة الحبور:

ـ حسنًا. شكرًا لك. لقد أتقنت عملك.

أطلّت ريتّا من الجانب الآخر من الصالة مسرورة لرؤيتها زبونًا آخر راضيًا مرضيًّا. وفي حين تبادلت هي وإلياس المزاح والنكات، ودفع ثمن الحلاقة، كانت بمبي جامدة في مكانها، ثابتة العينين على مرشّة الشعر. ثمّة تذكرة: الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الجمعة المقبل في سينما في حيّ إيست فينشلي. كان شريطًا سينمائيًّا قديمًا، بالأسود والأبيض، وصامتًا.

* * *

عار

لندن، ٥ كانون الثاني ١٩٧٨

كان طارق مالكَ محلٍّ يقع عند ناصية شارع كوينزبريدج، وكان يبيع على مدى اثنتي عشرة ساعة يوميًّا وطوال ستّة أيّام في الأسبوع، الحلوى والوجبات السريعة ومستحضرات التزيين والمشروبات الفوّارة والأطعمة المجمّدة والسكائر ومنوّعات أخرى. وكان لديه ستاند (حامل) يعرض عليه مختلف الصحف والمجلّات، التي كان بعضها يثير استياءه كلّما وقعت أنظاره عليه: «ماي فير» و«مين أونلي» و«فيستا» و«نيف» و«بنتهاوس» و«كلوب إنترناشيونال». في هذا البلد بذاءة أكثر ممّا ينبغي. لا فائدة من كلّ هذا العري. ولم يستطع برغم كلّ محاولاته أن يفهم كيف يمكن للرجال أن يجدوا متعة في هذه المجلّات، ولم يستطع أن يفهم أيضًا النساء اللواتي كنّ يتعرَّين فيها. أليست لهنّ أسر؟ آباء؟ أزواج؟ إخوة؟ وكان يحتفظ بالمجلّات غير المحتشمة في نهاية

الستاند ومن تحت علب سمك التونا والحليب، حيث يستطيع عشّاقها العثور عليها حتى إن كانت في ذلك المكان، ولكنّها لا تخدش العيون البريئة.

رنا طارق إلى الساعة جائعًا. الحادية عشرة والربع. كانت زوجته ميرال تأتيه بوجبة الغداء في تمام الساعة الثانية عشرة والنصف من بعد ظهر كلّ يوم، وهي تتألّف من الكفتة واللبن بالنعنع والباذنجان المدخّن بمعجون الطماطم والرزّ والحمّص. وكان سماور الشاي يئزّ في الجهة الخلفيّة من المحلّ معلنًا جهوزيّته للشرب، لأنّ طارق كان يحتسي في اليوم الاعتيادي، من الصباح وحتى المساء، زهاء ثلاثين قدحًا من الشاي، الذي يفضّله بلا حليب، ويكتفي بمكعّب من السكّر يمتصّه في كلّ مرّة.

وفي الوقت الذي كان فيه طارق يتناول طعامه، كانت ميرال تشغل نفسها بمسح الغرفة وتنظيف الرفوف وتلميع الكتابة على واجهة المحلّ التي حملت عبارة «أويسز ميني مارت» بدل «ماركت». كان طارق يريد إضافة حرف الكاف في وسط كلمة مارت ولكن يبدو أنّه لم يكن يملك الوقت لذلك. يضاف إلى ذلك، أنّ الزبائن لم يبد عليهم أيّ اعتراض.

وعندما يفرغ من تناول طعامه، كانت ميرال تأخذ الوعاء الفارغ وتهرع إلى المنزل لتنهي الأشغال المنزليّة. ربّما سيطلب من زوجته مساعدته في إدارة المحلّ يومًا ما، ولكنّه لن يسمح لها بالعمل في مكان بعيد وسط الغرباء على النحو الذي سمح فيه آدم

لبمبي بالعمل. ذلك عمل غير صائب، وإذا لم تكن ثمّة أزمة ماليّة، فإنّ على المرأة ألّا تبحث عن عمل.

لا يذهب طارق إلى المسجد القريب، كغيره من أصحاب المحلّات في المنطقة، لا قبل الغداء ولا بعده، فهو لم يكن ملتزمًا بممارسة الشعائر الدينيّة، على الرّغم من أنّ الذين شاهدوه بلحيته الكثّة ومسبحته المتدلّية من يده كانوا ميّالين إلى الاعتقاد بعكس ذلك، فهو كان يُطلِق اللحية بسبب ملاءمتها وجهه ولإخفاء بثور الجدري من تحتها، أمّا المسبحة فكانت عادةً دأب عليها أكثر ممّا هي دليل ورع وتقوى، كما أنّ لديه عددًا منها في البيت ـ عنبر ساطع وشذري فاتح ووردي كالمرجان وعقيق يماني كامد وأخضر يشمي. وكانت أصابعه تداعب المسبحة مداعبة سريعة ومتواصلة فتملأ المحلّ بصوت مستمرّ لم يتنبّه هو له بسبب ضجيج الحافلات المارّة من أمامه أو المركّبات التي تتوقّف مصدِرةً صوتًا طويلاً لدى توقّفها قرب إشارات المرور.

كان طارق أكبر إخوته الثلاثة وأوّل من غادر منهم إسطنبول ليعمل خارج البلاد. اشتغل بادئ الأمر في مصنع ينتج المكائن في بلدة صغيرة تُدعى تروسيدورف بألمانيا، ولكنّه وجد العمل شاقًّا ومرهقًا، والألمان تصعب استمالتهم، ولغتهم عويصة، فالألمان يدعونك إلى بلدهم للعمل وليس للاختلاط بهم، ويتوقّعون منك ترك العمل حالما تنتفي الحاجة إليك. وكان التأقلم وإيّاهم صعبًا ومستحيلاً، وكأنّك تعانق قنفذًا. ربّما تكمن

فيهم رقّة غامضة وجوهر لطيف، ولكنْ يصعب تجاهل الملاحظات الجارحة التي ينطوون عليها. وكان في وسع جالية المهاجرين أن تساعده في الثبات على قدميه كي يشعر أنّه أقوى، وبالتالي أنّه موضع ترحيب، ولكنّه لم يكن قطّ ذلك الرجل الماهر في إقامة علاقات، ولذلك لم تكن السنوات التي أمضاها في ألمانيا استثناء من ذلك.

وفي إحدى المرّات صادق عاملاً تونسيًّا، فصحبه هذا إلى غروبي فريهيت في المنطقة الحمراء في هامبورغ ـ إعلانات مضيئة ونوادي موسيقى وضحك بمختلف اللغات. وانتاب طارق الذعر والهلع لمَّا رأى نساءً يكشفن عن أجسادهنّ مثل تماثيل عرض الأزياء في واجهات المحلّات، ولكنّ سحناتهنّ المتعالية ونظراتهنّ الرزينة كانت مبعث اضطراب أيضًا. لم يكنّ مثل غانيات في أشرطة سينمائيّة تركيّة قديمة يعانين بلوى الحياة وقهرها.

وقال صديقه بلهجة ألمانيّة مبسّطة كي يفهمه:

ـ أتريد الدخول؟

ثم أشار إلى مدخل مزيّن بمصابيح كهربائيّة متلألئة.

ـ وماذا هناك؟

فلاحت ابتسامة على وجه الرجل وكرّر في هلع مصطنع:

ـ ماذا هناك؟ نساء أيّها الرجل. نساء شقراوات.

لكنّ طارق خفض من بصره ورنا إلى البقع على حذائه الثقيل وغمغم بجواب خفيض لم يسمعه الرجل:

ـ لا أريد الدخول.

لكنّ الرجل نظر إليه نظرة هزء واستخفاف:

ـ كما تشاء أيّها الرجل. إذا لم تستطع الذهاب، فإنّك لن تستطيع.

فكّر طارق في أن يضربه، يرفسه على عظم الساق بين الركبة والقدم بحذائه الثقيل الموحل، ولكن سرعان ما تلاشى الدافع، فراقب الرجل يدلف من الباب ويتوارى عن الأنظار تاركًا إيّاه في الشارع المعتم حيث بات في وسعه أن يسمع امرأة تغنّي من وراء نوافذ مغلقة.

وفي الأسبوع نفسه، عرف طارق من العمّال في المصنع أنّ الرجل كان يخبر كلّ فرد كيف أنّه ذهب إلى المبغى ولكنّه لم يشعر بالارتياح، فضحك الناس ضحكًا مكبوتًا من خلفه، وأشار بعضهم إلى أنّه شاذّ. كان طارق قد خطّط للزواج في ذلك العام، ولكن ذلك الحادث عجّل من خططه، ولمّا جاء بعروسه من بلدة في الأناضول ـ وهي إحدى قريباته من جهة والده ـ، طلب من ميرال زيارة المصنع كلّ يوم في الشهر الأوّل، كي يرى الكلّ أنّه ليس واحدًا من أولئك الشذّاذ، فيسدّ أفواههم بذلك.

* * *

في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والعشرين فُتح الباب ودخلت ميرال تسير متمهّلة، متورّدة الوجنتين من شدّة الريح. قائمة الطعام لهذا اليوم تتألّف من شوربة العدس والفلفل الأخضر المحشو والحلوى. راقبته وهو يتناول الطعام برهة وجيزة من الزمن مزهوّة من فرط شهيّته. ثم قالت:

ـ جاءت بمبي إلى هنا في هذا الصباح.

ـ وماذا تريد؟

ـ لم تطلب شيئًا مباشرة، ولكنّني أظنّها بحاجة إلى المال.

ـ المال، المال، المال...

كان طارق قد شاهد ذات مرّة شريطًا سينمائيًّا يتحوّل فيه البطل إلى شقي كي ينقذ شقيقه الأصغر من الفقر، وليمنحه مستقبلاً أفضل من المستقبل الذي رآه الله مناسبًا له. وفي نهاية المطاف، وعلى نحو غير متوقّع، ألقى الأخ الأصغر ـ الذي أضحى مفتّشًا في جهاز الشرطة ـ القبض على البطل على الرّغم من أنّه احترمه وأحبّه وأعجب به وكان مدينًا له مدى الحياة.

لكن قصّة أسرتهم لم تكن قصّة أبطال وأوغاد، فعلى الرّغم من أنّ طارق كان قد بذل قصارى جهده لمساعدة أخويه في البقاء على قيد الحياة، معتقدًا أنّ قدْرًا من المساعدة يمكن أن يغيّر من قدَرهما، إلّا أنّه كان يعلم أنّه رجل محدود القدرات، وكذلك شأن آدم وخليل. وقد حذا أخواه حَذْوَه وأصبحا عاملين مهاجرين ـ

الأوّل في أستراليا والثاني في إنكلترا. وبعد مضي بضع سنوات تخلّى طارق عن عمله في ألمانيا وسافر إلى إنكلترا، حيث اتّفقا على أنّ الطقس فظيع ولكنّ الناس مؤدّبون.

وسأل طارق مستفسرًا بعد أن لمست لحيته شوربته:

ـ هل تعرف بمبي مكانه؟

فقالت ميرال:

ـ لا تعرف أيّ شيء، ولكن...

وهنا توقّفت، إذْ بدأت تصبّ الماء المغلي في إبريق الشاي الموضوع فوق السماور، ثم أضافت:

ـ ولكنّها تعرف أنّه انتقل للعيش في صحبة امرأة أخرى.

فقال طارق:

ـ حسنًا، وماذا تتوقّعين إن لم تكن امرأةٌ قادرةً على الاحتفاظ بزوجها في البيت...

ولكنّه لم يكمل عبارته.

لم يكن يتعيّن على آدم أن يتزوّج بتلك المرأة، فثمّة فتيات أفضل منها له، ولكنّه على الرّغم من ذلك، هام حبًّا ببمبي على نحو يتعذّر على التفسير. أمّا سبب اختياره لها أو سبب هذه السرعة المفاجئة، فهو ما لم يتمكّن طارق من إدراكه. ولم يكن

السبب كامنًا في أنّه لم ينتبه لجمال بمبي، غير أنّ هذا الأمر زاد في نظره من عدم أهليّتها بالثقة. إنّ الرجال مخطئون عندما يشتهون النساء الجذّابات. في إمكانهم مغازلتهنّ في أيّام عزوبيّتهم، ولكن على الزوجة أن تمتلك سجايا أخرى غير الوجه الجميل. وقد عارض منذ البداية هذا الزواج، لكن آدم كان وحيدًا في تلك القرية الكرديّة المنسيّة عندما طلب يد بمبي، وحيدًا وصغيرًا جدًا.

فعندما هربت والدتهم رفقةَ رجل آخر، كان طارق في السادسة عشرة من عمره، وخليل في الثالثة عشرة، أمّا آدم فلم يكن يتجاوز الحادية عشرة. كانت النساء في ملايين البيوت في إسطنبول يفعلن ما في وسعهنّ من أجل وحدة الأسرة ورضا الأطفال، ولكن والدتهم، والدتهم وحدها، هي التي تخلّت عنهم.

ليس في وسع كلّ شخص أن يفهم أنّ الشرف هو كلّ ما يملكه بعض الرجال في هذا العالم، فالأثرياء يقدرون على الخسارة وعلى استعادة سمعتهم وشراء الذمم بالسهولة التي يشترون بها سيّارة أو إعادة تأثيث دورهم، لكنّ الأمور مختلفة لبقيّة الناس، فكلّما قلت إمكانيّات المرء ازدادت قيمة شرفه. والإنكليز لا يفهمون هذه القواعد الموغلة في القدم، فزوجاتهم يمكن أن يقبّلن رجالاً آخرين ويحتسين الشراب ويراقصن الغرباء والابتسامات تلوح على وجوههنّ، أمّا في الجانب الآخر، الرجل الذي يلحق العار بشرفه إنّما هو رجل ميت، فلا تقدر على السير

في الطريق إلّا إذا كنت معتادًا التحديق إلى الرصيف، ولا يمكن أن ترتاد مقهًى أو تلعب النرد أو تشاهد لعبة كرة القدم في حانة، ولسوف يتهدّل كتفاك، ويزداد إحكام قبضتيك، وتغور عيناك في محجريهما ويغدو كيانك كلّه كتلة هامدة، وتنكفئ أكثر فأكثر عند سماع كلّ إشاعة، ولن ينتبه أحد إليك عندما تتكلّم، ولن تكون كلماتك أكثر قيمة من روث يابس، وستبقى السيكارة التي تقدّمها لشخص ما من دون تدخين، والقهوة التي تحتسيها مُرَّة إلى الأبد، ولن تُدعى إلى حفلات زفاف أو ختان أو خطوبة، خشية أن تأتي بحظّك النحس وإيّاك. وفي الركن الذي أنت فيه، حيث يحيط بك الخزي والعار، سوف تجفّ وتذبل مثل ثمرة مجفّفة... كان طارق على علم بهذا كلّه، لأنّه سبق أن حدث لأبيه، فبابا لم يمت بسبب تليّف الكبد. ربّما كان للكحول أثره في الإسراع بموته، ولكنّ العار هو الذي قتله في نهاية الأمر. كان آدم وخليل أصغر سنًّا من أن يفهما هذا الشيء، ولكن طارق شاهد كلّ شيء يحدث أمامه.

وبعد أن انصرفت ميرال، جلس طارق لحظةً هادئًا ليستغرق في التفكير. لقد رأى حتى الآن حالة شقيقه على أنّها مصيبة حلَّت به أكثر ممّا هي شائبة أو نقيصة. المقامرة مرض، أسوأ أنواع المرض. ولكن تبذير المال على راقصة، على امرأة لا تختلف عن النساء اللواتي تظهر صورهنّ في المجلّات، أسوأ من ذلك بكثير. لا بدَّ له من أن يكلّم آدم كلامًا جادًّا، هذا إن استطاع العثور عليه، فعندما يهجر رجل بيته مثل هذا الهجران، فإنّ بقيّة

أفراد الأسرة يسهُل عليهم الانحراف عن جادّة الصواب. ولكي يضمن طارق عدم حدوث هذا الشيء، ينبغي له أن يبقي بمبي والأطفال تحت أنظاره، فشهرتهم واحدة، وإذا ما لحق العار بأحدهم فإنّ الخزي سيظلّ ملاصقًا له، كما حدث لطبرق الأكبر، فشرفهم هو شرفه.

* * *

تصميم الغلاف نجاح طاهر

تغادر بمبي تركيا، تاركة وراءها أختها التوأم, وتابعة زوجها الحبيب آدم إلى لندن. وتحاول عائلة "طبرق" الكرديّة، عبثًا، في المنفى الابتعاد عن التقاليد والمعتقدات، التي تبقى تلاحقهم حتى آخر نقطة دم.

يجد أولاد عائلة طبرق أنفسَهم عالقين في فخّ الماضي. ومصدومين بجريمة مروّعة تقلب حياتهم رأسًا على عقب رواية قويّة تجري أحداثها بين تركيا ولندن، تحكي الفقدان والعذاب، الوفاء والخيانة، صراع الحداثة والتقاليد، فتمزِّق العائلات إربًا إربًا.

أليف شافاك هي الروائيّة الأكثر مبيعًا في تركيا. نالت جوائز أدبيّة عالميّة عديدة وتُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات.

صدر لها عن دار الآداب: "أربعون قاعدة للحبّ", "لقيطة اسطنبول" و"شرف".

www.elifshafak.com

دار الآداب
هاتف: ٨٦١٦٣٣/ ٠١
٧٩٥١٣٥/ ٠١
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

ISBN: 978-9953-89-271-9
9 789953 892719